

الاعتناء في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

تأليف

أريج بنت إبراهيم الخميس

المكتبة الإسلامية

للتراث والفكر الإسلامي

الاعتذر في القرآن الكريم
«دراسة موضوعية»





الاعتذر في القرآن الكريم «دراسة موضوعية»

تأليف
أريج بنت إبراهيم الخميس

الذخائر
لنشر التراث والدراسات العلمية



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

الدِّخْبَاءُ

لِلتَّحْقِيقِ التَّرَاثِ وَاللِّدْرَاسَاتِ الْعِلْمِيَّةِ

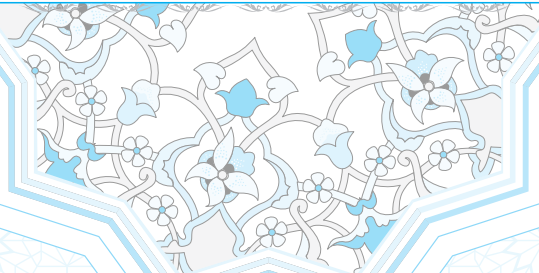
وقفة علمية، تُعنى بنشر التراث والدراسات العلمية المتميزة

إصاحبها

د. محمد يوسف الجوراني

الأردن - عمان - تركيا - اسطنبول

thakhaer@gmail.com - 00905050524253



المقدمة

وتشتمل على ما يلي :

أهمية الموضوع .

مشكلة البحث .

أهداف البحث .

الدراسات السابقة .

منهج البحث .

إجراءات البحث .

خطة البحث .

كلمة شكر .



المقدمة

الحمد الذي نَزَلَ الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ،
ثم الصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين .
أما بعد :

فقد خُلِقَ الإنسان في دار البذل والعمل ، يسعى ليكتسب ، ويعمل ليرتقي في دينه ودنياه ، وهو في ذلك معرضٌ للخطأ ، الذي هو من سمات البشر ، وإن من أسمى السبل للخروج من ذلك الزلل ذاك الخُلُق الذي جاء ظاهراً في سير الأنبياء والصالحين ، وملازماً لحياة الفالحين ، وهو خُلُقٌ يريح النفوس والضمائر ، ويرقى بصاحبه إلى مرتبة التقوى والتواضع ، وهو سبيل لإصلاح السلوك في المجتمع ، فالفرد لبنة من لبناته بصلاحه يصلح المجتمع ؛ لأجل ذلك أردت أن أُلقي الضوء على هذا الخُلُق الذي نفتقده في حياتنا الاجتماعية ، ويغيبُ عنا كثيراً في علاقتنا مع المولى سبحانه ألا وهو « الاعتذار » ، الذي يورث قوة الإرادة والاشتغال بعظائم الأمور التي خُلقنا من أجلها ، كما أنه يداوى به القلوب المكسورة والكرامة المجروحة ، وتصلح به العلاقات المتصدعة في حق البشر ، مستنبطة دراستي من القرآن ، فهو المعين الذي لا ينضب ، راجية من الله التوفيق والإعانة في خدمة كتاب الله ، وإبراز هذا الموضوع المهم من خلال آياته .

وقد وسمت الموضوع بـ:

الاعتذار في القرآن الكريم

(دراسة موضوعية)

أهمية الموضوع :

إن استحسان أساتذتي في قسم القرآن وعلومه لهذا الموضوع : « الاعتذار في القرآن الكريم : دراسة موضوعية » ليدل على أهمية الموضوع وجدّته وجدارته ، ليكون موضوع دراسة علمية جادة .

وهذه الأهمية راجعة إلى نقاط رئيسة ، أختصرها فيما يلي :

❁ أني بعد البحث والتحري والسؤال لم أجد كتابا يجمع هذا الموضوع ويبرزه ، لذلك لابد من الاهتمام به لتوضح معالم هذا الخلق السامي لكل مسلم جاد في بناء أخلاقه .

❁ أن القرآن الكريم يولي هذا الخلق اهتماماً يظهر ذلك في كثرة الآيات التي تتناوله بمختلف الأساليب ؛ مما يجعل له الجدارة في التأمل والتدبر والدراسة ، وكذا اهتمام السنة المطهرة بهذا الخلق ، يلفت الانتباه ويستدعي الوقوف عليه .

❁ كون الاعتذار من الأمور التي يحتاج إليها المؤمن في سائر علاقاته ، سواء أكانت مع ربه أم مع بني جنسه .

❁ ضعف خلق الاعتذار في المجتمع ، والمفاهيم الخاطئة حوله ، مع ماله من الأثر في إصلاح القلوب ، وتقوية الأواصر الاجتماعية .

❁ أن ظاهرة التفرق والخلافات الاجتماعية ، لابد لها من علاج وتقويم رشيد ، وفي اعتقادي أن خلق الاعتذار جزء لا يستهان به في معالجة الوضع وتقويم الظاهرة .

مشكلة البحث :

تتلخص مشكلة البحث في محاولة الإجابة عن الأسئلة التالية :

أولاً : ما مفهوم الاعتذار؟

ثانياً : ما أنواع الاعتذار في القرآن؟

ثالثاً : ما الأسباب الداعية لقبول الاعتذار؟

رابعاً : ما الأثر الذي يتركه الاعتذار؟

خامساً : ما دلالات الاعتذار في القرآن الكريم؟

أهداف البحث :

يهدف هذا الموضوع إلى تحقيق أهداف عدة منها :

١ - توضيح معنى الاعتذار في القرآن توضيحاً جلياً .

٢ - تصنيف الآيات المتعلقة بالاعتذار .

٣ - التعرف على الأثر الذي يتركه الاعتذار على المَعْتَذِر والمُعْتَذَرِ منه .

٤ - الكشف عن الدلالات التي برزت من حديث القرآن عن الاعتذار .

الدراسات السابقة :

بعد البحث والسؤال في مراكز البحوث ، وكشافات الجامعات ، وقواعد البيانات ، وسؤال المتخصصين في الدراسات القرآنية ظهر لي أن هناك بعض البحوث في مترادفات الاعتذار ، لكن بعد البحث في مضمونها وجدتها تختلف عن موضوع هذا البحث ، وأهم الدراسات في ذلك ما يلي :

١) التوبة أصولها وخصائصها وآثارها في ضوء القرآن :

رسالة دكتوراه في قسم الكتاب والسنة بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى ، للدكتور مروان أحمد حمدان .

٢) التوبة في ضوء القرآن الكريم :

رسالة ماجستير في قسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية للبنات بجدة ، للدكتورة آمال صالح نصير .

فهاتان الرسالتان تختلفان عن رسالتي المقترحة من عدة وجوه منها :

١ - اختلاف معنى التوبة عن الاعتذار ، فالتوبة الندم وترك المعصية في الحال ، والعزم على ألا يعود لمثلها ، والاعتذار يحمل هذا المعنى ويزيد على ذلك بأن يتحرى الإنسان ما يمحو أثر ذنبه ، ببيان حاله بأنه لم يفعل ، أو يقول : فعلت لأجل كذا ، فيذكر ما يخرج عنه كونه مذنباً ، فكل توبة عذر وليس كل عذر توبة ، وهذا ما أشار إليه الأصفهاني^(١) .

(١) ينظر : « المفردات في غريب القرآن » للراغب الأصفهاني (٥٥٥)

- ٢- أنها لم تذكر الاستعمال القرآني للفظ الاعتذار ومرادفاته الواردة في القرآن .
- ٣- أنها لم تتعرض لتصنيف أنواع الاعتذار الواردة في القرآن .
- ٤ - أنها اختصت بدراسة توبة العبد لربه وما يتعلق بها من أحكام ، ودراستي شاملة لجوانب الاعتذار مع العبد لربه وللعبد مع الخلق .
- ٤ - أنها لم تتناول الآيات الواردة في الاعتذار بالتحليل ، سواء أكان ذلك في اعتذار الأنبياء لله ، أم في اعتذار سائر الخلق لله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** ، أم في الاعتذار لغير الله كما أوردتها في الباب الثاني من الخطة .
- ٥- أنها لم تقف على الاعتذار في الحياة الآخرة ، وقد أوردتها في ثلاثة مباحث .

منهج البحث :

سلكت في هذا البحث المنهج الاستقرائي للموضوع ، مع التحليل ، حسب متطلبات البحث وطبيعة الدراسة .

إجراءات البحث :

- ١- اتباع المنهج الاستقرائي من خلال الجمع والتحليل للوصول إلى النتائج .
- ٢- الاعتماد على أمّات المصادر القديمة ، والمراجع الحديثة .
- ٣- عزو الآيات الواردة في البحث بذكر الآية ، وموضعها من السورة .
- ٤ - تخريج الأحاديث النبوية والآثار ، ونقل أحكام المحدثين على غير ما في الصحيحين ، أما إن كان في الصحيحين فأكتفي بالعزو إليهما فقط .

- ٥- توثيق النقول الواردة في الرسالة ، من مصادرها الأصيلة .
- ٦- التعريف بالأعلام غير المشهورين ، مكتفيةً بذكر اسمه ثلاثياً ، ونسبه ، وثلاثة من أهم صفاته ، وفنه ، ووفاته .
- ٧- التعريف بالمصطلحات ، والكلمات الغريبة ، والقبائل ، والمواضع .
- ٨- ألحقت بالبحث مجموعة من الفهارس الفنية تقرّب المادة العلمية للقارئ بأيسر الطرق ، وهي :
 - ١ . فهرس الآيات القرآنية ، وذكرت فيه الآيات مرتبةً حسب موقعها من المصحف ، مع ذكر رقمها ، وموضع ورودها في البحث .
 - ٢ . فهرس الأحاديث النبوية ، وأوردت فيه الأحاديث التي تضمنها البحث ، مع ذكر موضعها في البحث .
 - ٣ . فهرس الأعلام المترجم لهم .
 - ٣ . فهرس الأماكن والقبائل .
 - ٤ . فهرس المصادر والمراجع ، ورتبت فيه أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في هذا البحث ترتيباً ألفبائياً على أسماء الكتب ، مع ذكر المعلومات المتاحة عن الطبعة المستعملة .
 - ٥ . فهرس الموضوعات .

خطة البحث :

اشتمل هذا البحث على مقدمة ، وتمهيد ، وبابين ، وخاتمة وفهارس :
المقدمة : وفيها أهمية الموضوع ، أهداف الموضوع ، مشكلة البحث ،
 الدراسات السابقة ، منهج البحث ، إجراءات البحث ، خطة البحث .
التمهيد : قيمة الاعتذار وأهميته .

الباب الأول : الاعتذار في القرآن الكريم : استعمالاته ، وأنواعه ، وأسبابه ،
 وأثره ، وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول : الاعتذار واستعمالاته في القرآن الكريم ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف الاعتذار لغةً واصطلاحاً .

المبحث الثاني : الاستعمال القرآني للفظ الاعتذار .

المبحث الثالث : مرادفات الاعتذار في القرآن الكريم .

الفصل الثاني : أنواع الاعتذار في القرآن الكريم ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : أنواع الاعتذار من حيث الوقوع ، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : الاعتذار ابتداء .

المطلب الثاني : الاعتذار بعد ظهور الأمر وبيان الحق .

المطلب الثالث : الاعتذار لبيان الحال .

المبحث الثاني : أنواع الاعتذار من حيث النوع والسبب ، وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : الاعتذار من فعل .

المطلب الثاني : الاعتذار من مقولة .

المطلب الثالث : الاعتذار من طلب ما لا يليق .

المطلب الرابع : الاعتذار للجهل بالحال .

المطلب الخامس : الاعتذار من المؤاخذه بالنسيان .

المبحث الثالث : أنواع الاعتذار من حيث القبول والرد ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : الاعتذار المقبول .

المطلب الثاني : الاعتذار المردود .

الفصل الثالث : أسباب قبول الاعتذار ، وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : الاعتراف بالذنب والخطأ .

المبحث الثاني : تقديم الأسباب الصادقة .

المبحث الثالث : انتقاء الألفاظ المناسبة .

المبحث الرابع : تقديم الاعتذار في الوقت المناسب .

الفصل الرابع : أثر الاعتذار ، وفيه مبحثان :

المبحث الأول : أثر الاعتذار على المعتذر .

المبحث الثاني : أثر الاعتذار على المعتذر منه .

الباب الثاني : المعتذرون في القرآن الكريم ، وفيه خمسة فصول :

الفصل الأول : اعتذار الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وفيه ستة مباحث :

المبحث الأول : اعتذار آدم لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

المبحث الثاني : اعتذار نوح لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

المبحث الثالث : اعتذار يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

المبحث الرابع : اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حينما طلب رؤيته .

المطلب الثاني : اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن قومه .

المطلب الثالث : اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حينما قتل نفسا بغير حق .

المبحث الخامس : اعتذار داود عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

المبحث السادس : اعتذار سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

الفصل الثاني : اعتذار سائر الخلق لَهِ ، وفيه ستة مباحث :

المبحث الأول : اعتذار صاحب القرية في سورة البقرة .

المبحث الثاني : اعتذار صاحب الجنتين في سورة الكهف .

المبحث الثالث : اعتذار أصحاب الجنة في سورة القلم .

المبحث الرابع : اعتذار قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

المبحث الخامس : اعتذار بلقيس في قصة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ .

المبحث السادس : اعتذار فرعون .

الفصل الثالث : الاعتذار للأنبياء ، وفيه سبعة مباحث :

المبحث الأول : اعتذار إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : اعتذار إخوة يوسف ليعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَام حينما زعموا أنه أكله الذئب .

المطلب الثاني : اعتذار إخوة يوسف ليوسف عَلَيْهِ السَّلَام .

المطلب الثالث : اعتذار إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام لأبيهم حينما ظهر أمرهم .

المبحث الثاني : اعتذار امرأة العزيز .

المبحث الثالث : اعتذار هارون لموسى عَلَيْهِمَا السَّلَام .

المبحث الرابع : اعتذار الهدهد لسليمان عَلَيْهِ السَّلَام .

المبحث الخامس : اعتذار المستهزئين بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

المبحث السادس : اعتذار أغنياء المنافقين للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

المبحث السابع : اعتذار المعذرين من الأعراب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

الفصل الرابع : الاعتذار لغير الأنبياء ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَام للخضر .

المبحث الثاني : اعتذار إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام لأصحاب العير .

المبحث الثالث : اعتذار المنافقين للمؤمنين .

الفصل الخامس : الاعتذار في الحياة الآخرة ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : اعتذار الظالمين والمفرطين حين تتوفاهم الملائكة .

المبحث الثاني : اعتذار المشركين والظالمين والمفرطين يوم القيامة ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : اعتذارهم في عَرَصاتِ يوم القيامة .

المطلب الثاني : اعتذارهم في النارِ .

المبحث الثالث : اعتذار إبليس .

الخاتمة : وفيها أهم النتائج ، والتوصيات .

الفهارس : وتشمل الفهارس التالية :

١ - فهرس الآيات القرآنية .

٢ - فهرس الأحاديث النبوية والآثار .

٣ - فهرس الأماكن .

٤ - فهرس الأعلام المترجم لهم .

٥ - المصادر والمراجع .

٦ - فهرس الموضوعات .



كلمة شكر

فليس لي في هذا المقام من شكر أبدأ به إلا شكر ربي **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** أن منَّ عليَّ بهذه النعمة العظيمة ، وهي أن شرفني بدراسة موضوع من مواضيع كتابه الكريم ، ثم وفقني لإنجاز هذا العمل على ما فيه من ضعف البشر وقصر النظر ، فما كان فيه من صواب فهو من محض فضله **عَزَّ وَجَلَّ** ومنتته عليّ ، فله الحمد والشكر ، وإن كانت الأخرى فمن نفسي ومن الشيطان ، وأسأل الله العفو والغفران ، ولعلي لا أعدم ناصحًا وقف على شيء من ذلك فنبهني إليه مشكورًا مأجورًا .

وأحمد الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** الذي خلقني من أبوين كريمين ، كان لهما أعظم الأثر في تربيتي وإرشادي وحفز همتي ، فجزاهما الله عني خير الجزاء وأجزل لهما المثوبة والعطاء ، وبارك في أعمارهما على طاعته ، وبوَّءهما من الجنة منزلاً .

ثم أثني بالشكر لجامعة القصيم الغراء ، ممثلة في كلية الشريعة وقسم القرآن وعلومه ، على ما تقدمه من خدمة ورعاية للعلم وأهله ، فجزئ الله القائمين عليها خير الجزاء .

ثم أخص بالشكر شيعي وأستاذي فضيلة الدكتور : علي عمر السحيباني ، الذي تكرم عليّ بالإشراف على هذه الرسالة ، فأسأل الله أن يجزل له العطية ، وينفع به البرية .

كما وأتوجه بالشكر والتقدير لأستاذي الكريمين عضوي لجنة المناقشة ، لما سيقدمانه من ملاحظات ستكون محل العناية .

ثم أتوجه بالشكر إلى زوجي الدكتور **عبد الله حمود الفريح** ، بما قدّمه لي من توجيه وإرشاد ، وبصبره عليّ طوال إعداد البحث ، فجزاه الله عنّي خير الجزاء .
كما وأشكر إخواني وأخواتي الأعزاء على قلبي ، الذين لم ييخلوا عليّ بالدعاء ، وتقديم المساعدة ، فجزاهم الله عنّي خير الجزاء .

وفي الختام أتقدّم بالشكر الجزيل لكل من ساهم في إنجاز هذا البحث ولو بدعوة في ظهر الغيب .



التمهيد قيمة الاعتذار وأهميته

الاعتذار خُلِقَ عظيم يتحلى به السائرون الصادقون إلى ربهم ، يرتفع به مقامهم ، وتعلو درجاتهم ، وتُمحى زلاتهم وعثراتهم ، وبه يتقون غضب مولاهم ، بادر به أبو البشر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما زلَّ في أكل ما نُهي عنه من الشجر ، واقتفى أثره الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من بعده في طريق سيرهم إلى ربهم ، ثم كان أدبًا وخُلُقًا لمتمم الأخلاق بين البشر ، محمد قائد الأمة بالتعليم والقدوة ، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] .

وقد ضرب لنا فيه أعلى المقامات وأرقى الأساليب والعبر ، لم يمنعه من ذلك علو المقام ، فما الاعتذار إلا خلق سام ، وأدب فاضل ، يجعل سعادة الفرد في قمتها ، تجاه نفسه وتجاه المجتمع ، تميّز به العقلاء بالعودة للصواب ، وارتقى به النبلاء في محو أثر الزلل ، من شأنه أن يرفع من قدر صاحبه ولا ينقصه ، ويجلب التواضع ، وينفي عن النفس الكبر ، به تُمسح آثار الحقد والكراهية من القلوب ، وتُفتح به الأبواب أمام التسامح والتواصل ، وهو حصانة قوية للابتعاد عن الخطأ ، وعدم المبالاة بمشاعر الآخرين ؛ لذلك فهو مطلب مُلِحٌّ لالتئام الصف ، ودوام الوحدة وصلاح المجتمعات والأسر .

ومجتمعات اليوم بحاجة إلى أن يكون الاعتذار جزءًا من علاقاته الاجتماعية ، ورمزًا من رموز ثقافته الإسلامية ، فهو السبيل لصهر الخلافات ، ولأم الجراحات المتفشية في أوساطنا ، حتى يكون خُلُقًا يُحتَدَى من غير إجبار ولا تكُلُف .

عندها يسود الصفاء ، ويَحسُن التعامل في المجتمع ، ويسبق العذر كيد الشيطان الذي يورثه تجاه الأخطاء التي جُبِلت عليها البشرية ، فيكون الاعتذار جِبِلَّةً بعد أن كان خُلُقًا نادرًا يُشار إلى من تخلَّق به ، وطابعًا مميزًا للمجتمعات الإسلامية التي هي أحق بهذا الخلق القويم .



الباب الأول الاعتذار في القرآن الكريم

وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول : الاعتذار واستعمالاته في القرآن الكريم .

الفصل الثاني : أنواع الاعتذار في القرآن الكريم .

الفصل الثالث : أسباب قبول الاعتذار .

الفصل الرابع : أثر الاعتذار .





الفصل الأول

الاعتذار واستعمالاته في القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف الاعتذار لغةً واصطلاحًا .

المبحث الثاني : الاستعمال القرآني للفظ الاعتذار .

المبحث الثالث : مرادفات الاعتذار في القرآن الكريم .





المبحث الأول

تعريف الاعتذار لغة واصطلاحاً

تعريف الاعتذار لغة :

الاعتذارُ مصدرٌ قياسيٌّ للفعل الخماسيُّ « اعتذر » ، وهو مأخوذٌ من مادة « ع ذ ر » التي تدلُّ على معانٍ كثيرةٍ غيرٍ منقاسة ؛ ومنها :

العُذْرُ : وهو رَوْمُ الإنسانِ إصلاحٌ ما أنكرَ عليه بكلامٍ ؛ يُقالُ منه : اعتذر يَعْتَذِرُ اعتذاراً وَعِذْرَةً ، من ذنبه ، فَعَذَرْتُهُ ، والاسم : العُذْرُ ، والجمع : أَعْدَارٌ .

ولي في هذا الأمرِ عُذْرٌ ، وَعُذْرِي ، وَمَعِذْرَةٌ : أي خروجٌ من الذنب .

وقال بعضهم : أصلُ العُذْرِ من العِدْرَةِ ؛ وهي الشيءُ النجسُ ، ومنه سُمِيَتْ القُلْفَةُ العِدْرَةَ ؛ فيقال : عَذَرْتُ الصَّبِيَّ : إذا طَهَّرْتُهُ ، وكذا عَذَرْتُ فلاناً : أي أزلتُ نجاسةَ ذنبه بالعفو^(١) .

ويُقالُ : اعتذرتُ إليه : أي قطعْتُ ما في قلبه من المَوْجِدَةِ ، وذلك مِنْ : اعتَذَرَتِ المِياهُ : إذا انقطعت ، واعتذرت المنازلُ : إذا دَرَسَتْ ، وَعَذَرْتُهُ من فلانٍ أي لمتُ فلاناً ولم أَلُمَّهُ^(٢) ، ومنه قولُ الناسِ : مَنْ يَعِذِرُنِي من فلانٍ : أي

(١) ينظر : « مقاييس اللغة » لابن فارس (٢٥٣/٤ - ٢٥٤) و « المفردات في غريب القرآن » للراغب (٥٥٥) .

(٢) ينظر : « تهذيب اللغة » للأزهري ، (١٨٦/٢) مادة (عذر)

مَنْ يَقُومُ بِعُذْرِي إِنْ أَنَا جَازِيَتُهُ بِسُوءِ صَنِيعِهِ ، وَلَا يُلْزِمُنِي لَوْمًا عَلَى مَا يَكُونُ مِنِّي إِلَيْهِ ، وَمِنْهُ مَا فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ : « فَاسْتَغْفَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَقَالٍ وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ؛ مَنْ يَعِذِّرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا ، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا ، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْأَنْصَارِيُّ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنَا أَعِذُّكَ مِنْهُ »^(١) .

وتَعَذَّرَ : بِمَعْنَى اعْتَذَرَ وَاحْتَجَّ لِنَفْسِهِ . وَالتَّعْذِيرُ فِي الْأَمْرِ : التَّقْصِيرُ فِيهِ . وَأَعَذَرَ فِيهِ : بَالِغٌ ؛ وَفِي الْحَدِيثِ : « لَقَدْ أَعَذَرَ اللَّهُ إِلَيَّ مَنْ بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ سِتِّينَ سَنَةً »^(٢) ؛ أَي لَمْ يَبْقَ فِيهِ مَوْضِعًا لِلْإِعْذَارِ ، حَيْثُ أَمْهَلَهُ طَوْلَ هَذِهِ الْمُدَّةِ وَلَمْ يَعْتَذِرْ ، يُقَالُ : أَعَذَرَ الرَّجُلَ إِذَا بَلَغَ أَقْصَى الْغَايَةِ مِنَ الْعُذْرِ ، وَتَعَذَّرَ الْأَمْرُ : إِذَا صَعِبَ^(٣) .

ويقال : أَعَذَرَ فَلَانٌ : إِذَا أَبْلَى عُذْرًا فَلَمْ يُكَلِّمْ ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُمْ : عَذَرَ الرَّجُلُ تَعْذِيرًا : إِذَا لَمْ يَبَالِغْ فِي الْأَمْرِ وَهُوَ يُرِيكَ أَنَّهُ مَبَالِغٌ فِيهِ ، وَفِي الْقُرْآنِ : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ [التوبة: ٩٠] ، وَيُقْرَأُ : « الْمُعَذِّرُونَ » ، فَقِيلَ : الْمُعَذِّرُونَ بِالتَّخْفِيفِ هُمُ الَّذِينَ لَهُمُ الْعُذْرُ ، وَالْمُعَذِّرُونَ : الَّذِينَ لَا عَذَرَ لَهُمْ ، وَلَكِنْهُمْ يَتَكَلَّفُونَ عُذْرًا . فَالْمُعَذَّرُ بِالتَّشْدِيدِ : هُوَ الْمَظْهَرُ لِلْعُذْرِ اعْتِلَالًا مِنْ غَيْرِ حَقِيقَةٍ لَهُ فِي الْعَذْرِ ، وَالْمُعَذَّرُ الَّذِي لَهُ عُذْرٌ^(٤) .

(١) أخرجه البخاري (٤٧٥٠) ومسلم (٢٧٧٠)

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٩)

(٣) ينظر : « النهاية في غريب الحديث والأثر » لابن الأثير ، (٣/ ١٩٧) مادة (عذر) .

(٤) ينظر : « الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية » للجوهري (٢/ ٧٤٠) و« مقاييس اللغة » لابن

وحاصل ما تقدّم أن مادة «ع ذ ر» في اللغة لها معانٍ كثيرةٌ ؛ منها :

❁ الإصلاحُ والإزالةُ والقطعُ .

❁ العُذْرُ : وَهُوَ رَوْعُ الْإِنْسَانِ إِصْلَاحَ مَا أَنْكَرَ عَلَيْهِ بِكَلَامٍ .

❁ العِذْرَةُ : وهي الشيءُ النجسُ .

❁ الاعتذار : وهو قطعُ أثرِ المَوْجِدَةِ من القلبِ .

وفي كل المعاني السابقة يحصل الاعتذار لكن منه :

❁ الْمُعَذِّرُ بِالتَّشْدِيدِ : وهو المظهر للعُذْرِ اعتلالاً من غير حقيقة له ، والمُعَذِّر

الذي له عُذْرٌ ، وعلى ذلك يكون المعتذر مُحَقَّقٌ وغير مُحَقَّقٍ .

تعريف الاعتذار اصطلاحاً :

عرّف العلماء الاعتذارَ بعدة تعريفاتٍ متقاربةٍ في الجملة ؛ منها :

قال الجرجاني : « الاعتذارُ : محوُ أثرِ الذنبِ »^(١) .

وقال الراغب : « الاعتذارُ : تحرّي الإنسانِ ما يمحو به أثرَ ذنبه ، وذلك

ثلاثة : أن يقولَ : لم أفعل ، أو فعلتُ لأجلِ كذا ؛ فيذكر ما يخرجه عن كونه

ذنبياً ، أو فعلتُ ولا أعودُ ، ونحو ذلك ، والثالثُ هو التوبةُ ، فكلُّ توبةٍ عذرٌ ولا

فارس (٤/ ٢٥٣ ، ٢٥٥) . مادة (عذر) .

(١) « التعريفات » (٣٠) وانظر : « دستور العلماء » (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون)

لنكري (١/ ٩٧) .

عكس»^(١)، وإلى مثل هذا ذهب المُنَاوِي^(٢) والفيروزآبادي^(٣).

وقال الكَفَوِيُّ: «الاعتذار: إظهارُ ندمٍ على ذنبٍ تُقَرُّ بأنَّ لك في إتيانه عذراً، فكلُّ توبةٍ ندمٌ ولا عكس»^(٤).

يَظهر من خلالِ النظرِ في التعريفاتِ الاصطلاحية أن أدقَّها ما ذهب إليه الراغب ومَن تبعه؛ فالجُرْجَانِيُّ حدَّ الاعتذارَ بمحوِ أثرِ الذنبِ؛ وهذا يختص بالاعتذارِ المقبولِ، والاعتذارُ منه ما هو مقبولٌ ومنه ما هو مردودٌ، كما أنَّ المحوَّ من شأنِ المعتذرِ إليه لا المعتذرِ، أمَّا الكَفَوِيُّ فحدَّه بإظهارِ الندمِ على الذنبِ مع الإقرارِ بوجودِ العذرِ، ومن المعلوم أن بعضَ مَنْ يعتذرُ يقرُّ بأنه أخطأ من غيرِ عذرٍ، أما الراغبُ فقد وُفِّق في اختيارِ اللفظِ «التحرِّي» ليندرجَ تحته كلُّ دواعي قبولِ الاعتذارِ، كما أنه فصَّل في بيانِ أوجهِ الاعتذارِ من الخطأ، وأتبعها إظهارَ الفرقِ بين التوبةِ والاعتذارِ.

وفي كلِّ التعريفاتِ السابقة ارتبط معنى الاعتذارِ بوقوعِ الذنبِ والخطأ، وهو المعنى المتبادرُ إلى الذهنِ في مفهومِ الاعتذارِ.

(١) «المفردات في غريب القرآن» (٥٥٥).

(٢) «التوقيف على مهمات التعاريف» (٥٥).

(٣) «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (٣٦/٤).

(٤) «الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية» (٣٠٨).

لكنَّ الحقيقة أنَّ معنى الاعتذارٍ أوسعُ من ذلك ؛ وهو :

إيساعُ الحيلةِ من المعتذرِ أو المعتذرِ إليه في محو الخطأ ، أو في بيانِ ما قد يُتَوَهَّمُ فيه التقصيرُ ، أو يتعذَّرُ فيه الإتيانُ بالمأمولِ ، أو في استجلابِ القبولِ قبلَ الورودِ على المطلوبِ .

وعلى هذا التعريفِ سيكونُ السيرُ في البحثِ إن شاء الله تعالى .





المبحث الثاني

الاستعمال القرآني للفظ الاعتذار

بعد استقراء المواضع التي وردَ فيها الاعتذارُ في القرآن الكريم ، وبعدَ النظرِ والتأملِ لهذه المواضع ؛ تبيَّنَ : أنَّ الاستعمالَ القرآنيَّ للفظِ « الاعتذارِ » ومشتقاته جاء على صُورٍ شتى ، وفيما يلي قائمةٌ بهذه المواضع ؛ تحتوي على اسمِ السورة ، ورقمِ الآية التي وردت فيها اللفظةُ القرآنيَّةُ ، والآيةُ ، والاستعمالُ القرآنيُّ للفظِ ، وصيغتهُ ، والمعنى الوارد للفظِ :

اسم السورة	رقم الآية	الآية	الاستعمال القرآني للفظ	صيغة الاستعمال للفظ	المعنى الوارد للفظ الاعتذار
التوبة	٢٦	﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾	تعذروا	فعل مضارع	جاء في معرض نهْيِ القرآن للمنافقين عن اعتذاراتهم الباطلة لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أقوالهم المخرجة عن الدين .

اسم السورة	رقم الآية	الآية	الاستعمال القرآني للفظ	صفة الاستعمال للفظ	المعنى الوارد للفظ الاعتذار
التوبة	٩٤	﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ تُتْرَدُونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	تعتذروا	فعل مضارع	جاء في معرض أمر القرآن للرسول ﷺ والمؤمنين بالإعراض عن سماع أعداء المنافقين المتخلفين عن الجهاد.
التكوير	>	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	تعتذروا	فعل مضارع	جاء في حكاية حال الكفار في نهيمهم عن الاعتذار في اليوم الآخر.

اسم السورة	رقم الآية	الآية	الاستعمال القرآني للفظ	صفة الاستعمال للفظ	المعنى الوارد للفظ الاعتذار
التوبة	٩٤	﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾	يعتذرون	فعل مضارع	جاء في حكاية حال المنافقين بعد رجوع المؤمنين إليهم متصربين في معركة تبوك ^(١) .
المرسلات	٢٦	﴿وَلَا يُؤْذِنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾	فيعتذرون	فعل مضارع	جاء في حكاية حال المكذبين يوم القيامة بعدم الإذن لهم بالاعتذار مما بدر منهم في الحياة الدنيا.

(١) تبوك: بفتح التاء، وهي أقصى أثر رسول الله ﷺ، وهي من أدنى أرض الشام. وذكر القتيبي من رواية موسى بن شيبة، عن محمد بن كليب: أن رسول الله ﷺ جاء في غزوة تبوك وهم ييكون حسيها بقدح، فقال: ما زلت تبكونها بعد؟ فسُميت تبوك، ومعنى تبكون: تدخلون فيه السهم وتحركونه، ليخرج ماؤه، ذكرها ابن إسحاق في خبر مطول، في غزوة رسول الله ﷺ المسماة غزوة تبوك، وجيش العسرة، وكانت في زمن عسرة، وفي فصل الصيف في شدة الحر، كان ذلك في السنة التاسعة للهجرة، وتبوك، كانت منهلا من أطراف الشام، وكانت من ديار قضاة تحت سلطة الروم، وقد أصبحت اليوم مدينة من مدن شمال الحجاز الرئيسية، لها إمارة تعرف بإمارة تبوك. ينظر: «معجم البلدان» لياقوت الحموت (١٤/٢) و«معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع» للبكري (٣٠٣/١) و«معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية» للبلادي (٥٩)

اسم الآية	رقم الآية	الآية	الاستعمال القرآني للفظ	صيغة الاستعمال للفظ	المعنى الوارد للفظ الاعتذار
الكهف	٧٦	﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَدِّقَنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾	عُذْرًا	مصدر	جاء في حكاية قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للخضر حينما طلب العفو عنه في المرة الثانية التي خالف فيها أمره .
المرسلات	٧	﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾	عُذْرًا	مصدر	جاء في معرض الإقسام بالملائكة التي تنزل بالوحي إعدارًا من الله للناس .
التوبة	٩٠	﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾	المُعَذِّرُونَ	اسم فاعل	جاء في معرض ذكر الأعراب الذين أتوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ليأذن لهم في التخلف عن الخروج والجهاد في سبيل الله .

اسم الآيات	رقم الآية	الآية	الاستعمال القرآني للفظ	صيغة الاستعمال للفظ	المعنى الوارد للفظ الاعتذار
الأعراف	١٦٤	﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾	معذرة	اسم مصدر	جاء في حكاية قول الفئة المنكرة على أصحاب السبب .
الروم	٥٧	﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾	معذرتهم	اسم مصدر	جاءت في ذكر حال الظالمين يوم القيامة ؛ إذا اشتدت الكُربات ، بأنهم لا تنفعهم معذرة .
غافر	٥٢	﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾	معذرتهم	اسم مصدر	جاءت في ذكر حال الظالمين يوم القيامة ؛ إذا اشتدت الكُربات ، بأنهم لا تنفعهم معذرة .

اسم السورة	رقم الآية	الآية	الاستعمال القرآني للفظ	صيغة الاستعمال للفظ	المعنى الوارد للفظ الاعتذار
القيامة	١٥-١٦	﴿بَلِ الْإِنْسَانِ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۖ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾	مَعَاذِيرُهُ	صيغة متتهى الجمود	جاء في الإخبار عن حال الإنسان يوم القيامة ؛ بأن جوارحه ستشهد عليه ولن تنفعه المعاذير الكاذبة .

من خلال هذا الاستعراض لاستعمالات الاعتذار بصيغته المتعددة يتضح أن لفظ الاعتذار في القرآن أكثر ما ورد في الاعتذار المردود غير المقبول ، فقد ورد الاعتذار في اثني عشر موضعاً ؛ منها ثمانية مواضع جاء المعنى فيها عن الاعتذار المردود ، ومن خلال ذلك نستنبط ما يلي :

❁ إنصاف القرآن في الإشارة إلى اعتذاراتهم بلفظ الاعتذار فقط من غير بيان لها ، إلا في مواقف نادرة وعلى وجه الإجمال في الغالب من غير تفصيل ؛ لبطالنها وبذاتها ، وهذا منهج قرآني تربوي في ذكر الأمور السيئة على وجه الإجمال في الغالب ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ [التحریم: ٣] ^(١) ، وذكر الأمور

(١) جاءت هذه الآية في إخبار النبي ﷺ لحفصة ببعض السر الذي أفشته لعائشة رضى الله عنها ، فذكر النبي ﷺ بعضه وأعرض عن بعض . ينظر : « جامع البيان في تأويل القرآن » للطبري (٢٣ / ٤٨٢) .

الحسنة على : وجه التفصيل ؛ للانتفاع والاقتداء .

❁ قلة استعمال القرآن للفظ الاعتذار في التعبير عن الاعتذار النافع المقبول ، وإنما كثر ورودُه في قصصٍ ومواقف تُعبر عن الأخطاء وتُظهر أساليب الاعتذار ؛ ليكون أوقع في القلوب وأشدَّ تأثيراً في النفوس ، وسيُضح ذلك جلياً من خلال البحث إن شاء الله تعالى .





المبحث الثالث

مرادفات الاعتذار في القرآن الكريم

بعدَ النظر والاستقراء لِمَا ورد في كتابِ الله ؛ تبَيَّنَ أنَّ للاعتذارَ ألفاظاً وأساليبَ تدورُ في فلكِه ؛ إمَّا أن تكونَ من المرادفاتِ التي تعني بالكليةَ معنَى الاعتذارِ ، وإمَّا أن تكونَ من المقارباتِ التي تعني بعضَ دلالاتِه أو ما يقاربهُ ، وهي على النحوِ التالي :

التوبة :

وهي الرجوعُ إلى الله بحلِّ عُقْدَةِ الإصرارِ عن القلبِ ، ثم القيامُ بكلِّ حقوقِ الربِّ^(١) ، وأكثرُ ما ورد بهذا المعنى توبَةُ الأنبياءِ ، وهي أعلى مقاماتِ الاعتذارِ إلى الله ؛ ومن ذلك :

❁ توبَةُ الملائكةِ إلى الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة : ٣٢] .

❁ توبَةُ آدَمَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** إلى الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

❁ توبَةُ نوحٍ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** إلى الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود : ٤٧] .

(١) « التعريفات » للجرجاني (٧٠) .

❁ توبه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

❁ توبه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص : ٢٤] .

طلب العفو :

والعفو : هو ترك ما يَسْتَحِقُّ المذنبُ من العقوبة ، ومحو الذنب^(١) ، وقد ورد هذا المعنى في الاعتذار إلى الله وفي الاعتذار بين البشر ، فمن ذلك :

❁ طلب إخوة يوسف العفو من أبيهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : ٩٧] .

❁ طلب السحرة العفو من الله : ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَعْفِرَ لَنَا خَطَلِينَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه : ٧٣] .

❁ طلب الظالمين العفو من الله يوم القيامة : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَتَيْنِ وَأُحْيَيْتَنَا أَثْنَتَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [غافر : ١١] .

التلطف :

وهو ما يُوَصِّلُكَ إِلَى إِرْبِكَ فِي رِفْقٍ^(٢) ، ويأتي هذا المعنى على وجهين :

(١) « الكليات » للكفوي (٦٣٢) .

(٢) ينظر : « تهذيب اللغة » للأزهري (٢٣٥ / ١٣) .

التلطف في الإفضاء بالحقيقة :

وهذا المعنى يكون في الاعتذار إلى الله ، وفي الاعتذار بين البشر ، فمن ذلك :

❁ تَلَطَّفُ امرأةُ عمرانَ في اعتذارِها إلى الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران : ٣٦] .

❁ تَلَطَّفُ هارونَ في اعتذارِه إلى أخيه موسى **عَلَيْهِمَا السَّلَامُ** : ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٥٠] .

❁ تَلَطَّفُ يعقوبَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** في اعتذارِه إلى أبنائه : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ ۖ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [يوسف : ١٣] .

التلطف في الطلب :

وهذا المعنى يكون في الاعتذار إلى الله ، وفي الاعتذار بين البشر ، ومن ذلك :

❁ تَلَطَّفُ نوحٍ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** في اعتذارِه إلى الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ ۖ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [هود : ٤٥] .

❁ تَلَطَّفُ قوم عيسى في طلبهم للمائدة : ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقَتْنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ١١٣] .

الندم:

وهو عَمُّ يُصِيبُ الإنسانَ ، وَيَتَمَنَّى أَنْ مَا وَقَعَ مِنْهُ لَمْ يَقَعْ^(١) ، وهذا المعنى وَرَدَ في الاعتذارِ إلى الله ، ومن ذلك :

❁ ندم قوم موسى على عبادة العجل : ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩] .

❁ ندمُ صاحبِ الجنةِ على شركه بالله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿وَلَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقُولُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢] .

❁ ندمُ المفرطين يومَ القيامةِ على تفریطهم في حقِّ الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرَتُنِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ﴾^(٢) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٦ - ٥٧] .

الاحتباس:

وهو أن يُؤْتَى في وسطِ الكلامِ أو آخره الذي يُوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يرفعُ ذلك الوهم^(٣) ، ويأتي أيضًا بمعنى التحفُّظ^(٣) ، وهذا المعنى وَرَدَ في الاعتذار إلى الله ، وفي الاعتذارِ بين البشر ، من ذلك :

(١) « التعريفات » (٢٤٠) .

(٢) « موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم » للتهانوي (١ / ١٠٨)

(٣) ينظر : « الصحاح » للجوهري (٣ / ٩١٦) و« المصباح المنير في غريب الشرح الكبير » للفيومي (١ / ١٣٠)

﴿احتراس النملة في اعتذارها عن جند سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنُكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] .

﴿احتراس موسى في اعتذاره إلى الله من الخوف من الانفراد بالدعوة^(١) : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ١٣ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٢-١٤] .

الإحسان :

وهو الإنعام على الغير^(٢) ، وقد جاء هذا المعنى في مبادرة المعتذر إليه « أي : المخطئ في حقه » بالاعتذار ؛ كما في :

﴿إحسان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في اعتذاره من فعل إخوته ؛ قال تعالى : ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩] .

﴿إحسان هابيل في اعتذاره من ترك مقابلة الإساءة بالمثل ؛ قال تعالى : ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] .

(١) جاء اعتذار موسى لله بمعنى الاحتراس ؛ أي : التَّحَفُّظ ، فقد تحفَّظ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الدَّعْوَةِ ، فَقَدَّمَ اعْتِذَارَهُ ، وَإِلَىٰ هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ سَيِّد قُطْب فِي تَفْسِيرِهِ لِلآيَاتِ السَّابِقَةِ فِي اعْتِذَارِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فَقَالَ : « هُوَ الْإِحْتِيَاظُ لِلدَّعْوَةِ لَا لِلدَّاعِيَةِ ؛ الْإِحْتِيَاظُ مِنْ أَنْ يَحْتَسِبَ لِسَانُهُ فِي الْأَوَّلَىٰ وَهُوَ فِي مَوْقِفِ الْمَنَافَحَةِ عَنْ رِسَالَةِ رَبِّهِ وَبَيَانِهَا ، فَتَبَدُّو الدَّعْوَةُ ضَعِيفَةٌ قَاصِرَةٌ ، وَالْإِحْتِيَاظُ مِنْ أَنْ يَقْتُلُوهُ فِي الثَّانِيَةِ ؛ فَتَتَوَقَّفُ دَعْوَةُ رَبِّهِ الَّتِي كُلفُ أَدَاءُهَا ، وَهُوَ عَلَىٰ إِبْلَاغِهَا وَاطْرَادِهَا حَرِيصٌ » . « فِي ظِلَالِ الْقُرْآن » لِسَيِّدِ قُطْب (٥/ ٢٥٩٠) .

(٢) « الْمَفْرَدَاتُ فِي غَرِيبِ الْقُرْآن » لِلرَّاغِبِ (٢٣٦) .

ومن هنا ترى الباحثة استنباطاً من المعاني السابقة :

❁ أن مرادفات الاعتذار متكاملةً ، واختلافها هو اختلاف تنوع وتعددٍ ، لا اختلاف تضادّ .

❁ أن المتأمل للمرادفات السابقة في اعتذار البشر إلى البشر يلاحظ أنها تدور في فلك القول المعروف^(١) ، والقول الميسور^(٢) .



(١) كما ذهب إليه القرطبي في تفسير القول المعروف في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء : ٨] . « الجامع لأحكام القرآن » (٥ / ٥٠) .

(٢) كما ذهب إليه ابن عاشور في تفسير القول الميسور في قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ نُبَيْغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ [الإسراء : ٢٨] . « التحرير تنوير » (٨٣ / ١٥) .

الفصل الثاني

أنواع الاعتذار في القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : أنواع الاعتذار من حيث الوقوع ، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : الاعتذار ابتداء .

المطلب الثاني : الاعتذار بعد ظهور الأمر وبيان الحق .

المطلب الثالث : الاعتذار لبيان الحال .

المبحث الثاني : أنواع الاعتذار من حيث النوع والسبب ، وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : الاعتذار من فعل .

المطلب الثاني : الاعتذار من مقولة .

المطلب الثالث : الاعتذار من طلب ما لا يليق .

المطلب الرابع : الاعتذار للجهل بالحال .

المطلب الخامس : الاعتذار من المؤاخذه بالنسيان .

المبحث الثالث : أنواع الاعتذار من حيث القبول والرد ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : الاعتذار المقبول .

المطلب الثاني : الاعتذار المردود .



المبحث الأول

أنواع الاعتذار من حيث الوقوع

تنوّعت أساليب القرآن في عرض أنواع الاعتذار، ليقوّي العلاقات بمختلف أحوالها، ويصلح الخلل بشئ أو ضاعه، مؤكّداً ومرسّخاً في النفس البشرية أنّ وراء هذا الكون خالقاً ومدبّراً، فالإنس والجنّ اعتذرت، والطير والحشرات، بل إن الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** ضرب المثل في الاعتذار بأصغر ما عرفه العرب؛ الذرة، وهي النملة الصغيرة، لينحت في النفوس خلقاً يُحتذى في مختلف المواقف، فقد يكون الاعتذار تهيئةً للنفوس لقبول الزل، أو لتعذر الإتيان بالمأمول، أو لمحو أثر الخطأ، وهذا ما سنراه مفصّلاً في هذا المبحث.

ويشتمل هذا المبحث على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الاعتذار ابتداءً.

المطلب الثاني: الاعتذار بعد ظهور الأمر وبيان الحق.

المطلب الثالث: الاعتذار لبيان الحال.

المطلب الأول

الاعتذار ابتداء

من أرقى وأسمى أساليب الاعتذار أن يكون مقدمة للكلام ؛ تهيةً للنفوس ، واستجلاباً للقبول ، ودفعاً للخرج من الشأن المورود ، فقد يكون مقدمة لأمرٍ عظيم ، أو لِمَا يُسْتَحْيَا منه ، أو لِمَا يَشُقُّ على النفس قبوله ، والتجاوزُ عن رَلَلِهِ ، وقد وَرَدَ هذا النوعُ من الاعتذارِ في عدة آياتٍ من القرآن ؛ جاء في طلبِ نوحٍ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** حينما حانت ساعةُ هلاكِ قومِهِ ، وفارَ التنورُ ، وأمرَ نوحٌ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أن يحملَ من كلِّ زوجين اثنين وأهلَهُ إلا مَنْ سَبَقَ عليه القولُ ، فأقدمَ نوحٌ على طلبِ ما يَخْشَى عدمَ قبوله ، ونادى رَبَّهُ مقدِّماً له باعتذارِهِ : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكِيمِينَ ﴾ [هود : ٤٥] ، فقد أعقب نوحٌ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** نداءَ الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** الاعتذارَ : ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ تجسُّراً لطلبِ نجاتِهِ ، ظناً منه أنه داخلٌ في جملةِ مَنْ وُعدَ نجاتُهُمْ .

يقولُ ابنُ عاشور : « وجودُ الفاءِ في الجملةِ التي هي بيانٌ للنداءِ قرينةٌ على أن فعلَ « نادى » مستعارٌ لمعنى إرادةِ النداءِ ، أي أرادَ نداءَ رَبِّهِ ، فأعقبَ إرادتَهُ بإصدارِ النداءِ ، وهذا إشارةٌ إلى أنه أرادَ النداءَ فتردَّدَ في الإقدامِ عليه ؛ لِمَا عِلِمَ من قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ [هود : ٤٥] ، فلم يَطُلْ تردُّدُهُ لما غلبتَهُ

الشفقة على ابنه ، فأقدم على نداء ربّه ؛ ولذلك قدّم الاعتذار^(١) ، فجملته : ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ خبرٌ مستعملٌ في التمهيد والاعتذار ، لاقتحامه أمراً لا يدري عن قبوله ، وقد أكد نوحُ اعتذاره بـ «إِنَّ» زيادةً في الاسترحام والاستعطاف .

وتدرّع إخوة يوسف **عَلَيْهِ السَّلَامُ** بالاعتذار ، حينما خرجوا يتحسّسون من أخيههم بكلّ جوارحهم ، ويطلبون الرزق بعدما أصابهم الجذب والقحط ، فدخلوا على العزيز بنفوسٍ منكسرةٍ يملؤها الحزن ، مُستفتحين حديثهم بالنداء ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ ، ثم يعقبه الاعتذارُ ابتداءً ممّا أصابهم وأهلهم من الضّر ، وما جاؤوا به من البضاعة المزجاة ، التي يدفعها كلّ تاجرٍ رغبةً عنها واحتقاراً ؛ طلباً لعطف العزيز ، وبعثاً لشفقته ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَاةٍ فَآوُفْ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف : ٨٨] ، فاعتذروا من بضاعتهم ؛ إما لنقصها ، أو لرداءتها ، أو لهما جميعاً .

قال ابنُ عباسٍ : كانت دراهمٌ رديئةٌ لا تُقبلُ في ثمنِ الطعام ، ثم سبّوا عن هذا الاعتذارِ لأنه أقربُ إلى رحمة أهلِ الكرمِ بقولهم : ﴿فَآوُفْ لَنَا الْكَيْلَ﴾ ، أي : أتممه لنا ، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ تعريضاً بإطلاقِ أخيههم ؛ لأنّ ذلك فضلٌ منه إذ صارَ مملوكاً له كما سيأتي بيانه في اعتذارِ إخوة يوسف في الباب الثاني فأوضحوا حالهم قبل طلبهم ، استجلاباً للرافة وتحصيلاً لرقّة القلب والحنو ، بما قدّموا من رقة الحال^(٢) .

(١) « التحرير والتنوير » لابن عاشور (١٢ / ٨٤) .

(٢) ينظر : « السراج المنير » للشربيني (٢ / ١٣٢) و« إرشاد العقل السليم » إلى مزايا الكتاب

وفي السنة نموذجٌ قريبٌ لهذا النوع من الاعتذار ؛ فعن أمِّ سلمة : أن أمَّ سُلَيْمٍ قالت : يا رسولَ الله ، إن الله لا يَسْتَحْيِي من الحقِّ ، هل على المرأة غُسْلٌ إذا احتلمتْ؟ قال : « نعم ، إذا رأت الماء » ، فضحكت أمُّ سلمة ، فقالت : أتحتلِمُ المرأة؟ فقال النبي ﷺ : « فِيمَ شَبَهُ الْوَلَدِ »^(١).

قال ابنُ دقيق العيد : « قولُها : إنَّ الله لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، هذا تمهيدٌ لبسطِ عذرِها في ذكرِها ما يَسْتَحْيِي النساءُ من ذكرِه ، وهو أصلٌ فيما يصنَعُه الكتابُ والأدباءُ في ابتداءِ مكاتباتِهِم ومخاطباتِهِم من التمهيداتِ لِمَا يأتون به بعدَ ذلك ، والذي يُحَسِّنُه في مثلِ هذا : أنَّ الذي يُعْتَذِرُ به إذا كان مُتَقَدِّمًا على المَعْتَذِرِ منه : أدركته النفسُ صافيةً من العُتْبِ ، وإذا تأخَّرَ العذرُ اسْتَثْقَلَتِ النفسُ المَعْتَذِرَ منه ، فتأثَّرتْ بِقُبْحِهِ ، ثم يأتي العذرُ رافعًا ، وعلى الأولِ يأتي دافعًا »^(٢).

فكانت مقدمة أمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في قولها : « إِنَّ الله لا يستحي من الحقِّ » توطئةً واعتذارًا عن سؤالِها عَمَّا يُسْتَحْيَا منه ، حتى تُزِيلَ الحرجَ من ذلك ، وعلى هذا النوع من الاعتذارِ سارَ الكتابُ والأدباءُ ؛ كَسَبًّا لقلوبِ القراءِ فيما يقعُ عندهم من أخطاءٍ .

الكريم » لأبي السعود (٣٠٣/٤) و« التحرير والتنوير » لابن عاشور (٤٧/١٣) .

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩١)

(٢) « إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام » (١/١٣٧) .

من خلال الآيات ندرك ما يلي :

(١) أنَّ الاعتذارَ ابتداءً من السموّ الخُلُقِيّ واللباقةِ الشخصية ؛ لتوطئته لِمَا يُخَشَى عدم قبوله ، فيَحْسُنُ به التوصلُ للمطلوبِ ، كما كان من نوحٍ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** حينما قَدَّمَ اعتذارَه بقوله : ﴿إِنَّ أَبْنِيَّ مِنْ أَهْلِي﴾ في طلبِ نَجاةِ ابنه ، لاقتحامه لِمَا يُخَشَى عدم قبوله ، بسببِ التباسِ الأمرِ عليه في دخولِ ابنه في جملةِ الناجين من الطوفان .

(٢) أنَّ الاعتذارَ ابتداءً وصفٌ موجزٌ شاملٌ ، تندفقُ فيه المشاعرُ ، وتهتزُّ منه العواطفُ ، يتقدَّمُ به المعتذرُ ؛ لكسْبِ المعتذرِ إليه ، كما كان من إخوة يوسفَ حينما وصَفُوا حالَهُم وحالَ بضاعتِهِم لعزیزِ مصرَ : ﴿مَسَّنَاوَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُتَجَدِّدَةٍ﴾ ، وإنما قَدَّمُوا ذلكَ ليكونَ وسيلةً لإسعافِ مرامِهِم ؛ ببعْثِ الشفقةِ ، وتحريكِ سلسلةِ المرحمةِ .

(٣) أنَّ الاعتذارَ ابتداءً من جماله أنَّ النفسَ تُقبِلُ على الأخطاءِ والخللِ صافيةً من العتبِ ، لَرَفْعِهِ عنها ابتداءً .



المطلب الثاني

الاعتذار بعد ظهور الأمر وبيان الحق

يتعرَّض الإنسان للوقوع في الخطأ ؛ قاصداً أو غير قاصدٍ ؛ فهو أمرٌ قد طُبِعَ عليه ، ولكن من كمالِ المروءةِ وجميلِ الصنعةِ أن يبادرَ لمحوِ أثرِ خطئه بعدَ ظهورِ الحقِّ ، أو بيانِ الأمرِ ، وهكذا يتعاملُ الإسلامُ مع الإنسانِ ؛ فإذا كان وقوعُ الخطأ منه مُمكنًا ؛ فإنه يرغبُ في تصحيحه وعلاجه ؛ كما في الحديث : « وأتبعِ السيئةَ الحسنَةَ تَمَحُّهَا »^(١).

وفي القرآن صور وأمثال :

من ذلك اعتذارُ الجانِّ ، كما جاء ذلك في سورة الجنِّ بعدَ سماعِهِم لقراءةِ النبيِّ ﷺ ، ومعرفَتِهِم للحقِّ ، وتجلِّي الأمرِ لديهم من اغترارِهِم بالمشركين من الإنسِ والجنِّ ، فأعلنوا إيمانَهُم ، وقَدَّموا اعتذارَهُم لربِّهِم ؛ فقالوا : ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَكَ بَقَاً وَنَحْنُ كَاذِبُونَ ﴾ [الجن : ٥] .

يقول أبو السعود : « وهو اعتذارٌ منهم عن تقليدِهِم لسفهِهِم ؛ أي : كُنَّا نَظُنُّ أنه لن يكذبَ على الله تعالى أحدٌ أبداً ؛ ولذلك اتَّبَعْنَا قَوْلَهُ »^(٢) ، فكان الجنُّ

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) قال الألباني : حديث حسن . ينظر : « صحيح الجامع الصغير وزيادته » (١ / ٨١) .

(٢) « إرشاد العقل السليم » (٩ / ٤٣) .

مغترّين بالقادة، محسنين الظنّ بهم، وحينما ظهر الحقّ اعتذروا عن سوء صنيعهم، وبيّنوا أنهم لم يتجرّؤوا على الله إلا بسببهم.

وما أعلنه سحره فرعون بعد ظهور الحقّ لديهم صورةً أخرى من هذا الاعتذار، فبعد أن جُمع السحرة لإبطال دعوة موسى عليه السلام، عرضوا سحرهم واغترّ الناس بما عندهم، فألقى موسى عليه السلام بأمرٍ من الله عصاه، فإذا هي حيّة تلقف ما يفيكون، عند ذلك أعلن السحرة إيمانهم أمام فرعون ومن حشدهم فرعون لإحقاق باطله، وصرّحوا بذنبهم ومعصيتهم؛ فقالوا: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣].

يقول أبو السعود: «أي: التي اقترَفنا فيها من الكفر والمعاصي، ولا يُؤاخذنا بها في الدار الآخرة... وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ عطفٌ على خطايانا؛ أي: ويغفر لنا السحر الذي عملناه في معارضة موسى عليه الصلاة والسلام بإكراهك وحشرك إيانا من المدائن القاصية، خصّوه بالذكر، مع اندراجهم في خطاياهم؛ إظهاراً لغاية نُفرتهم عنه، ورغبتهم في مغفرته، وذكر الإكراه للإيذان بأنه مما يجب أن يُفرد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالإكراه، وفيه نوع اعتذار لاستجلاب المغفرة»^(١).

فهم يعتذرون لله من سوء فعلهم، ويظهرون في بقية موقفهم ثباتهم وعدم عودتهم مهما ساوَمهم فيه من القتل والصلب، وفنون العذاب الصعب. يقول جَلَّ ذكره: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ

(١) «إرشاد العقل السليم» (٦/ ٣٠).

قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضَىٰ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ طه : [٧٢] ، فَيُظْهَرُ فِي مَقَالَتِهِمُ الصَّدْقُ وَالنَّدَمُ ،
بدليل العزم على عدم العودة إلى الذنب مهما كلفهم الأمر ، كما في قولهم
السابق ، طَمَعًا أَنْ يَعْفُوَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَيَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ .

وفي اعتذار إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيهم ، بعد أن حصل ما حصل من
حادثة سرقة أخيه ، صورة من هذا الاعتذار ؛ فقد أعطى إخوة يوسف أباهم
العهود والمواثيق ؛ حتى يأخذوا أخاهم معهم ليكتالوا ، تلبية لطلب عزيز مصر ،
فَحَدَّثَ أَنْ كَادَ اللَّهُ لِيُوسِفَ بِسُرْقَةِ أَخِيهِ ، لِيُضَمَّهُ إِلَيْهِ ، فَكَانَتْ دَاهِيَةً تَطِيشُ لَهَا
الْحُلُومُ ؛ إِذْ كَيْفَ يَتْرُكُونَ أَخَاهُمْ عِنْدَ عَزِيزِ مِصْرَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَوْا أَبَاهُمْ الْمَوَاقِيقَ
فِي حِفْظِهِ وَرَدَّهُ إِلَيْهِمْ ، فَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ إِلَّا أَنْ قَدَّمُوا اعْتِدَارَهُمْ لِأَبِيهِمْ ،
لَعَلَّهُ يَعْفُو عَنْهُمْ .

يقول البَيْهَقِيُّ^(١) : « قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَفِظِينَ ﴾ ، اعتذار ؛
أي : لو عَلِمْنَا أَنَّ الْأَمْرَ يُؤُولُ لِمَا وَقَعَ ، لَمَّا شَهِدْنَا عَلَيْهِ »^(٢) .

فَقَدْ اعْتَذَرُوا لِأَبِيهِمْ ، وَأَبَانُوا لَهُ ، بَعْدَ أَنْ وَقَعَتِ السَّرْقَةُ ، وَاتَّضَحَ أَمْرُ أَخِيهِمْ ،
أَنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ بِأَيْدِيهِمْ ، وَلَا بِتَفْرِيطٍ مِنْهُمْ .

(١) أحمد بن محمد بن أحمد البَيْهَقِيُّ ، أبو العباس من أهل تونس ، وقيل : من أهل المسيلة
بالجزائر ، فقيه مالكي ، مفسر ، وُصِفَ بأنه كان كثير الصمت قليل الخوض فيما لا يعني ، عليه
آداب العلم من وقار وسكينة ، وكان يقرئ بسقيفة داره كثيراً ، توفي رَحِمَهُ اللَّهُ (٨٣٠ هـ) .
ينظر في ترجمته : « معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر » عادل نويهض
(٧١ / ١)

(٢) « نكت وتنبهات في تفسير القرآن » (٢٦٤ / ٢) .

وفي كلِّ المواقفِ الثلاثة يُبدي المَقصّرُ اعتذارَه بعد ظهورِ الحقِّ واتّضح الأمرُ ، وهو من جميلِ الخلقِ ولطيفِ الطباعِ ، ولكن يظهرُ هذا النوعُ من الاعتذارِ بعد ظهورِ الحقِّ واتّضح الأمرِ في أسمى معانيه حينما يُبادِرُ المَعْتَذِرُ إليه بالاعتذارِ ، كما رَسَمته الآياتُ في موقفِ يوسفَ وشعيبَ وصالحَ **عَلَيْهِمُ السَّلَامُ** .

ففي موقفِ يوسفَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** مع إخوته ، بعد أن كادوا له ورمّوه في البئرِ ، لِيَخْلُوَ لهم وجهُ أبيهم ، ويكونوا من بعده قومًا صالحين ، وشاءَ اللهُ بعدَ حينٍ من الزمنِ أن يأتوا إليه لطلبِ الرزقِ في مُلكِهِ من غيرِ علمِهِم به ؛ فقابَلَهُم بالإكرامِ ، من غيرِ تأنيبٍ لهم على ما كانَ ، وبادرَهُم بالاعتذارِ ؛ ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ [يوسف : ٨٩] ، موقفٌ عظيمٌ ، في الإفضاءِ بالحقيقةِ لهم بأسلوبِ الاستفهامِ ، ثم الاعتذارِ عنهم بأنَّ ذلك إنما كان عن جهلٍ ولم يكن عن علمٍ .

يقولُ ابنُ جُزي : « ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ اعتذارٌ عنهم ؛ فيُحتمَلُ أنه يريدُ الجَهْلَ بقبحِ ما فعلوه ، أو جهْلَ الشبابِ »^(١) .

فيعتذرُ عنهم ، ويزدادُ كرمُ نفسه باختيارِ أَلطفِ الكلماتِ والمعاني في ذلك ؛ لِيُزِيحَ عنهم مَذمَّةَ صنيعِهِم ، وقباحتَ ذنبِهِم ، فينسُبُ ذلك الذنبَ إلى عدمِ العلمِ . يقولُ القاسميُّ : « من تَلَطَّفَ بهم قوله : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ ؛ كالاعتذارِ عنهم ؛ لأنَّ فعلَ القبيحِ على جهلٍ بمقدارِ قبحِهِ أسهلُّ من فعلِهِ على علمٍ ، وهم

(١) « التسهيل لعلوم التنزيل » (١ / ٣٩٥) .

لو ضَرَبُوا في طرقِ الاعتذارِ لم يُلْفُوا عذراً كهذا^(١)، واعتذارُ يوسفَ عنهم بهذا الأسلوبِ كاعتذارِ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** عن نفسه حينما قال: ﴿فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]، وفي ذلك تخفيفٌ للأمرِ عليهم .

وفي موقفِ شعيبٍ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** بعد هلاكِ قومه: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْقَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣]، يظهر المنظرُ العاطفيُّ الإنسانيُّ، والخلقُ النبويُّ حين رأى كيف أصبحوا، أن يعتذرَ إليهم، بعد ظهورِ الأمرِ لهم، وتبينَ ما هم عليه من الباطل، مع ما وجده منهم من ذميمة الأخلاقِ وسيئِ الطباعِ، فقد أبلغهم كلَّ ما وصله من الله، ولم يقتصرْ على البلاغِ، بل أضافَ إليه النصحَ، وهو الإلحاحُ عليهم في أن يثوبوا إلى رُشدِهِم، وأن يتَّبعوا نهجَ الله .

يقولُ القاسميُّ: «﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: أعرَضَ عن شفاعتِهِم والحزنِ عليهم، وقال أي: في الاعتذار: ﴿يَلْقَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي﴾؛ أي: بالأمرِ والنهي، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: حذَّرتُكم من عذابِ الله، ودعوتُكم إلى التوبةِ والإيمانِ بما يفيدُ ربحَ الدارين، ويمنعُكم خسرانَهُما، لكنكم كفرتم، ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾ أي: أحزنُ حزناً شديداً، ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي: بالله، إن هلكوا»^(٢).

وشبيهه بموقف شعيب موقف صالح **عَلَيْهِمَا السَّلَامُ** مع قومه، حينما عتوا

(١) «محاسن التأويل» (٢١٣/٦)

(٢) «محاسن التأويل» (١٥٥/٥).

وتكبروا وكذبوا صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وعقروا الناقة التي جاءت آية على صدق نبوته عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فأحل الله بهم النكال ، وأبادهم وقطع دابرهم ، عند ذلك تولى عنهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ معذرا وقال : ﴿ يَنْقُورُ لَقَدْ أَبْلَغْتُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٩] .

يقول السعدي : « أي : جميع ما أرسلني الله به إليكم ، قد أبلغتكم به ، وحرصت على هدايتكم ، واجتهدت في سلوككم الصراط المستقيم والدين القويم »^(١) .

وتُظهر لنا السنة جانبًا مُشرقًا من هذا الاعتذار ؛ ففي حديث عائشة في مبايعة عليٍّ لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يظهر جانبٌ مشرقٌ من الرجوع للحق ، والاعتراف بالفضل ، فقد أتى أبو بكر إلى عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بطلبٍ من عليٍّ بعد وفاة فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « فتشهد عليٌّ ، فقال : إنا قد عرفنا فضلك وما أعطاك الله ، ولم ننفس عليك خيرًا ساقه الله إليك ، ولكنك استبددت علينا بالأمر ، وكنا نرى لقربتنا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نصيبًا ، حتى فاضت عينا أبي بكر ، فلمَّا تكلم أبو بكر قال : والذي نفسي بيده لقربة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحبُّ إليَّ أن أصل من قرابتي ، وأما الذي شجر بيني وبينكم من هذه الأموال ، فلم أل فيها عن الخير ، ولم أترك أمرًا رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصنعه فيها إلا صنعتُه ، فقال عليٌّ لأبي بكر : موعدك العشيَّة للبيعة ، فلمَّا صلى أبو بكر

(١) « تيسير الكريم الرحمن » للسعدي في تفسير كلام المنان » (٢٩٥) .

الظهر رقي على المنبر، فتشهد، وذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة، وعذره بالذي اعتذر إليه، ثم استغفر وتشهد علي، فعظم حق أبي بكر، وحدث: أنه لم يحمله على الذي صنع نفاسة على أبي بكر، ولا إنكاراً للذي فضله الله به، ولكننا نرى لنا في هذا الأمر نصيباً، فاستبد علينا، فوجدنا في أنفسنا، فسر بذلك المسلمون، وقالوا: أصبت، وكان المسلمون إلى علي قريباً، حين راجع الأمر المعروف^(١).

فيتجلى من هذا النص عظم ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم من الخلق، ومراجعة الحق، والاعتذار بعد ظهور الخطأ، على مرأى ومسمع من الناس، لما تحمله قلوبهم من التواضع، ولين الجانب، وخفض الجناح للحق، ففي حديث عائشة رضي الله عنها درس عملي في الاعتذار، بل مبادلة الاعتذار بالاعتذار مبالغة في القبول وسلامة الصدور، ولنا في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير أسوة؛ لصحبته لرسول الله ومعلم البشرية جمعاء.

يقول ابن مسعود عن الصحابة: «... كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وإقامة دينه»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٤٢٤٠) ومسلم (١٧٥٩).

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٩٤٧/٢).

وبنحوه أبو نعيم في «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٣٠٥/١) من قول ابن عمر رضي الله عنهما، والأجري في «الشرعية» (١٦٨٥/٤) من قول الحسن البصري.

من خلال الآيات ندرك ما يلي :

١ . أن الاعتذار بعد ظهور الحق وبيان الأمر يأتي بعد اقتراف الخطأ والوقوع فيه لمحو أثره ؛ كما في اعتذار الجنّ والسحرة لله بعد ظهور الحقّ لديهم ، ويكون ذلك أيضًا مع البشر لإزالة الدرن من النفوس ؛ مثل ما كان من اعتذار إخوة يوسف لأبيهم يعقوب **عَلَيْهِ السَّلَامُ** .

٢ . تأتي الجمل والعبارات في محو الخطأ إمّا بصيغة « فعلت لأجل كذا » ، كما جاءت صورته في موقف الجانّ ، أو بصيغة « فعلت ولا أعود » ، كما في موقف السحرة ، أو بصيغة « لم نفعل » ، كما في موقف إخوة يوسف حينما أعطوا أباهم الموائيق في ردّ أخيه .

٣ . من شأن الاعتذار من الخطأ أن يخفف عن النفس ألم الذنب ، وأن يعيد للعلاقات صفاءها ، بل قد تكون أفضل ممّا كانت ؛ كما أنه كفيل أن يزرع في النفوس الودّ والتسامح والتواضع ، منبع الأخلاق الكريمة .

قال ابن حبان : « الاعتذار يُذهبُ الهمومَ ، ويُجَلِّي الأُحْزانَ ، ويدفعُ الحقدَ ، ويُذهبُ الصّدَّ ، والإقْلَافُ منه تُستَغْرَقُ فيه الجُنَاياُ العَظِيْمَةُ والذُنُوبُ الكَثِيرَةُ ، والإكْثَارُ منه يُؤدِّي إلى الاتِّهامِ وسُوءِ الرَّأيِ ، فلو لم يكن في اعتذار المرء إلى أخيه خَصْلَةٌ تُحَمَّدُ إلا نفْيُ العُجْبِ عَنِ النَّفْسِ في الحالِ ، لكان الواجبُ على العاقلِ ألا يُفَارِقَهُ الاعتذارُ عند كل زَلَّةٍ »^(١) .

(١) « روضة العقلاء ونزهة الفضلاء » لابن حبان (١٨٤) .

٤ . مبادلة الاعتذار بالاعتذار بعدَ ظهورِ الحقِّ من أسمى معاني الاعتذار ،
فهو خُلُقُ الأنبياء ، كما كان من يوسفَ ، وشعيبَ ، وصالحَ **عَلَيْهِمُ السَّلَامُ** ولنا فيهم
قدوةٌ وأسوةٌ ، فلم تُضْرَبِ الأمثالُ في القرآنِ إلا من أجلِ الاتعاظِ والافتداءِ .



المطلب الثالث

الاعتذار لبيان الحال

قد يتعرض الإنسان لمواقف عدة يتعذر فيها الإتيان بالمأمول منه ، فيأتي بما يمكنه مما يسدُّ به خلَّة ، أو يدفع به مذمَّة ، ويوضِّح من العذر والتوجُّع ما يجعله في المنع معذورًا أو في العذر مشكورًا ، وهو ما يُعبَّر عنه بالاعتذار لبيان الحال .

وقد تمثَّل ذلك في شعيب عليه السلام خطيب الأنبياء ، عند إبلاغ دعوة الخير لقومه ، قال تعالى : ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] ، فعندما أعرَض عنه قومه ، وشكَّوه في حاله ، وأن خللاً قد أصابه ، وذلك في قولهم : ﴿ يَشْعِيبُ أَصْلَوْتَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود : ٨٧] ، قابلهم بحسن المقال وجميل الاعتذار ؛ بيان حاله ، وما أسبغ الله عليه من نعمه ، التي توجب عليه الانقياد لأمره ونهيه .

يقول البيضاوي : « قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من العلم والنبوة ، والمال الحلال ، وجواب الشرط محذوف تقديره : فهل يسع مع هذا الإنعام ؛ الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية ؛ أن أخون في وحيه ، وأخالفه في أمره

ونهيهِ ، وهو اعتذارٌ عمّا أنكروا عليه من تغييرِ المألوفِ ، والنهي عن دينِ الآباءِ ، والضميرُ في « منه » لله ؛ أي : من عنده وبإعانتِهِ بلا كَدٍّ مني في تحصيلِهِ »^(١) .

فمع ما يجذّه شعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ من قومه من شراسةِ الخُلُقِ ، وذميمِ الكلامِ ، إلا أنه أجابَ قومه بلطيفِ الاعتذارِ لبيانِ الحالِ ، فهو الحليمُ الرشيدُ ، والحقُّ ما شهدت به الأعداءُ ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ التحلّيَ بخُلُقِ الاعتذارِ مع ما يقابله الإنسانُ من الإساءةِ دلالةٌ على الأناةِ والحلمِ ورجاحةِ العقلِ ، كما ظهر في دعوة شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه ، وما سيأتي بيانه بعد نزولِ العذابِ عليهم .

وها هو ذا يعقوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يحاولُ تطيبَ خواطرِ بنيه ببيانِ حالِهِ ، حينما راودوه لاصطحابِ يوسفَ ؛ لكي يرتعَ ويلعبَ معهم ؛ فقال : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [يوسف : ١٣] ، فاعتذر لهم بمشقةِ ذهابِ يوسفَ عنه ، وخوفِهِ على يوسفَ من عدوانِ الذئبِ عليه .

يقولُ الزمخشريُّ : « اعتذر إليهم بشيئين ، أحدهما : أن ذهابَهُم به ومفارقته إياه مما يُحزِنُهُ ؛ لأنه كان لا يصبرُ عنه ساعةً ، والثاني : خوفُهُ عليه من عدوةِ الذئبِ إذا غَفَلُوا عنه »^(٢) .

فصرّح لهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بعُذْرِهِ ممّا يجذّه في نفسه من مشقةِ فراقِ يوسفَ ، ثم تلطّفَ معهم بالعدرِ الثاني حتى لا يُهَيِّجَ حسدَهُم الذي هو مَجْمَعُ الشرورِ الإنسانيةِ ، فأفضى إليهم بحالِهِ ؛ للخروجِ مما يُؤرِّقُهُ ، ولكنهم استطاعوا

(١) « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » (١٤٥ / ٣) .

(٢) « الكشف عن حقائق غوامض التنزيل » (٤٤٨ / ٢) .

إِقْنَاعَهُ بِأَسْلُوبِهِمُ الْمُؤَثِّرِ الَّذِي سَرَى إِلَى نَفْسِ يَعْقُوبَ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ ، فَقَدْ أَطْمَعُوا يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا فِيهِ الرَّاحَةُ وَالْأَنْسُ لِيُوسَفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَطَابَتْ نَفْسُ يَعْقُوبَ لَذَهَابِهِمْ بِهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ يَشُقُّ عَلَيْهِ فِرَاقُهُ ، وَلَكِنَّ الْمَحَبَّةَ يُؤَثِّرُ رَاحَةً مَحْبُوبِهِ عَلَى مَحَبَّةِ نَفْسِهِ .

وَتَظْهَرُ نَعْمَةُ الْعِذَارِ الْحَزِينِ حِينَمَا يَضِيقُ لَوْطُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَرْعًا ، وَيَخَافُ عَلَى أَضْيَافِهِ الَّذِينَ حُلُّوا عَلَيْهِ مِنْ اِعْتِدَاءِ قَوْمِهِ عَلَيْهِمْ بِفِعْلِهِمُ الشَّائِنِ ، فَيُحَاوِلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُوقِظَ فِي قَوْمِهِ الْفِطْرَةَ السَّالِمَةَ ، وَالْخَوْفَ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ؛ فَيَقُولُ : ﴿يَقْوَاهُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ [هود: ٧٨] ، وَلَكِنَّ الْفُورَةَ الْمَرِيضَةَ لَا تَزَالُ بِهِمْ ؛ فَقَالُوا : ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُنَّ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] ، وَلَا يَزَالُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَحَاوِلُ بِهِمْ مَلَامَسًا نَخَوْتَهُمْ ، فَيَقُولُ : ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] ، لَكِنَّ كُلَّ هَذَا لَمْ يَلَامِسْ قُلُوبَهُمُ الْمَرِيضَةَ ، فَلَمْ يَجِدْ سَبِيلًا لِلْخُرُوجِ مِنْ مَازِقِهِ سِوَى الْعِذَارِ لِأَضْيَافِهِ ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ حَالَهُ وَاجْتِهَادَهُ ؛ فَقَالَ : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] .

وَيَحْكِي النَّبِيُّ الْكَرِيمُ هَذَا الْعِذَرَ لِأَصْحَابِهِ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يَرَوِيهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَيَقُولُ : « يَرْحَمُ اللَّهُ لَوْطًا ، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ »^(١) .

يَقُولُ النَّوَوِيُّ : « وَمَعْنَى الْحَدِيثِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ لَوْطًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا خَافَ عَلَى أَضْيَافِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَشِيرَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ ؛ ضَاقَ ذَرْعُهُ ، وَاشْتَدَّ

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨٧) .

حزنه عليهم ، فغلب ذلك عليه ، فقال في ذلك الحال : لو أن لي بكم قوة في الدفع بنفسي ، أو آوي إلى عشيرة تمنع ؛ لمَنَعْتُكُمْ ، وقصد لوط صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إظهار العذر عند أضيافه ، وأنه لو استطاع دَفَعَ المكروه عنهم بطريق ما لفعله ^(١) .

وامرأة عمران أبدت اعتذارها لعجزها عما نذرت من السدانة ، قال تعالى :
﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران : ٣٥] .

فقد تقدّمت لله بأعز ما تملك ، بالجنين الذي في بطنها ؛ ليقوم بخدمة المسجد ، ولكنها فوجئت بأنه أنثى ، والأنثى لا تصلح لذلك بسبب ما يجري عليها من أمور الطبيعة ؛ ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ [آل عمران : ٣٦] ، فاتجهت إلى ربّها بما وجدت ، تحسّرًا واعتذارًا ؛ أن لم يكن لها ولدٌ ذكرٌ ينهض بالمهمة ، مع أن الأمر في حقّها مندوبٌ ، وخارجٌ عن إرادتها .

يقول ابن أبي حاتم : « تريد بذلك اعتذارًا إلى الله من إطلاقها النذر المتقدم ، فذكرت ذلك على سبيل الاعتذار لا على سبيل الإعلام ؛ لأن الله تعالى عالم بما في بطنها قبل أن تضعه » ^(٢) ، ثم أعادت اعتذارها ، وأكّدت بقولها : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾ .

(١) « المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج » (١٨٥ / ٢) .

(٢) « تفسير القرآن العظيم » (٦٣٧ / ٢) .

يقول ابن الجوزي: « وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ من تمام اعتذارها ، ومعناه : لا تصلح الأنثى لما يصلح له الذكر ؛ من خدمته المسجد ، والإقامة فيه ؛ لما يلحق الأنثى من الحيض والنفاس »^(١) ، وهكذا أبدت امرأة عمران حالها لله ، وكررت مقالها مع علمه سبحانه بذلك ، ولكنما أرادت بذلك الاعتذار .

ثم ختمت اعتذارها بقولها : ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران : ٣٦] ، تقرُّبا إلى الله سبحانه ، عسى أن يكون فعلها مطابقا لمعنى اسمها ؛ فإن معنى « مريم » خادم الرب بلغتهم ، فهي وإن لم تكن صالحة لخدمة الكنيسة ، فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات ، فتقبلها ربُّها بقبول حسن ، وسلك بها مسلك السعداء^(٢) .

واعتذر قوم موسى حينما شددوا على أنفسهم في قصة البقرة التي أمرهم الله بذبحها ؛ في قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة : ٦٧] ، فسألوا أولاً عن أوصافها ؛ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا يَكَرُّ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة : ٦٨] ، فأجابهم بأنها ليست كبيرة مُسنَّة ، وليست صغيرة بكرًا ، بل هي وسط بين هذا وذاك ، وأمرهم بالامتنال بلا تلكؤ ، لكنهم سألوا ثانياً عن لونها ؛ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظْرِينَ﴾ [البقرة : ٦٩] ، وما زالوا يتلكؤون ، متدريين بالسؤال عن أوصافها ؛

(١) ينظر : « زاد المسير في علم التفسير » لابن الجوزي (١ / ٣٧٧)

(٢) ينظر : « فتح القدير » للشوكاني (١ / ٣٨٤) و « تفسير القرآن الحكيم » (تفسير المنار) لرشيد رضا (٣ / ٢٣٨) و « الجدول في إعراب القرآن الكريم » لمحمود صافي (٣ / ١٦٣) .

يُعيدون على موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** السؤالَ المرةَ والمرةَ ، حتى شعروا بلجاجتهم في المرة الثالثة ؛ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة : ٧٠] .

يقول البيضاوي : « قوله تعالى : ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ تكريرٌ للسؤال الأول ، واستكشافٌ زائدٌ ، وقوله : ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ اعتذارٌ عنه ، أي : إن البقر الموصوفَ بالتعوين والصفرة كثيرٌ فاشتبه علينا »^(١) .

فقدّموا اعتذارهم لبيان حالهم في تكرار أسئلتهم ، يقول ابن عاشور : « جملة ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ مستأنفةٌ استئنافاً بيانياً ؛ لأنهم علموا أن إعادتهم السؤال توقع في نفس موسى تساؤلاً عن سبب هذا التكرير في السؤال ، وقولهم : ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ اعتذارٌ عن إعادة السؤال ، وإنما لم يعتذروا في المرتين الأولىين واعتذروا الآن ؛ لأنّ للثالثة في التكرير وقعاً في النفس في التأكيد والسامة وغير ذلك ؛ ولذلك كثر في أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة »^(٢) .

وهكذا يظهر الاعتذار لبيان الحال في نصوص القرآن في صور شتى ، وفي السنة مثل هذا النوع من الاعتذار ؛ فعن جابر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال : « كنا مع النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ، فبعثني في حاجة ، فرجعتُ وهو يصلي على راحلته ، ووجهه على غير القبلة ، فسلمتُ عليه ، فلم يُرد عليّ ، فلما انصرف قال :

(١) « أنوار التنزيل » (١ / ٨٧) .

(٢) « التحرير والتنوير » لابن عاشور (١ / ٥٥٤) .

إنه لم يمنعني أن أردّ عليك إلا أنني كنت أصلي»^(١)، فقد تعذّر على رسول الله ﷺ ردّ السلام؛ لانشغاله بالصلاة، فلمّا أنهى صلاته اعتذّر إلى جابر رضي الله عنه ببيان حاله ﷺ.

يقول النووي: «ينبغي لمن سلّم عليه ومنعه من ردّ السلام مانع أن يعتذر إلى المسلم ويذكر له ذلك المانع»^(٢).

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا نسلّم على النبي ﷺ، وهو في الصلاة، فيردّ علينا، فلمّا رجعنا من عند النجاشي سلّمنا عليه فلم يردّ علينا، وقال: «إنّ في الصلاة شغلاً»^(٣).

فيتكرّر الحال على النبي المختار في تأخير ردّ السلام، وتختلف الأقوال، ويبين في كلّ منها الأسباب؛ لمحو ما قد يقع في النفس من الحزاة.

وفي حديث وفد عبد القيس لما أتوا النبي ﷺ قال: «من القوم؟ أو من الوفد؟» قالوا: ربيعة. قال: «مرحباً بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا ندامى»، فقالوا: يا رسول الله إنّنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، فمّرنا بأمر فصل، نخبر به من وراءنا، وندخل به الجنة»^(٤).

(١) أخرجه مسلم (٥٤٠).

(٢) «شرح مسلم» (٢٧/٥).

(٣) أخرجه البخاري (١١٩٩).

(٤) أخرجه البخاري (٥٣) ومسلم (١٧).

قال ابن حجر : « فيه دليلٌ على إبداء العذر عند العجز عن توفية الحق ؛ واجباً أو مندوباً »^(١).

فوفد عبد القيس يلتمسون رضا النبي ﷺ باعتذارهم من عدم حضورهم ، ويذكرون الأسباب في ذلك ؛ لتركوا نفس النبي ﷺ صافية عليهم .

من خلال الآيات ندرك ما يلي :

١ . أن الاعتذار لبيان الحال يُؤتى به تطفأً وبياناً لسبب عدم الإتيان بالمطلوب ، محظوراً كان ؛ كما كان من شعيب مع قومه ، أو واجباً ؛ كما كان من بني إسرائيل حينما أمروا بذبح البقرة ، أو مندوباً ؛ كما كان من امرأة عمران ، أو بسبب التأخر ؛ كما كان من رسول الله ﷺ حينما تأخر عن رد السلام .

٢ . أن الاعتذار لبيان الحال من الصعب تأطيره ، لكنه يرتسم في كل المعاني والكلمات التي من شأنها أن تبقي الوفاء والنقاء ، ويظهر ذلك جلياً في جميع الأمثلة السابقة على اختلاف الأحوال .

٣ . أن الاعتذار لبيان الحال تتقدم به النفوس النقية الراقية ؛ لتديم ما حولها من صفاء .



(١) « فتح الباري شرح صحيح البخاري » (١ / ١٣٢) .



المبحث الثاني

أنواع الاعتذار من حيث النوع والسبب

الإنسان إمّا أن يعيش مع نفسه ، أو مع غيره ، وهو مُعرّض في عيشه للخطأ ، ولا يعني ذلك ترك المخالطة ، بل حسن المتاركة بعد الورطة في شيء ؛ فعلاً كان ، أو قولاً ، أو نسياناً ، أو طلباً لما لا يليق ، فيستفرغ الإنسان تلك السّقطات والأخطاء بالاعتذار ، فبذلك يعتاض من الذمّ حمداً ، أو يستبدل بالنقص حمداً ، وفيما يأتي تفصيل هذه الأنواع .

وفي هذا المبحث خمسة مطالب :

المطلب الأول : الاعتذار من فعل .

المطلب الثاني : الاعتذار من مقولة .

المطلب الثالث : الاعتذار من طلب ما لا يليق .

المطلب الرابع : الاعتذار للجهل بالحال .

المطلب الخامس : الاعتذار من المؤاخذه بالنسيان .

المطلب الأول

الاعتذار من فعل

يتعدّد منشأ الأخطاء في الأفعال بتنوّع دوافع الفعل ، والظروف المحيطة بالموقف ، وعلى أثر ذلك يختلف الاعتذار .

فموسى عليه السلام حين أنجاه الله وبني إسرائيل من فرعون وقومه ، وقطع بهم البحر تعجّل إلى لقاء ربه ، وأقام هارون في بني إسرائيل يسير بهم على أثره ^(١) ، فعاتبه الله على ذلك ؛ قال سبحانه : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴾ [طه : ٨٣] ، فقدّم موسى عليه السلام اعتذاره قائلاً : إنهم بالقرب مني ، واصلون بعدي ، وما تقدّمهم إلا بخطي يسيرة .

يقول الزمخشري : « فاعتلّ بأنه لم يوجد مني إلا تقدّم يسير ، مثله لا يعتدّ به في العادة ولا يحتفل به ، وليس بيني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة ، يتقدّم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمتهم » ^(٢) .

وأني لم أستعجل مخالفة لأمرك ، ولا عصياناً لك ، إنما مبادرة إلى رضاك ، ومسارعة إلى الميعاد ، وشوقاً للقياك ، وذلك شأن الموعود بما يسره ؛ يودّ لو ركب أجنحة الطير ، ولا أسرّ من مواعدة الله تعالى له عليه السلام ؛ قال سبحانه : ﴿ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ [طه : ٨٤] .

(١) انظر : « جامع البيان » للطبري (٣٤٩ / ١٨) .

(٢) « الكشف » (٨١ / ٣) .

يقول الأصفهاني وغيره من المفسرين : « أورد ذلك على سبيل الاعتذار ؛ إبانة أنه قصد فعلاً محموداً ، وإن تحرّى العجلة فيه ، ومن قصد فعلاً محموداً فقد يُعذر في وقوع ما يُكره منه »^(١) .

فاعتذر موسى عليه السلام من خطئه في الاجتهاد ، وراعى في ذلك أدق الألفاظ ؛ لتجلية المعنى في المقصود ، فقال : « إِيَّاكَ » ، أي عَجَلْتِي كانت إليك ، وأنت القريبُ إلى نفسي ؛ آسُ بكلامك ، والكلمة الثانية هي « رَبِّ » ؛ أي : القائمُ على نفسي ، ومن صنعتني على عينك ؛ فإنني أسارعُ إلى مَنْ صنعني على عينه^(٢) .

ولمّا كانت عجلة موسى عليه السلام إلى لقاء ربه السبب الذي اعتذر لأجله إلى الله ، كان من المناسب الإشارة إلى العجلة في أمور الخير ، وهل هي مذمومة أو محمودة؟

وبيان ذلك : أن العجلة في أمور الخير وردت في النصوص الشرعية بلفظ « المسارعة » ، ولم ترد بلفظ « العجلة » ، لأن المسارعة هي : البدارُ إلى الأمر في أول وقته ، وأما العجلة فهي : البدارُ إلى الأمر قبل أوانه ، فمن ذلك : امتداحُ الله الأنبياء المتقدمين بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] ، وقد أمر سبحانه بالمسارعة في قوله : ﴿ وَسَارِعُوا

(١) « تفسير الراغب الأصفهاني » (٨٠٩ / ٢)

وانظر : « إرشاد العقل السليم » لأبي السعود (٣٤ / ٦) و« التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج » للزحيلي (٢٦٣ / ١٦) .

(٢) ينظر : « زهرة التفاسير » لأبي زهرة (٤٧٦٦ / ٩) .

إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴿١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣] ، كما ورد في السنة فضل المسارعة إلى الصلاة وأدائها في أول وقتها ؛ كما جاء في الحديث حينما : سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « الصَّلَاةُ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا »^(١) .

وفي المقابل نجد أن لفظ الاستعجال لم يرد في القرآن في موضع مدح أو ثناء :
 ١ - مثال ذلك : قوله تعالى : ﴿ لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ [القيامة : ١٦] ؛ فقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعجل في أثناء تلقي القرآن من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ خشية النسيان ، فأخبره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ الْأُمُورَ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِتَوْفِيقِهِ سبحانه وإعانتِهِ ، فاعتمد على الله ، واثرك التعجل .

٢ - كما ذمَّ الله المشركين عندما طلبوا العذاب قبل وقته ، فجاء التعبير عن ذلك بالاستعجال ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٨] ، والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستعجلين لنزول العذاب : لو أَنَّ عِنْدِي ما تستعجلون به لم أمهلكم ساعة .

٣ - وحينما رجع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قومه ممتلئاً غضباً وغيظاً عليهم ، لعبادتهم العجل من بعده ، عاتبهم وقال : ﴿ أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٠] ، إذ وعدكم بإنزال الكتاب ، فبادرتم برأيكم الفاسد إلى عبادة العجل ؟ ، فعبر عن فعلهم القبيح بالاستعجال وعدم الصبر لميعاد الله^(٢) .

(١) أخرجه الترمذي (١٧٠) وصححه الألباني « صحيح الجامع الصغير وزيادته » (١ / ٢٤٧) .

(٢) ينظر : « لطائف الإشارات » للششيري (٢ / ٥٠٢) و « مفاتيح الغيب » للرازي (٨ / ٣٣٤) .

وبعد أن وَقَفْنَا على اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى من فعل العجلة الذي عاتبه ربه عليه ، نَقَفْ على اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعون في موقف مُبَايِنٍ ، وذلك حينما اعتذر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعون أمام اتهاماته وأسئلته الهازئة الساخرة ، من فعل جهل فيه وضلَّ عن الصواب : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۖ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَكَ الْتَىٰ فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۖ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلَيْهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۖ ﴾ [الشعراء : ١٨ - ٢٠] ، ففرعون يُريد أن يمتنَّ على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بتربيته في قصره أيام طفولته ، وبأن موسى مع ذلك لم يَرَعْ تلك النعمة ، بل قابَلَهَا بقتل رجلٍ من قوم فرعون ، وكان فرعون يُشيرُ بذلك إلى موسى : أَنَّكَ كَفَرْتَ بما قَدَّمْتُ لك من نعمةٍ أيام طفولتك ، ثم كَفَرْتَ مرَّةً أُخْرَىٰ بِالوَهَيْتِي ، فدَعَوْتَ إلى عبادة الإله الحق . ويتأمل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ خطاب فرعون ، ويحدِّد الخطأ في سلوكه من قتل القبطي ، ويعتذرُ منه ، ويعترفُ أنه كان عن جهل وسفه ، ويترك ما كان يُورِّقُ فرعون من كفرٍ بِالوَهَيْتِهِ^(١) ، قوله تعالى : ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ، أي من الجاهلين .

ويقول السعدي : « فقال موسى : ﴿قَالَ فَعَلَيْهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ؛ أي : عن غيرِ كفرٍ ، وإنما كان عن ضلالٍ وسفهٍ ، فاستغفرتُ ربي فغفر لي »^(٢) .

و« لباب التأويل في معاني التنزيل » للخازن (١١٨ / ٢) و« اللباب في علوم الكتاب » لابن عادل (٥٥٨ / ١٩) و« البحر المديد في تفسير القرآن المجيد » لابن عجيبة (٤٦٢ / ٣) .

(١) ينظر : « تفسير الشعراوي » ، الخواطر (٣٥٦٦ / ٦) .

(٢) « تيسير الكريم الرحمن » للسعدي (٥٩٠) .

فنبئني الله يترك ما كان يعتقدهُ فرعونُ الطاغيةُ أنه خطأ؛ من خروج موسى عن ألوهية فرعونَ ، ويعترفُ بأنه لم يسلكُ طريقَ الجادةِ المستقيمةِ بقتله للقبطيِّ ، ويقدمُ اعتذاره لفرعونَ ؛ بأنَّ فعله كان عن سفهٍ وجهلٍ .

يقولُ أبو حيان : « ﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِّينَ﴾ » كان الاعتذارُ فيه أهمَّ من الجوابِ في ذكرِ النعمةِ بالتربيةِ «^(١) ؛ لأنَّ الله سبحانه لم يكن حينها قد خَرَجَ به عن الضلالِ الذي يعيشُ فيه فرعونُ ، فهذه الفعلَةُ هي أثرٌ من آثارِ تلكِ الحياةِ التي يحيها المجتمعُ الفرعونيُّ ، ونلاحظُ في اعتذارِ موسى لفرعونَ أنه عارٍ من المقدماتِ ، والمبالغةِ في تقديمِ الأسبابِ ، وكلماتِ التلطُّفِ والتودُّدِ للمعتذرِ إليه ، كما كان فرعونُ عارياً من المبادئِ والقيمِ ، بعكسِ اعتذارِ موسى لربه حينما تعجَّلَ للقاءه ، فقد قدَّم موسى لربه الأسبابَ والألفاظَ المُنبِئَةَ بالرغبةِ في قبولِ اعتذاره ، ومحوِ خطيئته المبنيةِ عن الاجتهادِ في طلبِ رضا الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** ، كما أوضحنا في الآيةِ السابقةِ في تعجُّلِ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** في لقاءِ ربه .

وبعد أن وَقَفْنَا على اعتذاراتِ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** ، نقفُ على موقفٍ آخرَ ترسَّمْ لنا الآياتُ فيه موقفاً شفيفاً حليماً ليوسفَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** ، حينما يرغَبُ إلى الملكِ أن يفحصَ أمرَ النسوةِ اللاتي قطعن أيديهن ، ولم يذكرِ امرأةَ العزيزِ ، ولم يُشِرْ إليها على وجهِ التخصيصِ ، فتقدَّمُ امرأةُ العزيزِ لتعلنَ الحقيقةَ المقرونةَ بالاعتذارِ : ﴿الَّذِينَ حَصَّصَ أَحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف : ٥١] ، وتعترفُ أنها هي التي راودتهُ ، فتَقْصُرُ فعلَ المراودةِ على نفسها ، وتشهدُ له شهادةً كاملةً بنظافته وصدقهِ .

(١) « البحر المحيط في التفسير » لأبي حيان (١٤٦/٨) .

يقول محمد رشيد رضا : « **أَنَا رَاودْتُهُ وَعَنْ نَفْسِهِ** » وهو لم يُراودني ، بل استعصم وأعرض عني ، **وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** فيما اتهمني به من قبل ، وحمله أدبه الأعلى ووفاءه الأسمى لمن أكرم مثواه وأحسن إليه على السكوت عنه إلى الآن ، ونحن جزيناه بالسيئة على الإحسان ، وقد أقر الخضم وارتفع النزاع ^(١) .

ثم تتبع ذلك قولها : **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ** [يوسف : ٥٢] ، أي : ذلك الإقرار بالحق له ، والشهادة بالصدق الذي علمته منه ، ليعلم الآن إذ يبلغه عني أنني لم أخنه بالغيب عنه ، منذ سُجن إلى الآن ؛ بالنيل من أمانته ، أو الطعن في شرفه وعفته ، بل صرحت لجماعة النسوة بأنني راودته فاستعصم وهو شاهد ، وها أنا ذا أقر بهذا أمام الملك وملئه وهو غائب ، **وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ** [يوسف : ٥٢] ، من النساء والرجال ، بل تكون عاقبة كيدهن الفضيحة والنكال ، ولقد كدنا له فصرف ربه عنه كيدنا ، وسجنناه فبرأه وفصح مكرنا ، حتى شهدنا له في هذا المقام السامي على أنفسنا .

فهي تُقر بذنبها ، وتعتزف بخطئها ، وتشهد ليوسف بالصدق وإن لم تُسأل عنه ؛ إظهاراً لتوبتها ، وتحقيقاً لصدق يوسف ونزاهته ، وهذا منتهى الاعتراف بالخطأ ^(٢) .

(١) « تفسير المنار » (٢٦٧ / ١٢) .

(٢) ينظر : « النكت والعيون » للماوردي (٤٧ / ٣) و « الكشاف » للزمخشري (٤٧٩ / ٢)

و « تفسير المنار » لرشيد رضا (٢٦٧ / ١٢) .

« محاسن التأويل » (١٨٦ / ٦) .

ثم تَكْمِلُ الاعتذارَ بقولها : ﴿وَمَا أَبرِئُ نَفْسِي﴾ [يوسف : ٥٣] اعتذارًا عن نفسها ، وبيانًا لأسبابِ جنائيتها ، من تسويلِ النفوسِ لارتكابِ السوءِ ، طامعَةً في مغفرةِ الله ورحمته ورضوانه .

يقولُ القاسمي : « تُريدُ الاعتذارَ ممَّا كان منها أن كلَّ نفسٍ لأمانةٍ بالسوءِ ، إلا نفسًا رَحِمَهَا اللهُ بالعصمة ، كنفسِ يوسف »^(١) .

ويقولُ ابنُ القيم : « ثم تعتذرُ عن نفسها بقولها : ﴿وَمَا أَبرِئُ نَفْسِي﴾ ، ثم تذكرُ السببَ الذي لأجله لم تُبرِّئْ نفسها ، وهي أنَّ النفسَ أمانةٌ بالسوءِ ، فتأمل ؛ ما أعجبَ أمرَ هذه المرأة ، أقرَّت بالحقِّ ، واعتذرتُ عن محبوبها ، ثم اعتذرتُ عن نفسها ، ثم ذَكَرَتِ السببَ الحامِلَ لها على ما فعلتُ ، ثم خَتَمَتِ ذلكَ بالطمعِ في مغفرةِ الله ورحمته^(٢) ، وأنه إن لم يرحمَ عبده فهو عرضةٌ للشرِّ »^(٣) .

وبعد أن ظهرَ لنا اعتذارُ امرأةِ العزيزِ من فعلٍ لطالما مَكَرَتْ لتحقيقه انقيادًا لشهوتها المريضة ، يظهرُ لنا اعتذارُ راقٍ من نوعٍ آخر ، اعتذارٌ من مقابلةِ الإساءةِ بالمِثْلِ ، اعتذارٌ من ارتكابِ الخطيئةِ وإن كان لصاحبه في ذلكَ حقٌّ ، وذلكَ حينما توعَّد قابيلُ أخاه هابيلَ بالقتلِ ، وأقسمَ على ذلكَ ، فأجابه هابيلُ في ذلكَ أحسنَ

(١) « محاسن التأويل » (١٨٦ / ٦) .

(٢) يقول ابن القيم : « ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهي على دين الشرك ؛ فإن القوم كانوا يقرون بالرب **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وبحقه ، وإن أشركوا معه غيره . ولا تنس قول سيدها لها في أول الحال ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيَاكَ إِنَّكَ كُنتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ » . « تفسير القرآن الكريم » لابن القيم (٣٣١) .

(٣) « تفسير القرآن الكريم » لابن القيم (٣٣١) .

الجواب وأنفعه ؛ فقال : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] ، فكان ردًّا شافيًّا في بيان سببِ عدمِ القبولِ من الله ، متضمِّنًا الاعتذارَ ورفضه للقتلِ والمقابلةِ بالمثلِ ، فكأنه قال : إني لم أذنب ذنبًا تقتلني به ، ولكن ارجعْ إلى نفسك ، وانظرْ في السببِ ؛ فإنما يتقبلُ الله من المتقين^(١) ، فاعتذر وأعرض عن المقابلةِ بالمثلِ بعبارةٍ موجزةٍ ، أوضحَتْها الآيةُ بعدها : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنَِّّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٨] ، وفي هذا احترامٌ من هابيلَ للدماءِ ، وحفظٌ لحقِّ الأخوةِ ، واعتذارٌ وإعراضٌ عن المبادرةِ بالقتلِ .

من خلال الآيات ندرك ما يلي :

١ . أن الاعتذارَ من فعلٍ لا يخرجُ عن حالاتٍ ثلاثٍ :

أ- إمَّا أن يكونَ من خطأٍ في الاجتهادِ ؛ كما في اعتذارِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما تعجَّلَ للقاءِ ربه .

ب- وإمَّا أن يكونَ من خطأٍ صادرٍ عن غيرِ قصدٍ كالجهلِ والسَّفهِ ؛ كما في اعتذارِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من قتلِ المصريِّ .

ج- وإمَّا أن يكونَ من أمرٍ صادرٍ عن قصدٍ ، فيكونَ عن علمٍ ومعرفةٍ ، ولكن تغلبَ فيه شهواتُ النفسِ ، فيُستدركُ الخطأُ بالاعتذارِ ، كما في الاعتذارِ الصادقِ لامرأةِ العزيزِ ، وإنما قيَّدناه بالاعتذارِ الصادقِ لأنَّ هناك من الأخطاءِ ما يقتضيه الإنسانُ عن علمٍ ومعرفةٍ وقد غلبته فيه شهواتُ النفسِ ، ولكن حينما يُدركه من حوله يتوارى خلفَ الاعتذاراتِ الكاذبةِ ؛ كما سيأتي في المباحثِ التالية .

(١) ينظر : « تفسير المنار » (٦ / ٢٨٣) .

٢ . الركن الأساسي في الاعتذار هو الاعترافُ الصادقُ بالخطأ البعيد عن حظوظ النفس ؛ فإنَّ صاحبه حريٌّ أن يُغفرَ له وإن عظمَ جرمُهُ ، ولا سيَّما إن صاحبه الندمُ على الاقترافِ ، ويظهرُ ذلك في عباراتِ الاعتذارِ والاعترافِ ، وما يقدمه المعتذرُ من الأسبابِ الواضحةِ النقيةِ من الكذبِ ؛ كما في اعترافِ موسى على نفسه بالجهلِ والضلالِ في قتلِ المصريِّ ؛ فقد كان لفظه مُوحياً بالندمِ ، وأنَّ هذا الأمرَ الصادرَ منه كان عن ضلالٍ ؛ فإنه لو لم يكن نادماً لَمَا اعترفَ على نفسه بالضلالِ .

٣ . يزداد جمالُ الاعتذارِ حينما يُكسى بالأسبابِ الباعثةِ على الخطأِ ، كما أوضحناه في اعتذارِ امرأةِ العزيزِ ، حينما قالت : ﴿وَمَا أَتَّبِعُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ ؛ فإنه أبلغُ في محوِ أثرِ الخطأِ من النفوسِ ، وبناءً على ذلك نقولُ : إنَّ للمعتذرِ أن يعتذرَ عن نفسه ، لكن يكونُ ذلك بعد تقديمِ اعترافه بالخطأِ ؛ فهو أوقعُ في النفسِ وأولى بالقبولِ ، وأما تقديمُ اعتذاره عن نفسه على الاعترافِ ، فقد يظهرُ بمظهرِ الاعتراضِ ، بعكسِ تأخيرهِ كما كان من امرأةِ العزيزِ .

٤ . يبلغُ الاعتذارُ سُمُوهُ حينما يقارنُ الاعترافُ في الاعتذارِ الشهادةَ للمعتذرِ إليه بحسنِ الخلقِ ؛ فإنه يقتلُ آثارَ الجنايةِ والخطأِ من النفوسِ ، ونلحظُ ذلك في جميلِ شهادةِ امرأةِ العزيزِ ليوسفَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** بالصدقِ والنزاهةِ .

٥ . تختلفُ عباراتُ الاعتذارِ بحسبِ المعتذرِ إليه ، فقد يتقدَّمُ الاعتذارَ أو يتخلَّلُه الألفاظُ والعباراتُ المُنبئةُ عن الرغبةِ في قبولِ الاعتذارِ ؛ كما في اعتذارِ

موسى لله ، واعتذار امرأة العزيز ليوسف **عَلَيْهِ السَّلَامُ** ، وقد يأتي خالياً من تلك العبارات ؛ كما في اعتذار موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** لفرعون ؛ فقد اقتصر على قوله : ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ، ويزداد هذا المعنى تجلياً حينما نوازن بين هذه العبارة وبين عبارة الاعتذار من القتل المقدمة من موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** **لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [١٦ - ١٧] ؛ فقد اعترف موسى على نفسه بالظلم ، وطلب المغفرة من الله ، وحينما قبل الله عذره وتوسله ، أخذ موسى على نفسه وعداً ألا يُعين مجرماً كما فعل في قتل القبطي ، فكان أسلوبه مُفَعِّمًا بالرغبة في قبول الاعتذار ، وأما عبارة الاعتذار المقدمة من موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** لفرعون : ﴿فَعَلْتُهَا﴾ ؛ فهي مجرد اعترافٍ مُوحٍ بالندم فقط على ما كان .

٦ . الاعتذار في الأفعال : إما أن يكون من فعلٍ ؛ كما في اعتذار موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** **لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** من عجلته ، وإما أن يكون من تركٍ ؛ كما في اعتذار هابيل لقابيل من ترك القتل .

٧ . الاعتذار في الأفعال : إما أن يكون صريحاً ؛ كما في اعتذار امرأة العزيز ، وإما أن يكون ضمنيّاً ؛ كما في اعتذار هابيل لقابيل : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ .



المطلب الثاني

الاعتذار من مقولة

يكثُرُ الاعتذارُ من الأقوال ، وتتعدَّدُ أسبابُه ؛ وذلك لأنَّ الكلامَ ميدانٌ ليس له حدٌّ ، فله في الخيرِ مجال رَحْبٌ ، وله في الشرِّ ذيلٌ سَحْبٌ ، تترجمُ الأقوالُ عن مكنونِ النفوسِ ، وتغرفُ من بواطنِها ، فتكثُرُ الفَلَتَاتُ والزَلَّاتُ ، فإن سَقَطَ في أحدها حُسْنُ الاعتذارِ ؛ لتلتئمِ السقطةُ ، ويندملَ الجرحُ ، وقد تجلَّى هذا النوعُ من الاعتذارِ في عدةِ مواضعٍ من القرآن .

نبدأُ بأولِها حدوثاً في هذا الكونِ ؛ وذلك في اعتذارِ الملائكةِ لربِّها حينما أتمَّ سبحانه خلقَ السمواتِ والأرضِ ، فأعلنَ في الملائِ الأعلَى أن كائناً بشرياً سيتولَّى قيادةَ الأرضِ ، وسيكونُ خليفةً فيها ، فاستفهمتِ الملائكةُ عن هذا الاستخلافِ ، ظناً منها بحسبِ علمِها أنهم سيُفسدون في الأرضِ ، والملائكةُ قائمةٌ بعبادةِ الله ، على وجهِ خالٍ من المفسدةِ ، مليءٍ بمحبةِ الله وتعظيمِهِ وخشيتهِ ، كما حكاه سبحانه في قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٣٠] .

فجاءَ البيانُ من الله للملائكةِ مُجَمَّلاً : ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ؛ أي : أنَّ كلامَكم بحسبِ ما ظننتم ، وأنا عالمٌ ببواطنِ الأمورِ وحقائقِها ، ثم جاءَ البيانُ

مُفَصَّلًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١] ، فقد عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا بِالْفَاظِهَا وَمَعَانِيهَا ، ثُمَّ امْتَحَنَ الْمَلَائِكَةَ بِهَا ، فَعَجَزُوا عَنْهَا ، وَتَبَيَّنَ لَهُمْ فَضْلُ آدَمَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمُحِيطِينَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ، وَأَنَّهُمْ يَفُوتُهُمْ أَشْيَاءُ يَفْضُلُهُمْ آدَمُ فِيهَا ، كَمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ حِكْمَةُ الْبَارِي وَعِلْمُهُ فِي اسْتِخْلَافِ هَذَا الْخَلِيفَةِ^(١) ، حِينَهَا قَدَّمَ الْمَلَائِكَةُ اعْتِذَارَهُمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] ؛ اعترافًا مِنْهُمْ بِالْعِزِّ وَالْقُصُورِ ، وَاعْتِذَارًا لِلَّهِ بِأَنَّهُ سَأَلَهُمْ كَانَ اسْتِفْسَارًا وَلَمْ يَكُنْ اعْتِرَاضًا ، وَأَنَّهُ الْعَلِيمُ فِيمَا اخْتَارَهُ الْحَكِيمُ فِيمَا أَجْرَاهُ ، وَقَدْ بَانَ لَهُمْ مَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ ؛ مِنْ فَضْلِ الْإِنْسَانِ ، وَالْحِكْمَةِ فِي خَلْقِهِ ، وَقُصُورِهِمْ عَنْ مَعْرِفَةِ أَدْنَى شَيْءٍ ، فَاعْتَرَفُوا بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَتَعَلَّمُوا مِنْهُمْ مَا لَا يَعْلَمُونَ .

فَالنَّاضِرُ إِلَى حَسَنِ هَذَا الْجَوَابِ ، يَرَى بَرَاعَةَ اعْتِذَارِ الْمَلَائِكَةِ لِلَّهِ ؛ فَقَدْ بَدَّوْا وَابْتَنَزِيَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنِ الْجَهْلِ ، وَالْاعْتِرَافِ بِكَمَالِهِ ، وَإِنْ كَانَ الْاعْتِذَارُ قَدْ يَحْصُلُ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ ، إِلَّا أَنَّهُمْ افْتَتَحُوا اعْتِذَارَهُمْ بِنَتْنِيزِهِ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، ثُمَّ نَفَى الْعِلْمَ عَنْهُمْ ، وَفِي ذَلِكَ مِلَازِمَةٌ لْجَانِبِ الْأَدَبِ الْعَظِيمِ مَعَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، ثُمَّ إِنَّهُمْ أَجَابُوا بِنَفْيِ الْعِلْمِ بِلَفْظِ « لَا » الَّتِي سَبَقَتْ مَعَهَا النُّكْرَةُ « عِلْمٌ » ، فَاسْتَعْرَقَ ذِكْرُهَا كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْعُلُومِ ، ثُمَّ اسْتَشْنَوْا مِنْ ذَلِكَ

(١) ينظر: «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» للثعلبي (١/١٧٨) و«تيسير الكريم الرحمن»

للسعدي (٤٨) و«تفسير القرآن الكريم» لابن عثيمين (١/١١٩)

ما علّمهم الله تعالى ، فقالوا : ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ ، وهذا غاية في ترك الدعوى والاستسلام التام للعليم العظيم سبحانه ، وفي التذلل والخضوع والافتقار إلى الله والاعتراف بعظمته وكماله ^(١) .

وبعد أن تجلّى لنا نموذجٌ لاعتذارٍ ينضج أدباً ، وهو اعتذار الملائكة لربها من مقولة ما أرادوا بها إلا خيراً وتقرّباً إلى الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** ، يكشف لنا القرآن عن صورة أخرى من الاعتذار ، لكنه من مقولة مناقضة لسابقتها .

تلك صورة اعتذار المنافقين من أقاويلهم بعدما فضحهم القرآن ، فقد كان المنافقون في المدينة يثبطون المؤمنين عن الجهاد ؛ بيث التخاذل فيهم ، والاستهزاء بهم في مجالسهم ، ويتكلمون بهم ، وإذا خرجوا إلى الجهاد حاولوا تشييطهم بيث روح الفشل فيهم ، أو بالتهكّم اللاذع ، واستصغار شأن المؤمنين ، وقد جاء في مقالتهم : أنه بينما رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يسير إلى غزوة تبوك ، قال بعضهم : « والله إنهم أرغبنا بطوناً ، وأخشاننا عند اللقاء ، وأضعفنا قلوباً » ^(٢) ، يقصد بذلك ركب المؤمنين في غزوة تبوك ، ففضحهم الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** ، وأخرج ما استكنّ وخفي في قلوبهم ، وعند ذلك قدّم المنافقون اعتذارهم ، وهذه حال

(١) ينظر : « أنوار التنزيل » (٢٨٨ / ١) و « البحر المحيط » لأبي حيان (٢٩٧ / ١) و « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٤٢١ / ١) .

(٢) أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (٨٦ / ١٩) وقال الشيخ مقبل الوادعي في « الصحيح المسند من أسباب النزول » (١٠٨) : « الحديث رجاله رجال الصحيح ، إلا هشام بن سعد فلم يخرج له مسلم إلا في الشواهد كما في « الميزان » ، وأخرجه الطبري من طريقه (١٧٢ / ١٠) وله شاهد بسند حسن عند ابن أبي حاتم (٦٤ / ٤) من حديث كعب بن مالك » .

المنافقين إذا فَضَّحَهُمُ الْقُرْآنُ بِجَرِيمَةٍ مِنْ جَرَائِمِهِمُ الْمُنْكَرَةِ، أَوْ لَامَهُمْ لِائْتِمَارِهِمْ عَلَى مَا انْكَشَفَ مِنْ مُسْتَوْرٍ تَدْبِيرِهِمُ السَّيِّئِ، وَاسْتَهْزَاءِهِمْ بِرَسُولِ اللَّهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ، فَتَرَاهُمْ حِينَئِذٍ وَقَدْ تَقَنَّنُوا بِقِنَاعِ الْخَجَلِ وَتَخَمَّرُوا بِخِمَارِ الْأَعْذَارِ الْبَاهِتَةِ السَّاقِطَةِ كَعَادَتِهِمْ، فَقَالُوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَحْوُكُمْ وَلَنَعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥]، أَي لَمْ نَكُنْ جَادِينَ فِيمَا كُنَّا فِيهِ، وَإِنَّمَا هُوَ لَعِبٌ وَعَبَثٌ، وَمِفَاكَةٌ! ^(١).

إِنَّهُ لَعَذْرٌ أَقْبَحُ مِنْ ذَنْبٍ، فَلَمْ يَجِدُوا مَا يَسْتُرُونَ بِهِ نِفَاقَهُمْ سِوَى اعْتِدَارٍ بِالْكَذِبِ، مَلِيٍّ بِالتَّبَجُّحِ، خَالٍ مِنَ النَّدَمِ وَالْاعْتِرَافِ بِالْخَطَا، عَارٍ مِنَ الْمَقْدِمَاتِ وَكَلِمَاتِ التَّلَطُّفِ، الْمُوَحِّيةِ بِصَدَقِ الْعِذَارِ، وَالنَّدَمِ عَلَى مَا كَانَ، فَقَدْ كَانَ اعْتِدَارُهُمْ مَعْلُومَ الْكَذِبِ بَيْنَ الْبَطْلَانِ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ الْكَرِيمَ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ يَسْفَهُ بِاطْلَاهُمْ الَّذِي هُمْ فِيهِ، وَأَنْ يَفْضَحَ عَذْرَهُمُ الْكَاذِبَ الَّذِي اعْتَذَرُوا بِهِ: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَحْوُكُمْ وَلَنَعَبُ قُلْ أَيْلَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]، وَسَنَقِفُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَبْحَثِ الْعِذَارِ الْمَقْبُولِ وَالْمَرْدُودِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَبَعْدَ أَنْ وَقَفْنَا عَلَى مَوْقِفَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ فِي الْعِذَارِ مِنْ مَقُولَةٍ، نَقِفُ عَلَى مَوْقِفٍ ثَالِثٍ يَشْتَرِكُ فِيهِ الْعِذَارُ بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَتَتَنَازَعُ فِيهِ قُوَى الْخَيْرِ وَغَوَائِلُ الشَّرِّ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَةِ.

(١) ينظر: «جامع البيان» للطبري (٣٣٣/١٤) و«تفسير المنار» لرشيد رضا (٤٥٥/١٠) و«التحرير والتنوير» لابن عاشور (٢٥١/١٠) و«التفسير القرآني للقرآن» للخطيب (٨٣٤/٥) و«زهرة التفاسير» لأبي زهرة (٣٣٦٠/٦).

فأصحابُ الجنةِ في سورةِ القلمِ تغلبُ عليهم شهوةُ حبِّ الدنيا والتعلُّقُ بالمالِ ، فيقسِّمونَ على أن يَحْرِمُوا المساكينَ نصيبَهُم من جنةِ أبيهم التي امتلكوها بالإرثِ ، بعد أن كان للمساكينَ في حياةِ أبيهم النصيبُ الأكبرُ من الجنةِ^(١) ، فيخرجون إليها في الصباحِ الباكرِ بعيدًا عن أعينِ الناسِ حتى إنهم يتسارَّون فيما بينهم ؛ حتى لا يتشرَّ أمرُهُم ، فيعلمَ الفقراءُ بذلك ، فينماهم على هذه القسوةِ ، جازمين بقدرتهم عليها ، إذ اتَّتهم المفاجأةُ التي لم تخطرُ بخلدٍ ولا تصدِّقُ بها عينٌ ، فيا لخبيةِ الأملِ ! بستانٌ كان بالأمسِ زاهرًا عامرًا بالخيرِ ، فأصبح اليومَ قاعًا صفصفاً ، تبدَّلت معالمُهُ وتغيَّرت رسومُهُ ، حتى شكَّوا فيه ؛ قال سبحانه : ﴿ فَكَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَّالُونَ ﴾ [القلم : ٢٦] ، فلما تحقَّقوا ذلك علموا أنه قد أصابهم غضبُ الله ، بمنعِهِم وقسَمِهِم ألا ينالَ المساكينُ والمحتاجون من بستانهم ، فرجعوا يلومُ بعضهم بعضًا^(٢) : ﴿ يَوَكِّلْنَا إِنَّا كُنَّا طُغْيَانًا ﴾ [القلم : ٣١] ، تحسُّراً وتندُّماً على ما كان منهم ، عندها أشار عليهم أرجحُهم رأياً وعقلاً ، بالتوبةِ والرجوعِ إلى الله والاعتذارِ إليه ، قالوا : ﴿ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [القلم : ٢٩] ، فرجعوا إلى الله وتابوا إليه ، واعترفوا على أنفسهم بالظلمِ والتجاوزِ في حقِّ الله . يقولُ القاسميُّ : « قوله تعالى : ﴿ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي : متجاوزين حدودَ الله تعالى في تفريطنا وعزمنا السيِّئ ، ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا ﴾ ؛ أي : بتوبتنا إليه ، وندمنا على خطئِ فعلنا ، وعزمنا على عدمِ العودِ إلى مثله »^(٣) .

(١) ينظر : « تفسير عبد الرزاق » للصنعاني (٣٣٢ / ٣)

(٢) ينظر : « جامع البيان » للطبري (٥٥١ / ٢٣) و « تفسير المراغي » (٣٧ / ٢٩) و « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٨٧ / ٢٩) و « التفسير القرآني » للخطيب (١١٠١ / ١٥) .

(٣) « محاسن التأويل » (٣٠١ / ٩) .

فقد سَبَّحُوا اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، ونَزَّهوه عن أن يُعصِي أمره في إعطاءِ حقِّ المساكين ؛ فإنَّ من أصولِ التوبةِ تداركُ ما يمكنُ تداركُه ، وهذا التنزيهُ منهم لله مقدمةٌ لاستغفارِهم من ذنبيهم ، فالتسبيحُ مقدمةُ الاستغفارِ من الذنبِ ؛ قال تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر: ٣] ، ثم أظهروا اعترافهم وندمهم على مقولتهم : ﴿ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴾ [القلم: ٢٤] ، وعزمهم على ذلك الفعلِ الشنيع ، فقابلوا ذلك بالعزمِ على عدمِ العودةِ لمثلِ ذلك الذنبِ ، وهذا أكملُ وجوهِ الاعتذار .

يقولُ الأصفهانيُّ : « التَّوْبَةُ : تركُ الذنبِ على أجمالِ الوجوه ، وهو أبلغُ وجوهِ الاعتذار ؛ فإنَّ الاعتذارَ على ثلاثةِ أوجهٍ : إمَّا أن يقولَ المعتذرُ : لم أفعلْ ، أو يقولَ : فعلتُ لأجلِ كذا ، أو فعلتُ وأسأتُ وقد أقلعتُ ، ولا رابعَ لذلك ، وهذا الأخيرُ هو التوبةُ ، والتوبةُ في الشرعِ : تركُ الذنبِ لقُبْحِهِ ، والندمُ على ما فَرَطَ منه ، والعزيمةُ على تركِ المعادةِ ، وتداركُ ما أمكنه أن يتداركَ من الأعمالِ ، فمتى اجتمعت هذه الأربعُ فقد كملت شرائطُ التوبةِ »^(١) .

من خلال الآيات ندرِك ما يلي :

١ . أن الاعتذارَ من قولٍ لا يخرجُ عن حالاتٍ ثلاثٍ :

أ- إمَّا أن يكونَ من خطأٍ في الاجتهادِ ، كما في اعتذارِ الملائكةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

ب- وإمَّا أن يكونَ عن غيرِ قصدٍ ، كالنسيانِ ؛ كما في اعتذارِ موسى للخضرِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وسيأتي بيانهُ في المطلبِ الرابعِ من هذا المبحثِ إن شاء الله .

(١) « المفردات في غريب القرآن » (١٦٩) .

ج- وإما أن يكونَ عن قصدٍ ، فيكونُ عن علمٍ ومعرفةٍ ، ولكن تغلبُ فيه شهواتُ النفسِ ، فيُستدرَكُ الخطأُ بالاعتذارِ ، كما في اعتذارِ أصحابِ الجنةِ في سورة القلم .

٢ . الركنُ الأساسيُّ في الاعتذارِ المقبولِ هو الاعترافُ بالخطأ ، وذلك من فضائلِ الخصالِ الملائكية ؛ إذ قد ظهرَ في اعتذارِ الملائكةِ لربِّها ، ونلمُسُ ضدَّه في اعتذارِ المنافقين حينما استخفَّوا بأعذارِهِم الكاذبة ، فردَّ اللهُ عليهم اعتذارَهُم .

٣ . من اللباقةِ والسموِّ في الاعتذارِ أن يتقدَّم الاعتذارُ إلى اللهِ تسبيحُ اللهِ وتنزيهه ، امثالاً لأمرِ اللهِ : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ ، فالتسبيحُ مقدمةُ الاستغفارِ من الذنبِ ، وفيه اقتداءٌ بأنبياءِ اللهِ ؛ كما في اعتذارِ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** : ﴿ قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

٤ . قد يُساقُ الاعتذارُ بغرضٍ محوِ الخطأِ وتجنبِ آثارِهِ ، فتكونُ كلماته وعباراته مليئةً بالاعترافِ مُشعرةً بالندمِ على الخطأِ ؛ « وهذا هو الاعتذارُ الصادقُ » ، وقد يُساقُ الاعتذارُ لمجردِ التَّخَفُّي من قباحةِ الذنبِ وشناعته ، لا رغبةً في محوِ الخطأِ ، فتظهرُ عليه اعترافاتٌ كاذبةٌ بعيدةٌ عن الندمِ ؛ « وهذا هو الاعتذارُ الكاذبُ » .

٥ . من تمامِ الاعتذارِ العزمُ على عدمِ العودةِ إلى الخطأِ ، واستدراكُ ما يمكنُ استدراكه ، كما حصل من أصحابِ الجنةِ .

٦ . قد يكونُ الاعتذارُ من قولٍ وفعلٍ معاً ؛ لصدورِ الخطأِ من كلتا الجهتين ، كما في قصة أصحابِ الجنةِ في سورةِ القلم .

٧ . اللسانُ له مزالقٌ خطيرةٌ قد لا يَنفَعُ معها الاعتذارُ ؛ وسببُ الخطرِ أن الكلامَ سهلٌ على اللسانِ ؛ إذ لا تعبَ في إطلاقه ، ولا مؤنةَ في تحريكه ، فينبغي الحذرُ والتنبهُ لذلك ، وقد تجلَّى ذلك في خروجِ المنافقين من الدينِ بكلماتهم الساخرة ، والواقعُ يشهدُ لذلك ؛ فبعضُ الكلامِ وإن لم يمسَّ الدينَ إلا أن جرحه يقعُ في القلبِ ، فيصعبُ استخراجهُ إلا بعدَ مدةٍ طويلةٍ ، حتى وإن قُبِلَ فيه الاعتذارُ .



المطلب الثالث

الاعتذار من طلب ما لا يليق

قد تضطرب الأحوال ، وتهيج الأفكار ، فتستنطق غلبات النفس الألسنة ، رغبة خيراً أو قاصدة شراً ، بطلب ما لا يليق ، فلا يُقبلها إلا الاعتذار ، وفي القرآن من ذلك أمثلة .

فنوح **عَلَيْهِ السَّلَامُ** عندما أهلك الله من عصاه بالطوفان ، وجاء الأمر الإلهي للأرض والسماء بالتوقف عن انهماك الماء ، واستوت السفينة على الجودي ، استيقظت في نفس نوح **عَلَيْهِ السَّلَامُ** لهفة الأب المفجوع ، فنادى ربّه : ﴿رَبِّ إِنِّي أَبْنَىٰ مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكِيمِينَ﴾ [هود: ٤٥] ، فجاء الرد من ربّه : ﴿يٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْكُنْ مَعَهُ لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] ، حينها ارتجف نوح **عَلَيْهِ السَّلَامُ** ارتجافة العبد المؤمن الذي يخشى أن يكون قد زلّ في حقّ ربه ، فيلجأ إليه ؛ يعودُ به ، ويقدمُ اعتذاره ، ويطلبُ غفرانه : ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] .

فمع ما كان عليه طلب نوح **عَلَيْهِ السَّلَامُ** لربّه **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** من جميل الاحترام ، ورد الأمر إلى حكمة الله سبحانه ، وأنه أحكم من كل من يتصور منهم الحكمة ، وأحسنهم وخيرهم ؛ لأنه **عَزَّجَلَّ** لا يصدر في حكمه إلا عن كمال العلم والعدل ، فلا يعرض له الخطأ والمحاباة ، ولا الحيف والظلم ، إلا أنه حينما

أَحْسَنُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَزَلْتَهُ وَاتَّضَحَ لَهُ خَطَأُ اجْتِهَادِهِ مَعَ نِيَّتِهِ الصَّالِحَةِ ، فِي طَلَبِ مَا لَا يَلِيقُ طَلَبُهُ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، سَارَعَ إِلَى اللَّهِ بِالتَّوْبَةِ ، وَأَنَابَ إِلَيْهِ بِالرَّجْعَةِ مِنَ الْهَفْوَةِ ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ كُلُّ مُسَدِّدٍ لِلْحَقِّ مُوَفَّقٍ لَهُ ، سَرِيعَةٍ إِلَى الْحَقِّ إِنَابَتُهُ ، قَرِيبَةٍ إِلَيْهِ أَوْبَتُهُ^(١) ، وَقَدْ أَبْدَعَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي نَظْمِ الْإِعْتِذَارِ ، بِإِيْجَازِهِ مِنْ غَيْرِ إِخْلَالٍ : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ، فَاشْتَمَلَ عَلَى الْإِعْتِرَافِ بِالْخَطِئِ ، وَالنَّدَمِ عَلَى مَا كَانَ ، وَطَلَبِ الْعَفْوِ مِنَ اللَّهِ ، بِعِبَارَةٍ قَصِيرَةٍ تَحْمِلُ كُلَّ تِلْكَ الْمَعَانِي بِكُلِّ وَضُوحٍ .

وَقَدْ كَسَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْإِعْتِذَارَ حَلَةً جَدِيدَةً ، حِينَمَا قَدَّمَ اسْتِجَارَتَهُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَنْ يَسْأَلَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِصَحَّتِهِ ؛ تَأْدُبًا مَعَ اللَّهِ وَاتِعَاضًا بِمَوْعِظَتِهِ سَبْحَانَهُ ، وَتَمْهِيدًا لَطَلَبِ الْعَفْوِ عَنِ الْمَاضِي ، مِمَّا طَبَعَ اعْتِذَارَهُ طَائِعًا خَاصًّا وَوَاضِحًا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى النَّدَمِ ، وَالْعَزْمِ عَلَى عَدَمِ الْعُودَةِ إِلَى مَا كَانَ ، ثُمَّ أَرَدَفَهُ بِطَلَبِ الْعَفْوِ عَمَّا مَضَى مِنَ السُّؤَالِ الَّذِي سَوَّلَتْهُ لَهُ رَحْمَتُهُ الْأَبْوِيَّةُ ، وَطَمَعُهُ فِي الرَّحْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ ، وَخَتَمَهُ بِطَلَبِ الْقَبُولِ ، ثُمَّ حَكَّمَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْخُسْرَانِ فِيمَا حَاوَلَ الرِّبْحَ فِيهِ ؛ مِنْ نَجَاةِ أَوْلَادِهِ كُلِّهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ؛ إِنْ لَمْ يَتَقَبَّلِ اللَّهُ مِنْهُ ، وَهَذَا الْإِعْتِذَارُ هُوَ عَيْنُ الْإِعْتِذَارِ الَّذِي حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ تَوْبَتِهِ مِنْ زَلَّتِهِ : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الْأَعْرَافُ : ٢٣] ، وَهَذَا مَا سُورِدُهُ فِي اعْتِذَارِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ^(٢) .

(١) ينظر : « جامع البيان » للطبري (١ / ٤٩٢) و « مفاتيح الغيب » للرازي (١٨ / ٣٥٩) و « تفسير المنار » لرضا (١٢ / ٧٠) .

(٢) ينظر : « مفاتيح الغيب » (١٨ / ٣٦٠) .

ويُشابهُ نوحًا موسى **عَلَيْهِمَا السَّلَامُ** في طلبِ ما لا يليقُ طلبُهُ من الله، مع اختلافِ الأحوالِ والدوافعِ في ذلك، فالدافعُ لنوحٍ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** كان الشفقةَ على ابنه والرحمةَ الأبويةَ مع اجتهاده **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أن طلبه ذلك من الله لا تُقِلُّ لا حرجَ فيه، فلمَّا تبيَّن له خلافُ ذلك بادرَ إلى الاعتذارِ، وأما موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** فالحُبُّ العظيمُ لله كان هو الدافعُ إلى ذلك؛ فقد جاء موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** إلى ميقاتِ ربِّه مجيءَ المشتاقِ، وفي الدنيا آلاف الرجالِ الذين قطعوا مسافاتٍ طويلةً فلم يذكُرْهم أحدٌ، وهذا موسى خطا خطواتٍ في سبيلِ الله، فإلى القيامةِ يقرأُ الناسُ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فلمَّا سمعَ خطابَ الله، لم يتمالكُ نفسه حتى قال: ﴿رَبِّ ارْزُقْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، لأنَّ أشدَّ الخلقِ شوقًا إلى الله أقربُهم منه سبحانه، فهذا موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، واقفًا في محلِّ المناجاةِ، ثم في عينِ ذلك شرعَ يقولُ: ﴿رَبِّ ارْزُقْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾؛ كأنه غائبٌ عن الحقيقةِ، ولكنَّ ما ازدادَ القومُ شربًا إلا ازدادوا عطشًا، ولا ازدادوا تيمُّنًا إلا ازدادوا شوقًا، فأجاب **عَزَّجَلَّ** كلمته، إجابةً مليئةً بالتلطفِ: ﴿لَنْ تَرَنِ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فأخبره سبحانه أنه لن يستطيعَ رؤيته، وقربَ له ذلك المعنى حينما تجلَّى سبحانه للجبلِ، وظهر عليه النورُ الإلهيُّ، فتحوَّلَ قاعًا صفصفًا، فثار الفزعُ في نفسِ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** كأنما أصابته صاعقةٌ، وغشي عليه، فلمَّا أفاق أحسَّ بأنه طلبَ ما لا يليقُ، وما لا يتحقَّقُ في الدنيا، فاستغفرَ ربَّه، وسبَّحه، وقال: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، واعتذر موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** من هذا الطلبِ الذي

تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَجِيبُهُ فِي الدُّنْيَا ، وَمَا كَانَ ذَلِكَ خَطِيئَةً ارْتَكَبَهَا ، وَلَكِنَّهُ خَطَأً ، وَالنَّفْسُ الْمُؤْمِنَةُ الَّتِي تُحَسُّ تَسْتَكْثِرُ خَطَأَهَا ، وَتَسْتَقِلُّ صَوَابَهَا ، فَأَحْسَنَ أَنَّهُ ذَنْبٌ يُتَابَ مِنْهُ ، وَمَا هُوَ بِذَنْبٍ ، وَكَذَلِكَ اسْتِثَابَةُ الْمُرْسَلِينَ تَكُونُ مِنْ أَخْطَاءٍ تَغْتَفَرُ ، بَلْ لَا حِسَابَ عَلَيْهَا ، وَلَكِنْ يَعْظُمُ أَمْرُهَا فِي نَفُوسِهِمْ فَيَتُوبُونَ .

وَصَدَّرَ اعْتِدَارَهُ بِالتَّسْبِيحِ ، تَنْزِيهًا لِلَّهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ ، وَتَعْظِيمًا لَهُ ، وَأكَّدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اعْتِدَارَهُ فَقَالَ : ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، أَي : بِأَنَّكَ مَنْزَعٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ ، وَأَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّكَ لَا تُرَى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، فَقَبِلَ اللَّهُ اعْتِدَارَهُ ، وَأَعْطَاهُ خَيْرًا كَثِيرًا^(١) : ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَالِمِي فَاخْذُ مَا ءَاتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

وَإِذَا اسْتَقْصَيْنَا الْبَحْثَ فِي الْاعْتِدَارِ مِنْ طَلَبٍ مَا لَا يَلِيقُ طَلَبُهُ مِنَ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ ، يَظْهَرُ لَنَا مَوْقِفٌ آخَرٌ مُنَاقِضٌ لِمَا قَبْلَهُ فِي دَوَافِعِهِ ؛ فَفِي الْمَوَاقِفِ السَّابِقَةِ اسْتَنْطَقَتْ غَلَبَاتُ النَّفْسِ ، لِتَرْتَقِيَ فِي مَعَارِجِ الْخَيْرِ ، أَلْسِنَةُ الْأَنْبِيَاءِ فِي طَلَبِ مَا لَا يَلِيقُ طَلَبُهُ مِنَ اللَّهِ ، اجْتِهَادًا مِنْهُمْ فِي جَوَازِهِ ، وَأَمَّا فِي الْمَوْقِفِ الْآتِي فَقَدْ اسْتَنْطَقَتْ غَلَبَاتُ النَّفْسِ الْأَمَارَةَ بِالسُّوءِ ، النَّفُوسَ الشَّرْسَةَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ؛ فَفِي قُلُوبِهِمْ قَسْوَةٌ ، وَفِي نَفُوسِهِمْ جَفْوَةٌ ، وَقُلُوبُهُمْ غُلْفٌ لَا تَنْفَتَحُ لِلْحَقِّ ، وَلَا تُدْعِنُ لَهُ ، ظَهَرَتْ لَهُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَقَامَتْ عَلَيْهِمْ بَيِّنَاتُهُ فَلَمْ يُؤْمِنُوا ، وَأَتَتْهُمْ آيَاتُ الْحَقِّ وَالْمُعْجَزَاتُ فَكَذَّبُوا بِهَا وَطَلَبُوا غَيْرَهَا ، وَتَعَنَّتُوا وَتَمَرَّدُوا ، حَتَّى إِذَا غَابَ عَنْهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلِقَاءِ رَبِّهِ ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَيْهِمْ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، نَقَضُوا

(١) ينظر : « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (٣/ ٣١١) و« لطائف الإشارات » للقرطبي (١/ ٥٦٥) و« تيسير الكريم الرحمن » للسعدي (٣٠٢) و« زهرة التفاسير » لأبي زهرة (٦/ ٢٩٤٦) .

الميثاق، وعبدوا العجل، فلمَّا رَجَعَ إِلَيْهِمْ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ غَضِبَ عَلَيْهِمْ وَعَاتَبَهُمْ، فتابوا من عبادة العجل، وتابَ الله عليهم بِقَتْلِ بعضهم بعضًا كما أمرهم الله، واختار منهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سبعين رجلًا من خيارهم، ليعتذروا لقومهم عند ربهم، ووعدهم الله ميثاقًا يحضرون فيه، فلمَّا حضروه قالوا: ﴿إِنَّا لَنَظُنُّكَ اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ﴾ [النساء: ١٥٣]، فتجرؤوا على الله جرأةً كبيرةً، وأسأؤوا الأدب معه، وأبعدوا في الوقاحة والتحدِّي، فطلبوا من الله عَزَّجَلَّ ما لا يليقُ طلبه، فعاقبهم الله سبحانه على هذا، وأخذتهم الصاعقة بظلمهم، فهلكوا، ولم يزل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يتضرعُ إلى الله ويتبتَّل ويقول: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أي: من قبل أن يحضروا ويكونوا في حالةٍ يعتذرون فيها لقومهم، فصاروا هم الظالمين، أتَهْلَكُنَا بما فعل ضعفاء العقول، سفهاء الأحلام؟ فتضرع إلى الله واعتذر بأن المتجرئين على الله ليس لهم عقولٌ كاملةٌ تَرُدُّعُهُمْ عَمَّا قالوا وفعلوا^(١).

وفي ذلك يقول ابن القيم: «يقول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنهم قد تقدَّم منهم ما يقتضي هلاكهم، ومع هذا فوسَّعهم عفوك ومغفرتك، ولم تهلكهم، فليسعهم اليوم ما وسَّعهم من قبل، وهذا كما يقول من وأخذَه سيده بجُرم: لو شئتَ وأخذتني من قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم، ولكن وسَّعني عفوك أوَّلًا، فليسعني اليوم»^(٢).

(١) ينظر: «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١/٢٦٥) و«المحرر الوجيز» لابن عطية في تفسير الكتاب العزيز» لابن عطية (٢/٤٥٩) و«محاسن التأويل» للقاسمي (٥/١٩١) و«تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (٣٠٣) و«التفسير القرآني» للخطيب (٣/٩٦٠) و«زهرة التفاسير» لأبي زهرة (٤/١٩٥٥).

(٢) «إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان» (٢/٣٠٧).

ويستمر موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** في الاعتذار لله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** عن قومه ؛ بأن ما حصل لهم فتنة جعلها سبحانه سبباً لظهور ما طويت عليه سرائرهم من ضلالٍ وهدايةٍ ، وما يستحقون من عقوبةٍ ومثوبةٍ ، وستت يا رب ؛ في جريان مشيئتك في خلقك بالعدل والحق ، والنظام الحكيم في الخلق ، تُضِلُّ بمقتضاها مَنْ تشاء من عبادك ، ولست بظالمٍ لهم في تقديرِكَ ، وتَهْدِي مَنْ تشاء ، ولست بمُحَابٍ لهم في توفيقك ، بل أمرٌ مشيئتكَ دائرٌ بين العدل والفضل ، ولك الخلق والأمر ، أنت المتولّي لأمرنا ، والقائم علينا بما تكتسب نفوسنا ، فاغفر لنا ما تترتب عليه المؤاخذه والعقاب من مخالفةٍ سنتك ، أو التقصير فيما يجب من ذكرِكَ وشكرِكَ وعبادتك ؛ بأن تستر ذلك علينا ، وتجعله بعفوك كأنه لم يصدُر عنا ، وارحمنا برحمتك الخاصة فوق ما شملت به الخلق كلّهم من رحمتك العامة ، وأنت خيرُ الغافرين حلماً وكرماً وجوداً ، فلا يتعاطمك ذنبٌ ، ولا يُعارضُ غفرانك ما يُعارضُ غفران سواك ؛ من عجزٍ أو ضعفٍ أو هوى .

فأجاب الكريم سبحانه اعتذار موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** عن قومه ، وأحياءهم من بعد موتهم ، وغفر لهم ^(١) .

من خلال الآيات ندرِك ما يلي :

١ . أن الاعتذار من طلبٍ ما لا يليق إمّا أن يكون عن اجتهدٍ بنيةٍ صالحةٍ ؛ كما في طلبِ نوحٍ وموسى **عَلَيْهِمَا السَّلَامُ** ، وإمّا أن يكون عن تعنّتٍ وعنادٍ وسوء أدبٍ ؛ كما في طلبِ بني إسرائيل .

(١) ينظر : « تفسير المنار » (١٨٩ / ٩) .

٢ . أن من أسباب قبول الاعتذار المبادرة إليه عندما يتضح الخطأ ، كما ظهر لنا من حال الأنبياء في الآيات السابقة ؛ فقبل الله اعتذار نوح عليه السلام وهبط نوح عليه السلام إلى الأرض يصحبه السلام والبركة من الله ، مُسلماً من المكاره ، ومباركاً عليه ، وقد شملت البركة من كان معه في السفينة ؛ ﴿قِيلَ يَنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمُرٌ سَنَتَعْمُرُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨] ، وقبل الله تبارك وتعالى اعتذار موسى عليه السلام ، وأعطاه خيراً كثيراً ؛ ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَىٰ فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤] ، فعفا الله عن زلتيهما ، وأفاض عليهما من جوده ، وهذا شأن الكريم سبحانه ؛ فقد أفاض عليهما من بحار جوده ما هو فوق العفو عنهم .

٣ . أن نوحاً عليه السلام كسا الاعتذار حلة جديدة ، وتفرّد بها في القرآن ؛ حينما قدّم المستقبل على الماضي في اعتذاره ، فاستجار بلطف الله فيما هو آتٍ ، ثم اعتذر ممّا فات ، وذلك يدلّ دلالة أكيدة وواضحة على صدق الندم ، والعزم على عدم العودة إلى ما كان منه .

٤ . أن من له وجهة أو قيادة في القوم ، قد ينوب في الاعتذار عن غيره ؛ استشفاعاً بوجهاته ، أو لتعذر الاعتذار على المعتذر ، كما كان من موسى عليه السلام حينما هلك قومه ، كما بيّناه .

٥ . استعطاف المعتذر للمعتذر إليه ، في بيان الأسباب استجداءً للعفو والقبول ، كما في اعتذار موسى عليه السلام عن قومه .

المطلب الرابع

الاعتذار للجهل بالحال

نعلم جميعاً أنَّ الإنسان ليس معصوماً ، فقد يقع منه الخطأ والتقصير ، أو عدمُ الإتيان بالمرجوِّ منه والمأمول ، بتعمد ذلك أو بتصورِ الشيء على خلافِ ما هو عليه وهو الجهلُ ، وخيرُ سبيلٍ للخروجِ تقديمِ الاعتذارِ من ذلك ، وفي القرآن أمثلةٌ من تقديمِ الاعتذارِ عندَ الجهلِ بالحالِ .

من ذلك ما جاء في سورة آل عمرانَ من قصةِ مريمَ عليها السلامُ ، فقد نذرت امرأةُ عمرانَ ما في بطنها خالصاً لخدمةِ بيتِ المقدسِ : ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران : ٣٥] ، اعتقاداً منها أنَّ ما في بطنها ذكرٌ ، فلما وضعت حملها ، إذا به أنثى ، والأنثى لا تصلحُ لما يصلحُ له الذكرُ ؛ لما يجري عليها من أمورِ الطبيعةِ ، فقالت اعتذاراً لله : ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ [آل عمران : ٣٦] ، تحزناً وتحسراً على خيبةِ رجائها ، فقد كانت ترجو أن تلدَ ذكراً ؛ ليفي بنذرِها ، ثم أكدت اعتذارها بقولها : ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ [آل عمران : ٣٦] ، في صلاحيةِ الخدمةِ لبيتِ المقدسِ^(١) ، ثم أتبعَتْ اعتذارها بقولها : ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران : ٣٦] ، تقرُّباً إلى الله سبحانه ، عسى أن يكونَ فعلُها مطابقاً لمعنى اسمِها ؛ فإنَّ معنى « مريمَ » خادمُ الربِّ بلغتهم ، فهي وإن لم تكن صالحةً لخدمةِ الكنيسةِ ،

(١) ينظر : «إرشاد العقل السليم» لأبي السعود (٢٨/٢) و«فتح القدير» للشوكاني (١/٣٨٤) و«التحرير والتنوير» لابن عاشور (٣/٢٣٣) .

فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات ، فتقبلها ربُّها بقبول حسنٍ ، وسلَّك بها مسلك السعداء^(١) .

وبعد هذا المثال في الاعتذار عند الجهل بالحال الذي تظهر عليه أدلة الصديق والإخلاص ، نجد في القرآن مثالا آخر على النقيض منه في سلامة المقصد وحسن المقال ، وذلك فيما اتفق عليه أشقياء قوم صالح وما تأمروا عليه : ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل : ٤٩] ، فقد تمحضت قلوب الرهط التسعة أي النفر التسعة بالفساد والإفساد بالمدينة ، وضاعت نفوسهم بدعوة نبيهم صالح **عليه السلام** ، فعقدوا العزم على قتله ليلاً ، ودبروا العذر لذلك بتجاهل الأمر عند سؤال أوليائه عنه : ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ ، أي ما علمنا بشيء من أمره فضلاً عن أن نتولى قتله وإهلاكه ، وإننا لصادقون فيما ذكرناه ، ولكنهم يمكرون ويمكر الله ، فينزل بهم العذاب ، وتحل عليهم النعمة من الله ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُّكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل : ٥١] ، وهكذا تدور الدوائر ، ويحل الشرُّ بأهل المكر والخداع ، فلا تغني عنهم حجة منمّقة ولا عذر كاذب^(٢) .

(١) ينظر : « فتح القدير » للشوكاني (١ / ٣٨٤) و« تفسير المنار » لرشيد رضا (٣ / ٢٣٨) و« الجدول في إعراب القرآن » لمحمود صافي (٣ / ١٦٣) .

(٢) ينظر : « النكت والعيون » للماوردي (٤ / ٢٢٠) و« الكشف » للزمخشري (٣ / ٣٧٢) و« زاد المسير » لابن الجوزي (٣ / ٣٦٦) و« أنوار التنزيل » للبيضاوي (٤ / ١٦٣) .

من خلال الآيات ندرك ما يلي :

١ . اللبيب الموفق مَنْ إذا جهَلَ بادرَ واعترفَ ، وتأسَّفَ واعتذرَ ، وأظهرَ الندَمَ الصادقَ كما كانَ من امرأةِ عمرانَ عندما تبيَّنَ لها أنَّ حملَها لا يصلحُ لنذرِها ، فبادرتْ بالاعتذارِ عن إتمامِ نذرِها مع أنَّ الأمرَ في حقِّها مندوبٌ وليسَ واجبًا ، ولكنَّه الجمالُ في الأدبِ والسموُّ في الأخلاقِ .

٢ . الفرقُ الشاسعُ والبونُ الواسعُ فيمنَ يبنيَ عذرَه على الجهلِ وعدمِ العلمِ ، ومنَ يبنيه على التجاهلِ فيُري من نفسه عدمَ العلمِ وهوَ خلافُ ذلكَ^(١) ، فالأولُ مبنيٌّ على الصدقِ وهوَ فضيلةٌ ، والثاني مبنيٌّ على الكذبِ وهوَ رذيلةٌ .

٣ . ما سلَّكه الرهطُ من قومٍ صالحٍ حيلةٌ وعذرٌ ساذجٌ في التظاهرِ بالجهلِ عندَ إهلاكِ نبيِّهم صالحٍ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** ؛ ليبرِّروا موقفَهم ويتخلصوا من أولياءِ دمٍ صالحٍ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** .

٤ . ختمَ الرهطُ عذرَهم بقولهم : ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ كما ختمَ أبناءُ يعقوبَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** عذرَهم لأبيهم بقولهم : ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف : ١٧] ، فالكاذبُ دائماً يحرصُ أشدَّ الحرصِ على أن يزكِّيَ كذبه بمثلِ هذه الإدعاءاتِ .



(١) « الصحاح » للجوهري (٤/ ١٦٦٣) مادة (جهل) .

المطلب الخامس

الاعتذار بالنسيان

الأيام كفيلةٌ بتعرُّضِ الإنسانِ للنسيانِ ؛ إمَّا بسببِ الإعراضِ وعدمِ المبالاةِ ، فيخرجُه ذلك عن الصوابِ ويوقعُه في الملام ، وإمَّا بحكمِ الطبيعةِ البشريةِ ، فلا يكونُ في ذلك لومٌ على الإنسانِ ، إلا أنَّ النسيانَ وسيلةٌ من وسائلِ إبليسَ ، قد يؤخِّرُ به منفعةً أو يُفسِدُ به مصلحةً ، فحريُّ بالإنسانِ أن يُبادِرَ بالاعتذارِ ليُصلِحَ ما كان ، ولهذا النوعِ من الاعتذارِ صُورٌ في القرآنِ ، جاءت متكررةً في سورةِ الكهفِ ، التي زَخَرَتْ بكثيرٍ من المعاني ، في قِصَصٍ هادفةٍ لم تتكرَّرَ في القرآنِ ، تصحيحًا للمفاهيمِ ، وتأصيلًا للقيمِ .

ففي قصةِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فتاهُ ، يقدِّمُ الفتى اعتذارَه بالنسيانِ ، خروجًا من الخطأ الذي وَقَعَ فيه ؛ ذلك أنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد أن يطوفَ في الأرضِ للقاءِ مَنْ هو أعلمُ منه ، للاستزادةِ من العلمِ ، وقد كانت رحلةً مليئةً بالعجائبِ ، يكسوها الإصرارُ والعزيمةُ الصادقةُ في طلبِ العلمِ ، مهما كلفه الأمرُ من عناءٍ ومشقةٍ ، ومهما أمضى من وقتٍ في سبيلِ هذا المقصدِ السامي ؛ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠] ، فانطلق موسى وفتاه^(١) ، وإنما سُمي فتى موسى لأنه كان يخدمُه وَيَتَّبَعُه ويتعلَّمُ منه ،

(١) فتى موسى: هو يوشع بن نون بن أفرائيم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وقد ذكره الله تعالى في القرآن غير مصرح باسمه في قصة الخضر كما

وقد لقّن فتاه الهمة العالية في طلب العلم ، انطلقا إلى مجمع البحرين^(١) ، وهو المكان الذي أُوحي إليه : أنك ستجد فيه عبداً من عباد الله العالمين ، عنده من العلم ما ليس عندك ، فلماً بلغا مجمع البحرين جَعَلَا يسيران فيه ، والماء مثل الطاق لا يلتئم بعدهما ، وكان معهما حوتٌ يتزودان منه ويأكلان ، وقد وُعد موسى أنه متى فقَد الحوتَ فثَمَّ ذلك العبد الذي قصده ، فلماً وصلا إلى ذلك المكان ، أصابَ الحوتَ بللُ البحر ، فانسَرَبَ بإذن الله في البحر ، وصار مع ما فيه من مخلوقاتٍ حيّاً ، ونسي فتى موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أن يُخبر موسى بذلك ، فلماً جاوزا ذلك المكان المقصودَ من مجمع البحرين ، سارا بقيةَ يوميهما وليلتئما حتى إذا كان من الغداة ارتفع النهارُ أحسَّ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** بالجوع ، حينئذٍ قال لفتاه : آتِنَا غداءنا ؛ لقد لقينا تعباً ونصباً من ذلك السفر .

وقد كان من الحكمة الربانية حصولُ الجوع والتعب له حين جاوزَ المكان ،

تقدم من قوله : (وإذ قال موسى لفتاه) وثبت في « الصحيح » من رواية أبي بن كعب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أنه يوشع بن نون . « البداية والنهاية » لابن كثير (٣١٩ / ١)
والفتى في الآية هو الخادم ، ويقال : هو ابن أخت موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** . وقيل : إنما سمي فتى موسى لأنه لزمه ليتعلم منه وإن كان حراً ، وهذا معنى الأول . وقيل : إنما سماه فتى لأنه قام مقام الفتى وهو العبد ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِفَتَىكَ أَجْعَلُوا بِضَعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ [يوسف : ٦٢] ، قال ابن العربي : « فظاهر القرآن يقتضي أنه عبد ، وفي أنه كان يوشع بن نون . وفي (التفسير) أنه ابن أخته ، وهذا كله مما لا يقطع به ، والتوقف فيه أسلم » . « الجامع لأحكام القرآن » (١١ / ١١) .

(١) مجمع البحرين : المجمع : مصدر من قولهم : جمع يجمع . وهو ملتقاهما . وفي تحديده عدة أقوال : قال قتادة : وهو بحر فارس والروم ، وقيل : طنجة : التقاء البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي ، وقيل : هما بحر الأردن وبحر القلزم ، وقال بعض أهل العلم : هو بحر الأندلس ، قال القرطبي : وهذا مما يذكر كثيراً . « الجامع لأحكام القرآن » (٩ / ١١)
انظر : « جامع البيان » للطبري (٥٥ / ١٨) و « أطلس الحديث النبوي » لشوقي أبو خليل (٣٢٩) .

ليطلب الغداء ، فيذكر الحوت فيرجع إلى حيث يجتمع بمن يريد ، حينها قدم فتى موسى اعتذاره ؛ ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣] ، أي : أرايت حين التجأنا وأوينا إلى الصخرة وأقمنا عندها؟^(١) ، وذكر الإيواء تمهيداً للعدر ؛ فإن الإيواء إليها والنوم عندها مما يؤدي إلى النسيان عادةً ، والرؤية هنا مستعارة للمعرفة التامة والمشاهدة الكاملة ، ومراده بالاستفهام تعجب موسى **عَلَيْهِ السَّلَام** مما اعتراه هناك من النسيان ، مع كون ما شاهدته من العظام التي لا تكاد تُنسى ، وقد جعل فقدانه علامة لوجدان المطلوب ، ثم قدم اعتذاره من النسيان بشغل الشيطان له بوساوسه ، وإلقاء الخواطر في قلبه ، بجملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه ، فقوله تعالى : ﴿وَلَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ ، تنمة لقوله : ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ .

وأما الجملة التي بينهما : ﴿وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ فهي اعتراضٌ قدم عليه للاعتناء بالاعتذار ، وهكذا بادر الفتى بالاعتذار من النسيان الذي ألم به من الشيطان ، فذهب بفكره كل مذهب ، حتى اعتراه النسيان ، لعله يحظى بتأخير المصلحة وإن لم يستطع إلغائها ، فتقبل موسى **عَلَيْهِ السَّلَام** اعتذاره بصدر رُحْب ، وتدارك الأمر بالرجوع متبعين آثار أقدامهما لتدارك المصلحة^(٢) .

(١) وذكر الإيواء إليها مع أن المذكور فيما سبق مرتين بلوغ مجمع البحرين لزيادة تعيين محل الحادثة ؛ فإن المجمع محل متسع لا يمكن تحقيق المراد المذكور بنسبة الحادثة إليه . « إرشاد العقل السليم » لأبي السعود (٢٣٣ / ٥) .

(٢) ينظر : « تفسير مقاتل بن سليمان » (٥٩٤ / ٢) و « الكشاف » (٧٣٣ / ٢) و « بحر العلوم »

وما زلنا نَتَنَسَّم شَدَى رَوْضِ سُوْرَةِ الْكَهْفِ ، وَنَقْتَطِفُ مِنْ جَنَاهُ ، فَبَعْدَ اعْتِذَارِ
 فَتَى مُوسَى بِالنَّسِيَانِ ، وَقَبُولِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ ، تَسْتَمِرُّ الْأَحْدَاثُ ، وَيَلْتَقِي
 مُوسَى بِالْخَضِرِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَتَّبِعَهُ وَيَتَعَلَّمَ مِنْهُ ، سُؤَالَ تَلَطُّفٍ لَا
 عَلَى وَجْهِ الْإِلْزَامِ وَالْإِجْبَارِ ، فَيَقْبَلُ الْخَضِرُ ذَلِكَ ، وَيَشْتَرِطُ عَلَى مُوسَى الصَّبْرَ
 وَتَرْكَ السُّؤَالِ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ وَإِنْ أَنْكَرَهُ حَتَّى يَكُونَ الْخَضِرُ هُوَ الَّذِي يَبَيِّنُ لَهُ أَمْرَهُ ،
 وَهَذَا مِنْ آدَابِ الْمُتَعَلِّمِ مَعَ الْعَالَمِ ، وَالْمَتَّبِعِ مَعَ التَّابِعِ ، فَيَقْبَلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
 شَرْطَ الصَّحْبَةِ مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَقَدْ أُوتِيَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَانِبًا مِنْ
 الْعِلْمِ اللَّدُنِّيِّ^(١) ، أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْقَدْرِ الَّذِي أَرَادَهُ ، وَعَلِمَ الْخَضِرُ أَنَّهُ لَا طَاقَةَ
 لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ ، فَاَنْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، فَمَرَّتْ
 بِهِمَا سَفِينَةٌ فَكَلَّمَاهُمَا أَنْ يَحْمِلُوهُمَا ، فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ تَوَلٍّ ، فَلَمَّا دَخَلُوا إِلَى
 لُجَجِ الْبَحْرِ خَرَقَ الْخَضِرُ السَّفِينَةَ حَتَّى دَخَلَهَا الْمَاءُ ، فَاَنْدَفَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
 مُسْتَنْكَرًا الْأَمْرَ : ﴿أَخْرَقْتُهَا لِتُعْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الْكَهْفُ : ٧١] ، وَنَسِيَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا قَالَهُ
 هُوَ وَمَا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ إِزَاءَ هَذَا التَّصَرُّفِ الْعَجِيبِ ، وَلَمْ يَسْتَطِعِ الصَّبْرَ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ
 الْفَعْلَةُ الشَّدِيدَةُ تُوجِبُ أَنْ يَنْسَى الْإِنْسَانُ مَا سَبَقَ لَشِدَّةِ مَا يَقَعُ فِي النَّفْسِ ، وَبَصِيرِ
 وَلَطْفِ يَذْكُرُهُ الْعَبْدُ الصَّالِحُ بِمَا كَانَ قَدْ قَالَ ابْتِدَاءً ، فَيَقْدُمُ مَنْ اسْتَجْمَعَتْ فِيهِ

للسمرقندي (٢/ ٣٥٣) و«مدارك التنزيل وحقائق التأويل» للنسفي (٢/ ٣١٠) و«إرشاد
 العقل السليم» لأبي السعود (٥/ ٢٣٣) و«روح المعاني» في تفسير القرآن العظيم والسبع
 المثاني» للآلوسي (٨/ ٢٩٩) و«التحرير والتنوير» لابن عاشور (١٥/ ٣٥٩).

(١) يقول ابن القيم : «والعلم اللدني ثمرة العبودية والمتابعة ، والصدق مع الله ، والإخلاص
 له ، وبذل الجهد في تلقي العلم» . «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين»

مُوجِبَاتُ الشرفِ اعتذارَه بتواضعِ المؤمنِ ، ويعتذرُ بنسيانِه لوعده من هولِ ما رأى ، ويزيدُ أنَّ هذه هفوةٌ فتجاوزَ لي عنها ، وخذني برفقي ، ولا تشددْ عليَّ^(١) .

يقولُ ابنُ عاشورٍ : « اعتذر موسى بالنسيانِ ، وكان قد نسي التزامَه بما غشي ذهنَه من مشاهدة ما يُنكرُه ، والنهيُ مستعملٌ في التعطُّفِ والتماسِ عدمِ المؤاخذه ؛ لأنه قد يؤاخذه على النسيانِ مؤاخذهً مَنْ لا يصلحُ للمصاحبة ؛ لِمَا يَنشأُ عن النسيانِ من خطرٍ ، فالحرَامةُ الاحترارُ من صحبة مَنْ يطرأُ عليه النسيانُ ، ولذلك بُني كلامُ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** على طلبِ عدمِ المؤاخذه بالنسيانِ ، ولم يُنَّ على الاعتذارِ بالنسيانِ ، كأنه رأى نفسه محققاً بالمؤاخذه ، فكان كلاماً بديعَ النسيجِ في الاعتذارِ »^(٢) ، وهكذا يقدِّمُ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** اعتذارَه بعزّةِ المؤمنِ وتواضعِه ، فيصحّ مساره وتستمرُّ صحبته للخضرِ **عَلَيْهِمَا السَّلَامُ** .

ويمثِّلُ هذا النهجَ القويمَ نبينا الكريمُ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ، حينما سها في الصلاة ، فاستفهمَ القومُ عن التغيُّرِ الذي حدثَ في الصلاة ، فأقبلَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** عليهم بوجهه واعتذرَ لهم من النسيانِ الذي حدثَ في الصلاة ، وقالَ : « إنما أنا بشرٌ مثلكم ، أنسى كما تنسونَ ، فإذا نسيْتُ فذكُّروني »^(٣) ، فيعترفُ بالنسيانِ ، ويعتذرُ منه بالطبيعة البشرية التي جُبِلَ عليها الإنسانُ .

(١) ينظر : « لطائف الإشارات » للقسيري (٤٠٨ / ٢) و « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (١٨٢ / ٥) و « الكشف » للزمخشري (٧٣٥ / ٢) و « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (١٨ / ١١) و « تيسير الكريم الرحمن » للسعدي (٤٨٢) و « التفسير القرآني » للخطيب (٦٥٤ / ٨) .

(٢) « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٣٧٦ / ١٥) .

(٣) أخرجه البخاري (٤٠١) و مسلم (٥٧٢) .

وهكذا الشريعة الربانية تُؤَصِّلُ القيمَ والمعاني الساميةَ، بأمثالٍ واقعيةٍ ونماذجٍ بشريةٍ، تتلاشى فيها الفروقُ وتثبتُ المعاني، فيعتذرُ الخادمُ للنبيِّ، ويعتذرُ النبيُّ للعبدِ الصالحِ، ويعتذرُ النبيُّ للقومِ، بعزةِ المؤمنِ وشموخه، من غيرِ أن ينقصَ من قدره، أو يحطَّ من قيمته .

وبما أننا تعرَّضنا لاعتذارِ الأنبياءِ بالنسيانِ، فمن المناسبِ أن نشيرَ إلى أنَّ وقوعَ النسيانِ من الأنبياءِ بغيرِ وسوسةٍ من الشيطانِ لا خلافَ في جوازه؛ قال تعالى لخاتمِ أنبيائه: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]، وقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف: ٧٣]، ولكنَّ اللهَ عصَمَهُم من نسيانِ شيءٍ مما أَمَرَهُم بتبليغِهِ؛ كإضاعةِ فريضةٍ، أو تحريمِ حلالٍ، أو تحليلِ حرامٍ، وإنساءِ الشيطانِ للإنسانِ بعضَ الأمورِ ليس من قبيلِ التصرُّفِ والسلطانِ حتى يدخلَ في مفهوم^(١) قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩] .

ومن هذا نعلمُ أنَّ النسيانَ لا يُعَدُّ من سلطانِ الشيطانِ على الناسِ واستحواذه عليهم بالإغواءِ والإضلالِ الذي نفاه اللهُ عن عبادهِ المخلصين، لكن يحسنُ أو يجبُ في بعضِ الحالاتِ الاعتذارُ منه، لكونه ضارًّا أو مفوِّتًا لبعضِ المنافع .

من خلال الآيات ندرُك ما يلي :

١ . جاءتْ نصوصُ القرآنِ بأمثلةٍ واقعيةٍ تخاطبُ العقلَ وتلامِسُ الحسَّ؛ لتربِّي الإنسانَ على المبادئِ الساميةِ، التي يَسْتَوِي فيها البشرُ وإن علَّتْ

(١) ينظر: «تفسير المراغي» (١٦٠ / ٧) .

مقاماتهم ، فنجد في النصوص السابقة أمثلة واقعية في الاعتذار تنوع فيها الأشخاص وثبتت فيها المبادئ ؛ فاعتذر الخادم للنبي ، واعتذر النبي للعالم واعتذر النبي للقوم .

٢ . النسيان من الإنسان أمرٌ جبليٌّ ، ولكنه وسيلةٌ من وسائل إبليس ، يحسن الاعتذار منه ، لتدارك ما وقع بسببه من مفسدة ، أو ضاع بسببه من مصلحة .

٣ . أن المبادرة بالاعتذار سببٌ لقبوله ، كما بادر فتى موسى بالاعتذار من نسيانه ، فعفا عنه موسى **عليه السلام** ، مع تأخير المصلحة المتعلقة بذلك .

٤ . يجدر التلطف في الاعتذار من النسيان ، خاصة في الأمور التي يصعب الاعتذار فيها بالنسيان ، كالأمور المتعلقة بالمصاحبة ؛ لما يترتب عليه من مفسد ، كما سبق بيانه من كلام ابن عاشور .

٥ . أن الاعتذار من صفات النبلاء ، يزداد به جمال النفوس ، وتدوم به العلاقات ، كما أن قبوله من صفات الكرماء ؛ قبله موسى من فتاه ، وقبله الخضر من موسى **عليهما السلام** .





المبحث الثالث

أنواع الاعتذار من حيث القبول والرد

شيءٌ طبعيٌّ أن نُخطئ ، فلا عصمة لأحدٍ من الخطأ ، حتى لو تحررنا الحرصَ بإيقاظِ كل الجوارحِ كلِّ الوقت ، ولو كان ذلك مُمكنًا ما فتحَ اللهُ بابًا لتوبة أمام مُذنب ، ولما فتحَ قلوبَ الخلق بالصَّفح والتسامح أمام مُخطئ ، فإن زلَّت قدَمُ بذنبٍ محاه لطيفُ الاعتذار ؛ ليعيدَ ما كان ، وذلك في المواقف التي منشؤها تعمُدُ الأخطاء ، أمّا في المواقف التي يُتوهم فيها الخطأ ، فإنَّ الاعتذار يأتي توضيحًا للموقف ، أو بيانًا للقصد ، والسنةُ حافلةٌ بالمواقف والأمثال من ذلك .

فمنه ما جاء عن الأنصارِ عند فتحِ مكة ، فقد توقَّعوا ميلَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للإقامة مع قومه في مكة بعد الفتح ، فقالوا : أمّا الرجلُ فأدركته رغبةٌ في قريته ، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « كلاً ، إني عبد الله ورسوله ، هاجرتُ إلى الله وإليكم ، فالمَحْيَا محياكم ، والمَمَاتُ مماتكم » ، فأقبلوا إليه يبيكون ، ويعتذرون بأنهم قالوا ما قالوه لحرصهم على إقامة معهم في المدينة ، فقالوا : والله ما قلنا الذي قلنا إلا لرضنَّ بالله ورسوله ، فقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « فإنَّ الله ورسوله يُصدِّقانكم ويعذرانكم »^(١) ، فقد أوضحوا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حسن مقصدِهِم ، فعفا عنهم وعذَرَهُم .

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٠)

وكما تختلف معاني الاعتذار في وقوعه ، كذلك يختلف الاعتذار في قبوله وردّه ، بحسب ما يحمله من معانٍ ومقاصد ، وهذا ما سيأتي بيانه في هذا المبحث من خلال الآيات القرآنية الواردة في الاعتذار .

وفي هذا المبحث مطلبان :

المطلب الأول : الاعتذار المقبول .

المطلب الثاني : الاعتذار المردود .



المطلب الأول

الاعتذار المقبول

هو ذاك الفعل النبيل الذي تُداوئ به القلوب المكسورة، والكرامة المجروحة، ويُصلح العلاقات المتصدعة، وتثبت به البراءة، ويُعيد الميأة إلى مجاريها، ويبقي المجتمع من سوء الظن، وتدفع التهم، ويوصل الإنسان إلى مُبتغاه، فيحمل الاعتذار كل تلك المعاني الجميلة، بقلب يملؤه التواضع والعزم والنية الصادقة.

من ذلك النوع اعتذار موسى عليه السلام حينما ناداه ربُّه بالوادي المقدس طوى^(١)، وأمره أن يدعو فرعون وقومه؛ الذين استعبدوا بني إسرائيل، وذبحوا أبناءهم، وظلموا أنفسهم بالكفر، فأجاب نداء ربِّه إجابة المعتذر: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴿ [الشعراء: ١٣، ١٢].

(١) الوادي المقدس طوى: وادي بالشام عند الطور، والمقدس: المطهر، قال الجوهري: وطوى اسم موضع بالشام، تكسر طاؤه وتضم، وقد اختلف المفسرون في معنى طوى وهو بضم الطاء وبكسرهما، ولم يقرأ في المشهور إلا بضم الطاء، ف قيل: اسم لذلك المكان، قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما اسم الوادي، وقيل: هو اسم مصدر مثل هدى، وصف بالمصدر بمعنى اسم المفعول، أي طواه موسى بالسير في تلك الليلة.

ينظر: «الصحاح»، (٢٤١٦/٦) مادة (طوى) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٧٥/١١) و«معجم البلدان» للحموي (٤٤/٤) و«التحرير والتنوير» لابن عاشور (١٩٧/١٦)

يقول السعدي **رَحْمَةُ اللَّهِ** : « قالها موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** معذراً من ربه ، ومبيناً لعذره ، وسائلاً له المعونة على هذا الحمل الثقيل » ، فاعتذر موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** بخوفه ألا ينطلق لسانه ؛ لما أصابه من الحُبْسَةِ لتلك الجَمْرَةِ التي أصابته في طفولته ، فإذا وقع التَكْذِيبُ له ضاق قلبه ، وانقبضت رُوحُه إلى باطنه ، فازدادت الحُبْسَةُ ، فَمَسَّتِ الحاجةُ إلى مُعِينٍ يُقَوِّي القلبَ فيُعِينُ على إطلاقِ اللسانِ ، فكان موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** النبي الوحيد الذي سأل لأخيه النبوة ، لا لأجل الدنيا ، بل ليكونَ عضداً له يتقوى به في الدعوة ، وقد ثبت في غير هذا الموضع التصريحُ بذلك في سورة طه : ﴿وَجْعَلْ لِي وَزيراً مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه : ٢٩] ، وفي القصص : ﴿وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص : ٣٤] ؛ ليفيد من فصاحة لسانه وقوة بلاغته ، إذ كان يعترفُ لأخيه بذلك ، وهكذا علّمنا الكليمُ كيف يعرفُ الإنسانُ نفسه ، وكيف تنهضُ الدعوةُ به ، وأن يكونَ كلُّ في موقعه الصحيح ، فقد كان عذره اتقاءً للتقصيرِ في الدعوة ، لا نُكوصاً عنها ، ويتابعُ موسى اعتذاره الذي يكسوه الخوفُ على الرسالة ؛ فيقول : ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء : ١٤] ، فاعتذاره هذا ليس خوفاً من المواجهة ولا تخلياً عن التكليف ، ولكن له علاقةٌ بالإرسالِ إلى هارون ، فإذا قتلوه قام هارون بالرسالة من بعده^(١) .

(١) ينظر : « جامع البيان » للطبري (٣٣٧ / ١٩) و « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (٩٢ / ١٣) و « نظم الدرر » للبقاعي في تناسب الآيات والسور » للبقاعي (١٦ / ١٤) و « فتح القدير » للشوكاني (١١١ / ٤) .

يقول سيد قطب: « هو الاحتياطُ للدعوة لا للداعية ، الاحتياطُ من أن يحتبسَ لسأئه في الأولى وهو في موقفِ المنافحةِ عن رسالةِ ربِّه وبيانها ، فتبدو الدعوةُ ضعيفةً قاصرةً ، والاحتياطُ من أن يقتلوه في الثانية فتتوقف دعوةُ ربِّه التي كُلِّفَ أدائها ، وهو على إبلاغها واطرادها حريصٌ ، وهذا هو الذي يليقُ بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي صَنَعَهُ اللهُ عَلَى عَيْنِهِ ، واصْطَنَعَهُ لِنَفْسِهِ »^(١) .

فقبلَ اللهُ مِنْهُ اعتذارَهُ ، وأجابَهُ إلى ما طَلَبَ ، وأرسلَ هَارُونَ مَعَهُ ، وزادَهُ بالمعِيةِ الربَّانيةِ تَحَوُّطَهُ ، فهو مَعَهُ سَبْحَانَهُ يَسْمَعُ وَيَرَى ؛ ﴿قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبَا بَيِّتِنَا^٣ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء : ١٥] ، للتعبيرِ عن دَقَّةِ الرِّعَايَةِ وحُضُورِ المَعُونَةِ بالنصيرِ ، والتأييدِ والغلبةِ في كلِّ موقِفٍ .

وفي قصةِ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إشاراتٌ في الاعتذارِ المقبولِ ، ذلكَ حينما خرجتِ العيرُ من مصرَ ، حاملةً مَعَهَا قميصَ يوسفَ ، فقال يعقوبُ : إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يوسفَ لولا أَن تَقُولُوا : أبونا شيخٌ خَرِفٌ ، وذلكَ لِعِظَمِ رجائه بمولاهُ ، وإذا دنا أَجَلَ الضَّرَّاءِ ، يدري بذلكَ كُلُّ مَنْ عَظُمَتْ فِطْنَتُهُ واستنارتْ بصيرتُهُ ، فَيَلْمَسُ في نهايةِ الشدةِ زَهَرَ الفرجِ ، فإذا بالبشيرِ يأتي بمفاجأةِ القميصِ ، وهو دليلٌ على يوسفَ وقربِ لُقْيَاهُ ، فيرتدُّ إلى يعقوبَ البصرُ ، وهنا يُذَكِّرُ يعقوبُ بنيه بما أَخْبَرَهُمْ بِهِ مِنْ قَبْلُ ؛ مِنْ أَنَّ اللهَ سَيَرُدُّ إِلَيْهِ ابْنَهُ ، حينها أَحَسَّ إخوةُ يوسفَ بِعِظَمِ الذَّنْبِ ، وهو أولُ طريقِ الاعتذارِ ، وَندِمُوا عَلَى ما فَعَلُوا ، وَقَدَّمُوا اعتذارَهُمْ بِنداءِ

(١) « في ظلال القرآن » (٥ / ٢٥٩٠) .

الأبوة ، استعطافاً لأبيهم ، علَّ ذلك يمحو عظيمَ جُرمهم : ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [يوسف : ٩٧] ، وأقروا بذنبهم : ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف : ٩٧] ، أي : متعمدين للإثم بما ارتكبنا في أمرِ يوسفَ ، ولهذا آثروا التعبيرَ بـ «خاطئين» لتعمدِهم للفعل^(١) ، قالوا : يا أبانا اسألِ الله أن يغفرَ لنا ذنوبنا التي اجترحناها ؛ من عقوبك وإيذاء أخويننا ، إِنَّا كُنَّا متعمدين لهذه الخطيئة ، عاصينَ لله ، ظائنين أن نكونَ بعدها قومًا صالحين ، فاعترفوا بذنبهم كما اعترفوا ليوسفَ من قبلَ ، لكنَّ يوسفَ بادرَ إلى الاستغفارِ لهم وهم لم يطلبوه منه ، أما أبوهم فقد قبلَ اعتذارهم ؛ بدليلِ وعده لهم بالاستغفارِ في مستقبلِ الزمانِ ، وعلَّلَ هذا بأنَّ ربَّه واسعُ المغفرةِ والرحمةِ ، لا ينقطعُ رجاءُ المؤمنِ فيه وإنْ ظلمَ وأساء^(٢) ، فأجابهم يعقوب **عليه السلام** إجابةَ الأبِ الكريمِ الحكيمِ : ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف : ٩٨] ، فقبلَ اعتذارهم وأخَّرَ الاستغفارَ لهم ، لحكمةٍ أرادها **عليه السلام** .

(١) خاطئين : قال أبو عبيدة : خطيئٌ خطئاً من بابِ علمٍ ، وأخطأ : بمعنى واحد ؛ لمن يُذنب على غيرِ عمدٍ . وقال غيره : خطيئ في الدين ، وأخطأ في كل شيء ؛ عامداً كان أو غيرَ عامدٍ . وقيل : خطيئ إذا تعمَّد ما نُهي عنه ، فهو خاطي ؛ وأخطأ إذا أراد الصوابَ فصار إلى غيره ، فإن أراد غيرَ الصوابِ وفعله قيل قَصَّده أو تعمَّده . ينظر : « تهذيب اللغة » للأزهري (٢٠٧ / ٧) مادة (خطأ) ، و « المصباح المنير » للفيومي (١٧٤ / ١) مادة (خطو)

(٢) ينظر : « جامع البيان » للطبري (٢٦١ / ١٦) و « المحرر الوجيز » لابن عطية (٢٨٠ / ٣) و « الجواهر الحسان في تفسير القرآن » للثعالبي (٣٥١ / ٣) و « نظم الدرر » للبقاعي (٢١٥ / ١٠) و « إرشاد العقل السليم » لأبي السعود (٣٠٦ / ٤) و « فتح القدير » للشوكاني (٦٥ / ٣) .

يقول المراغي: « والفارق بين جواب يعقوب وجواب يوسف من وجوه كثيرة اقتضتها الحكمة:

١- أن حال أبيهم معهم حال المرابي المرشد للمذنب، لا حال المنتقم الذي يخشى أذاه، وليس من حسن التربية ولا من طرق التهذيب أن يريهم أن ذنبهم هيئ لديه حتى يعجل بإجابة مطلبهم بالاستغفار لهم.

٢- أن ذنبهم لم يكن موجهاً إليه مباشرة، بل موجهً إلى يوسف وأخيه، ثم إليه بالتبع وال لزوم، إلا أنه ليس من العدل أن يستغفر لهم إلا بعد أن يعلم حالهم مع يوسف وأخيه، ولم يكن يعقوب قد علم بعفو يوسف عنهم واستغفاره لهم.

٣- أن هذا ذنب كبير وإثم عظيم طال عليه الأمد، وحدثت منه أضرار نفسية وخلقية، وأعمال كان لها خطرُها، فلا يمحى إلا بتوبة نصوح تجتث الجذور التي علقت بالأنفس، والأرجاس التي باضت وأفرخت فيها.

فلا يحسن بعدئذ من المرابي الحكيم أن يسارع بالاستغفار للمقتري عقب طلبه، حتى لا يرى ما اقترفه من هيئات الأمور التي تُغفر ببادرة من الندم، ومن ثم تلبث يعقوب **عليه السلام** في الاستغفار لهم إلى أجل، ليُعلمهم عظيم جرمهم، ويُعلمهم بأنه سوف يتوجه إلى ربّه ويطلبُ لهم الغفران منه بفضلِهِ ورحمته^(١).

(١) ينظر: « تفسير المراغي » (١٣ / ٤٠).

وفي اعتذار الهدهد لسليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** معانٍ جميلةً للاعتذار المقبول، ذلك أنه بعد خروج سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، بموكبه المهيّب، وتنظيمه الدقيق، وقيادته الراشدة، ومروره بوادي النمل؛ أخذ يتفقد أحوال الرعية، فافتقد سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** الهدهد من الطير، وفي هذا ما يدل على كمال حزمه، وتدبيره للملك بنفسه، وكمال فطنته، حتى فقد هذا الطائر الصغير، ﴿وَفَقَدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠]، فهل عدم رؤيتي إيّاه بسبب قلة فطنتي له؛ لكونه خفيًا بين هذه الأمم الكثيرة؟ أو على بابها بأن كان غائبًا من غير إذني ولا أمري؟ فلما تبين له تغيبه تعيظ عليه وتوعده فقال: ﴿لَا عُدْبَتَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذْبَحْتَهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ٢١]، فعزم سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أن يعذب الهدهد عذابًا شديدًا، أو يذبحه إن لم يأت بحجة واضحة على تخلفه، وهذا من كمال إنصافه؛ أنه لم يقسم على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل؛ لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب، وغيبته تحتمل أنها لعذر واضح، فلذلك استشاه؛ لورعه وفطنته.

فمكث الهدهد غير بعيد بعد التهديد، وجاء بعذره السديد، وقدمه بشجاعة وذكاء أمام الحشد الغفير، فبدأه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته، وتضمن إصغاء قلب سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** له فقال: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].

يقول أبو السعود: «ابتداء كلامه بذلك لترويعه عنده **عَلَيْهِ السَّلَامُ** وترغيبه في الإصغاء إلى اعتذاره، واستمالة قلبه نحو قبوله؛ فإن النفس للاعتذار المُنْبِئ عن أمر

بديعٍ أَقْبَلُ ، وإِلَى تَلَقَّيْ مَا لَا تَعْلَمُهُ أَمِيلُ»^(١) ، ثم أَيْدَ ذَلِكَ بِإِفْصَاحِهِ أَنَّ الْخَبَرَ يَقِينٌ وَلَيْسَ مَجْرَدُ أَقَاوِيلَ ، وَبَعْدَ أَنْ اسْتَمَالَ الْقُلُوبَ وَالْأَسْمَاعَ ، سَرَدَ عَذْرَهُ فِي التَّأْخِيرِ ، بَأَنَّهُ وَجَدَ امْرَأَةً تَمْلِكُ وَلايَةً كَبْرَى ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ، وَفَوْقَ كُلِّ هَذَا فَقَدْ قَابَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ بِالنِّكَرَانِ وَالْجُحُودِ ، وَعَبَدُوا الشَّمْسَ وَتَرَكَوا عِبَادَةَ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ ، وَقَدْ حَسَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمُ الْقَبِيحَةَ ، وَمَنَعَهُمْ طَرِيقَ الْهُدَى ، وَهَذَا أَرَادَ سَلِيمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَتَحَقَّقَ مِنْ عَذْرِهِ ، الَّذِي اهْتَرَّتْ لَهُ مِشَاعِرُهُ^(٢) .

يَقُولُ الطَّبْرِيُّ : « قَالَ سَلِيمَانُ لِلْهَدِيدِ : سَنَنْظُرُ فِيمَا اعْتَذَرْتَ بِهِ مِنَ الْعَذْرِ ، وَاحْتَجَجْتَ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لَغَيْبَتِكَ عَنَّا ، وَفِيمَا جِئْتَنَا بِهِ مِنَ الْخَبَرِ ؛ أَصَدَقْتَ فِي ذَلِكَ كُلَّهُ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ »^(٣) ، فَكَيْفَ يَكُونُ فِي زَمَانِهِ مَنْ يَسْجُدُ لِلشَّمْسِ ، وَهُوَ الَّذِي بُعِثَ بِدَعْوَةِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ ، وَيَسْتَوْتِقُ سَلِيمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْخَبَرِ ، وَيَقْبَلُ الْاعْتِذَارَ بَعْدَ الْامْتِحَانِ لِذَلِكَ وَالْاخْتِبَارِ .

يَقُولُ الْقَاسِمِيُّ : « إِنْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ قَبُولَ الْوَالِي عَذْرَ رَعِيَّتِهِ ، وَدَرَّءَ الْعُقُوبَةَ عَنْهُمْ ، وَامْتِحَانَ صَدَقَتِهِمْ فِيمَا اعْتَذَرُوا بِهِ »^(٤) .

(١) « إرشاد العقل السليم » (٦ / ٢٨٠) .

(٢) ينظر : « جامع البيان » للطبري (١٩ / ٤٥٠) و« تيسير الكريم الرحمن » للسعدي (٦٠٤) و« أضواء البيان » للشنقيطي في إيضاح القرآن بالقرآن « للشنقيطي (٨ / ٨) و« روح المعاني » للآلوسي (١٠ / ١٨٢) .

(٣) « جامع البيان » (١٩ / ٤٥٠) .

(٤) « محاسن التأويل » (٧ / ٤٩٥) .

من خلال الآيات ندرك ما يلي :

١ . قد يَعْتَذِرُ الإنسانُ من عملٍ ما قبلَ الشروعِ فيه ، للموانعِ التي تمنعُه من إتقانِه ، كما اعتذرَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من تركِ الخروجِ لدعوةِ فرعونَ وحدهِ للأسبابِ التي بيّناها آنفاً ، وقد قبلَ اللهُ اعتذارَه وأَيَّدَه بعنايته .

٢ . من العدلِ والإنصافِ عدمُ إيقاعِ العقوبةِ علىِ المخطئِ حتى يُنظرَ في العذرِ ، كما أقرَّ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ عقوبةَ الهدهدِ حتى تتحقَّقَ من عذرِه .

٣ . امتحانُ صدقِ العذرِ المقدمِ من سُنَنِ المرسلين ؛ فقد امتحنَ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ عذرَ الهدهدِ قبلَ قبولِه ، وهكذا ينبغي الثبُتُ من العذرِ ، خاصَّةً في الأمورِ التي ينبنى عليها مصالحُ ومفاسدُ عظمى .

٤ . قد يكونُ من الحكمةِ تأخيرُ قبولِ العذرِ ، كما أقرَّ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قبولَ عذرِ بَنِيهِ للمصالحِ المتعلقةِ بذلك ، فيجدُرُ بالمرَبِّي الحكيمِ ألا يُسارعَ إلى العفوِ عن المذنبِ ، في الأخطاءِ الفادحةِ ؛ حتى يعيشَ المذنبُ خطورةَ ذنبِه ، فيتعظَّ في نفسه ، ويتعظَّ به غيره .

٥ . من موجِّباتِ قبولِ الاعتذارِ :

❁ الصدقُ في الاعتذارِ ؛ وهو من أهمِّ أسبابِ القبولِ ؛ فقد قبلَ اللهُ اعتذارَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا علِمَ صدقَه ، فأرسلَ معه هارونَ ، وزادَه سبحانه المعيةَ الربانيةَ فوقِ إرسالِ هارونَ معه ، فإنَّ قبلَ الإنسانِ الاعتذارَ ؛ فإنه يحسُنُ به أن يُكرِمَ المعتذِرَ إن لَمَسَ صدقَه ، وهذا فعلُ الكرماءِ .

❁ التلطفُ في الاعتذارِ من مُوجِبَاتِ قَبُولِهِ ، كما نادى موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** رَبَّهُ
 بنداءِ الربوبيةِ ، تلطفًا معه سبحانه ، فقبلَ اعتذارَه ، ونادى أبناءُ يعقوب **عَلَيْهِ السَّلَامُ**
 أباهم بنداءِ الأبوةِ لاستعطافِهِ واستمالةِ قلبِهِ .

❁ الإحساسُ والاعترافُ بعِظَمِ الجنايةِ من أهمِّ أسبابِ القبولِ ، وكان ذلك
 ظاهرًا جليًّا في اعتذارِ أبناءِ يعقوب **عَلَيْهِ السَّلَامُ** ، فقد كان تركيزُهم على طلبِ
 العفوِ عنِ الذنبِ ، واعترافِهم بتعمُّدِ الخطأِ في ذلك ، بقولهم : ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا
 أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ، فكان ذلك من أسبابِ قبولِ اعتذارِهِم مع
 عِظَمِ جنائيتِهِم ، وما خلفه ذنبُهُم من آثارٍ نفسيةٍ في أبيهم .

❁ تقديمُ الأسبابِ الوجيهةِ الصادقةِ من أسبابِ قبولِ الاعتذارِ ؛ فقد عظمُ
 ذنبُ الهدهدِ عند سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** حتى توعَّده بإيقاعِ العذابِ الشديدِ عليه ، إن
 لم يأتِهِ بعذرٍ شافٍ وحجةٍ قويةٍ على تغيُّبِهِ ، فكان ما قدَّمه من الأسبابِ الوجيهةِ
 وسيلةً لقبولِ اعتذارِهِ والعفوِ عنه ، وبذلك تناسَبَ عِظَمُ ما اقترَفَهُ الهدهدُ مع
 قوةِ ما قدَّمه من الأسبابِ ، فالفُوقُ عنِ الذنبِ يُوازي قوةَ الأسبابِ في الاعتذارِ
 ووجهتها .

❁ التقديمُ للاعتذارِ بمقدمةٍ مناسبةٍ ، تُهيئُ النفسَ لقبوله ، كما كان من
 الهدهدِ حينما قال : ﴿أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ ، فبدأ
 بمقدمةٍ استمالَ بها قلبَ سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** ، ورغَّبَ في تلقيِ اعتذارِهِ المُنيئِ عن
 أمرٍ بديعٍ .

❁ المبادرة في الاعتذار من أسباب قبوله ؛ فإنَّ ذلك أقوى على محو أثر الخطأ وإنْ عَظُمَ ، وقد ظهر ذلك في اعتذار أبناء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وفي مبادرة الهدهد في الاعتذار ، فلم يمكُث طويلاً بعد تهديد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى أتى حاملاً معه اعتذاره .



المطلب الثاني الاعتذار المردود

الاعتذار المردود هو ذاك الخلق الجميل ، لكنه ألبسَ غيرَ لباسه ، حتى ظهرَ بأسوأ منظرٍ ، وأبشعِ صورةٍ ، يُتوقَّى به من الأنظارِ ، وتُنال به المآربُ ، وتُطمَس به الحقائقُ ، بألفاظٍ طنانةٍ جوفاءٍ ، وقلبٍ يحركُه الجبنُ والضعفُ والخبثُ ، ولهذا النوع من الاعتذارِ نماذجٌ في القرآن :

من ذلك اعتذارُ قومِ موسى لموسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** حينما ذهب لمناجاةِ رَبِّهِ وتركَ هارونَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** خليفةً على بني إسرائيلَ ، فوقفَ موسى بين يدي رَبِّهِ ، وهو لا يعلمُ ما أحدثَ القومُ بعده ، فأخبره سبحانه على وجه الاختصارِ بفتنتِهِم من بعده ؛ إذ ما كاد موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** يتركُهُم حتى تخلَّخَلت عقيدَتُهُم وانهاروا أمامَ أولِ اختبارٍ لهم ، ولا بُدَّ من اختباراتٍ متواليةٍ لبني إسرائيلَ ؛ لإعادةِ بنائِهِم النفسيِّ ، فرجعَ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** إلى قومِهِ غضبانَ أسفاً ، يُوبِّخُهُم في تقريرِ : ألم يعدِّكم ربُّكم على لساني كلَّ خيرٍ في الدنيا والآخرة؟ ويؤنَّبُهُم في استنكارِ : أظالَ عليكم انتظارُ وعدِ الله؟ أم تعمَّدتم حلولَ الغضبِ عليكم فأخلفْتُم موعدي؟ فأجابوه باعتذارِهِم السخيفِ : ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمُلْنَا أَوزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّمَاءُ﴾ [طه : ٨٧] ، فالأمرُ في زعمهم خارجٌ عن إرادتِهِم وقدرتِهِم ، وأخبروه عن تورُّعِهِم المزعومِ عمَّا كان

بأيديهم من حُلِيِّ القبطِ الذي استعاروه منهم قبل خروجهم من مصر؛ بأنهم قدَفَوْها ، فأخذَها السامريُّ^(١) ، فصاغَ منها عِجلاً^(٢) .

يقولُ الشنقيطيُّ : « وهو اعتذارٌ منهم بأنهم ما أخلفوا الموعدَ باختيارهم ، ولكنهم مغلوبون على أمرهم من جهةِ السامريِّ وكَيْدِهِ ، وهو اعتذارٌ باردٌ ساقطٌ كما ترى! »^(٣) .
وهكذا اعتذروا بهذا العذر ، للخروج من الذنبِ بِإلقاءه على السامريِّ ،
ولقد صدَّق محمود الوراق^(٤) حين قال :

إذا كان وجهُ العذرِ ليس بيِّنٍ فإنَّ اطراحَ العذرِ خيرٌ من العذرِ^(٥)
وهو اعتذارٌ سخيْفٌ لا يُستغْرَبُ من عادةِ بني إسرائيل في كلِّ الأزمانِ .
وقولُهم : « حُمِّلْنَا » ، هذا فعلٌ مبنيٌّ للمجهولِ ، لم يذكروا مَنْ الذي حمَّلهم
هذه الأوزارَ ، وإنما هم الذين حمَّلوها أنفُسَهم ، وحاصِلُ ما اعتذَرَ به هؤلاءِ
الجهلةُ أنهم تورَّعوا عن زينةِ القبطِ ، فألقَوْها عنهم ، وعبدُوا العجلَ ، بغيرِ
اختيارٍ منهم ، وهو اعتذارٌ باطلٌ مردودٌ عليهم .

(١) السَّامِرِيُّ : اسمه موسى بن ظَفَر ، عن ابن عباس قال : كان السامري رجلاً من أهل باجرُما ، وكان من قوم يعبدون البقر ، وقد أظهر الإسلام في بني إسرائيل . ينظر : « جامع البيان » للطبري (٦٦ / ٢) .

(٢) ينظر : « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (٣١١ / ٥) و« نظم الدرر » للبقاعي (٣٢٨ / ١٢) و« روح المعاني » للآلوسي (٥٥٦ / ٨) .

(٣) « أضواء البيان » (٨١ / ٤) .

(٤) محمود الوراق : محمود بن حسن الوراق أبو الحسن ، شاعر مشهور مجيد من شعراء العصر العباسي الأول ، وهو شاعر فاضل مكثّر ، عُرف ببقاء الكلمة وشرف المعنى ، وأكثر شعره في المواعظ والحكم ، توفي في حدود المائتين والثلاثين . « طبقات الشعراء » لابن المعتز (٣٦٧)

(٥) « ديوان محمود الوراق » (١٢٢) .

ومن ذلك اعتذارُ فرعونَ في اللحظاتِ الأخيرة من حياته ؛ وهو نوعٌ من الاعتذارِ المردودِ ، فحينما يئس موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من فرعونَ وملئه ، أن يرجى لهم صلاحٌ ، أو يكونَ فيهم خيرٌ ، اتَّجه إلى ربِّه يدعوه أن يدمرَ أموالهم ، ويشدَّ على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يَرَوْا العذابَ الأليمَ ، فيستجيبُ اللهُ دعاءه ، ويقعُ هلاكُهم بالغرقِ ، وذلك حينما خرجَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ببني إسرائيلَ على حينِ غفلةٍ من فرعونَ ، فسمعَ بهم فرعونُ ، وتبعهم حتى لحقهم ، وعندما وصل إلى الساحل كانوا قد خرجوا من البحرِ ، لكنَّ مسلكهم باقٍ على حاله يئسًا ، فسلكَ فرعونُ بجنوده أجمعين ، فأمرَ اللهُ البحرَ فالتطمَ على فرعونَ وجنوده ، فأغرقهم ، وبنو إسرائيلَ ينظرون ، فما كان من فرعونَ إلا أن أعلنَ توبته واعتذاره لله ، وقد علَّته أمواجُ البحرِ ، وغشيته كُربُ الموتِ ؛ قائلاً : ﴿ ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ ۚ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٩٠] ، أي : آمنتُ مخلصاً لله بزعمه منتظماً في سلكِ الراسخين فيه ، ولقد كرَّرَ فرعونُ الاعتذارَ بعدةِ عباراتٍ حرصاً على القبولِ المُفضي إلى النجاة ، ولكن هيهاتَ هيهاتَ ، بعد ما فات ما فات ، وأتى ما هو آتٍ ، كما قال امرؤ القيس ^(١) :

(١) امرؤ القيس : اسمه حُنْدُج ، وقيل : عَدْي ، وقيل : مُلَيْكَة ، وطغى لقب امرئ القيس على اسمه وعُرف به ، وأمه فاطمة بنت ربية ، وهو من شعراء الطبقة الأولى في العصر الجاهلي ، كان مزهواً بنفسه وبملك أبيه ، غارقاً في لذائذ الدنيا ، أنفق عمره في الشهوات ، وعاش من شدِّ وتصعلك ، ومن غوى وفسق ، كان شعره في المرحلة الأولى من حياته غزلاً ووصفاً لمجالس الأنس والخمر ، والحصان رفيقه في الصيد ، ومطيته في ميادين القتال ، وفي المرحلة الثانية بعد مقتل أبيه غلب على شعره المدح والهجاء والفخر بالملك القديم ، ووصف الناقة وسيلته في قطع الفلوات ، توفي (٨٠ قبل الهجرة) .

ينظر : « الأعلام » للزركلي (١١ / ٢)

أنت وحيَاضُ الموتِ بيني وبينها وجادتُ بوصل حين لا ينفعُ الوصلُ^(١)

فردَّ الله عليه اعتذاره ، الذي جاء بعد فوات الأوان ؛ ﴿ءَاَلَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس : ٩١] ، أي : الآن تُقرُّ لله بالعبودية ، وتستسلم له بالدلة ، وتزعمُ الإخلاصَ له وإفراذه بالألوهية ، وقد عصيته قبل نزولِ نعمته بك ، فأسخطته على نفسك ، وكنتَ من المفسدين في الأرض ، الصادِّين عن سبيله؟! فهلاً كان ذلك وأنت في مهل ، وبابُ التوبة لك مفتوح ، أقررت بما تزعمُ أنك به الآن مُقرٌّ؟!

فلا ينفعُ الإيمانُ الآن ؛ كما جرت عادةُ الله ؛ أن الإيمان لا ينفعُ في الحالة الاضطرارية ؛ لأنه صار إيماناً بامرٍ مُشاهد عياناً ، كإيمان من ورد القيامة ، فهو إيمان اضطراري ، والذي ينفع إنما هو الإيمان بالغيب ، والمقصود أن حكم الله في جميع من تاب حين معاينة العذاب ألا تُقبل منه توبة ولا اعتذار^(٢) ، ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر : ٨٥] .

(١) ينظر : « تفسير المنار » لرشيد رضا (٣٨٨ / ١١) وهذا البيت أصله لامرئ القيس بن عابس الكندي ، ونصه :

دنت وظلالُ الموتِ بيني وبينها وأدلت بوصل حين لا ينفع الوصلُ

ينظر : « الزهرة » لأبي بكر الأصبهاني (٩٨) و« تاريخ دمشق » لابن عساكر (٢٥٣ / ٩) .

(٢) ينظر : « جامع البيان » للطبري (١٩٤ / ١٥) « إرشاد العقل السليم » لأبي السعود (١٧٣ / ٤) « تفسير المراغي » (١٠١ / ٢٤) و« تيسير الكريم الرحمن » للسعدي (٣٧٢) .

وهذا النوع من الاعتذار يلجأ إليه أهل الباطل في كل زمان ومكان ، ليتواروا به خلف باطلهم ، فحينما دعاهم الرسل إلى عبادة الله وحده ، وترك ما سواه ، قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣] .

يقول مجاهدٌ : « هذا قول قريش ؛ تقوله للأوثان ، ومن قبلهم يقولونه : للملائكة ، ولعيسى ولعزير »^(١) .

وسر الأمر أنهم أرادوا بهذا الاعتذار إسكات من خالفهم عن سوء صنيعهم ، وقد ردَّ الله عليهم في مواضع عدة ، لتفنيد اعتذارهم وقمع باطلهم المزيف ، المغلف بمزاعم الخير ، ففي الآية نفسها يقول المولى سبحانه : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : ٣] .

يقول البقاعي : « أتى سبحانه في حكايته عنهم بالتأكيد على أبلغ وجه ؛ لأنَّ الدلالة على المعنى بلفظين أجدر في ثباته وتكثيره من لفظ واحد ، وبدأ بأرشد الفعلين وأشهرهما وأخفهما وأوضحهما »^(٢) .

فأوضح سبحانه أنه سيحكم بينهم يوم القيامة حينما يحشرون مع معبوداتهم الباطلة ، وأنه قد حرّمهم الهداية بسبب كفرهم بالله ؛ ذلك الكفر الذي حاولوا ستره بالاعتذار الكاذب ، وهذه حال أهل الباطل في كل زمان ومكان ؛ إذا

(١) « تفسير مجاهد » (٥٧٧) .

(٢) « نظم الدرر » للبقاعي (٤٤٥ / ١٦) .

ضاقَت بهم الحِيلُ ، وأُغْلِقَت في وجوههم السُّبُلُ ، لجؤوا إلى تافِه الاعتذارِ ، وفاسدِ القولِ ، وتلاعَبوا بالحقائقِ ، ولاكُوا بأفواههم الألفاظَ الطنانةَ الجوفاءَ ؛ ليتستَرُوا بها خلفَ باطلهم ، فقد اعتذروا من تركِ الإنفاقِ بقولهم : ﴿ أَنْطَعُمْ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ ﴾ [يس : ٤٧] ، كما اعتذروا من جهلهم وحمقهم ، وعبادتهم الأحجار التي لا تضرُّ ولا تنفعُ بقولهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ ، وقد خسرَ لعمرُ الله غايةَ الخسارةِ قومٌ تمذهبوا بأقبحِ المذاهبِ ، وجعلوا عذرهم مثلَ هذه الكلمةِ التي ذمَّ اللهَ المعتذر بها .

وقد تلبَّسَ به المنافقون في غزوةِ تبوكَ ، في سورةِ التوبةِ التي جاءت فاضحةً وكاشفةً ومخزيةً لهم ، ذلك أنه حينما نادى رسولُ الله ﷺ بالجهادِ ، والخروجِ لقتالِ الرومِ ، لبَّى المسلمون المُخلصون داعيَ الجهادِ ، وتَسَابَقُوا إلى البَذْلِ ، وضربوا أروعَ الأمثلةِ في التضحيةِ والإنفاقِ ، ورضي قومٌ أن يكونوا مع الخوَالِفِ ، ووراءَ حُبِّ الدَّعةِ ، وإيثارِ السلامةِ ، وسقوطِ الهمةِ ، وذلةِ النفسِ ، وانحناءِ الهامةِ ، وقد كانوا يظنون أن المسلمين لا يعودون من لقاءِ الرومِ ، لكنَّ الأمرَ لم يكن وَفَقَ خيالهم وتصوراتهم المثبِّطة ؛ فقد نصرَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى رسولَه ﷺ ، وَمَنْ صَدَقَ معه من المؤمنين ، وعادُوا سالمين آمنين ، فكان الموقفُ المُخزي للمنافقين ، وافتضحهم أمامَ الرسولِ ﷺ والمؤمنين والمجتمعِ أجمع ، فسلكوا أساليبهم الملتويةَ ، كعادتهم في كلِّ مرةٍ ، في التغطيةِ على قبائحهم وسوءِ سريرتهم ، فستروا تخلفهم باعتذاراتهم الكاذبةِ الباهتةِ ، لخدْلهم من الظهورِ بفعلتهم هذه ، ومن الكشفِ عن أسبابها الحقيقيةِ ؛

من ضعف الإيمان، وإيثار السلامة، والإشفاق من الجهاد، لكن الله فضحهم بالوحي قبل أن يدلّوا بها، وأخزاهم بردّ اعتذاراتهم، قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤]، وفي هذا رفض حاسم لاعتذاراتهم؛ لأنّ سماع العذر يُوحي بإمكان قبوله، أما رفض سماعه ألبتة، فهو قطع له من أصوله، وأن لا وجه في المَعذرة، كما فضحهم سبحانه بأنهم سيؤكّدون اعتذاراتهم بالحلف الكاذب^(١)، قال تعالى: ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٩٥].

يقول محمد رشيد رضا: «قائلين: لو استطعنا الخروج إلى الجهاد بانتفاء الأعذار المانعة، لخرجنا معكم؛ فإننا لم نتخلف عنكم إلا مضطرين، يهلكون أنفسهم بامتهان اسم الله تعالى بالحلف الكاذب؛ لستّر نفاقهم وإخفائه، يؤيّدون الباطل بالباطل، ويدعمون الإجرام بالإجرام»^(٢)، فيعتذرون كذباً ويؤكّدون ذلك بالآيمان الكاذبة؛ لعلّ المسلمين يُعرضون عن فعلتهم وتخلّفهم، عفواً وصفحاً، ولا يحاسبونهم عليها؛ ليضمّنوا السلامة في المجتمع، فيأمر الحق سبحانه بالإعراض عنهم، لكنه إعراض إهانة لا صفح ولا عفو.

(١) ينظر: «جامع البيان» للطبري (٢٤٢/١٤) و«مفاتيح الغيب» للرازي (٢٢٧٢/١) و«أنوار التنزيل» للبيضاوي (١٦٦٠/١) و«اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل (١٦٨/١٠) و«إرشاد العقل السليم» لأبي السعود (٩٣/٤) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (٣٤٨/١).

(٢) «تفسير المنار» (٤٠١/١٠).

يقول المراغي: « فأعرضوا عنهم إعراض الإهانة والتحقير، لا إعراض الصفيح وقبول العذر »^(١)، معللاً ذلك سبحانه بأنهم دَنَسَ يُتَجَنَّبُ وَيُتَوَقَّى، لئلاً تَسْرِي عَدُوَاهُمْ إِلَى النَفُوسِ النَقِيَّةِ .

من خلال الآيات ندرُك ما يلي :

١ . الاعتذارُ المردودُ فجَّ واسعٌ، تتعدَّدُ مسالكُه، وتتلوَّنُ مشاربُه، يسلكُه السالكون للخروج به من المأزِقِ، والحصولِ به على المأربِ .

٢ . جاء الاعتذارُ المردودُ في القرآن رمزا من رموزِ النياتِ السيئةِ، والطرقِ الملتويةِ، والمعانيِ الساقطةِ الباهتةِ، كما في اعتذارِ بني إسرائيلَ والمنافقين .

٣ . إتاحةُ الفرصةِ أمامَ المعتذِرِ لإبداءِ عذرِه، تُعدُّ نوعاً من القَبُولِ، فَمَنْ أَكْرَمَ المعتذِرَ بسماعِ عذرِه، فقد تركَ احتمالاً لَقَبُولِه، بخلافِ مَنْ مَنَعَه من أصولِه، فقد أوصَدَ أبوابَه، كما جاء الوحي في منعِ المنافقين من الإدلاءِ بعذرِهِم .

٤ . قد يكونُ من الحكمةِ عدمُ الردِّ على الاعتذارِ، كما كان مع المنافقين، رَدْعاً وَزَجْراً، لا عفوًّا وصفحاً .

٥ . تقديمُ الاعتذارِ بعدَ فَوَاتِ أوانِه، يُعدُّ مانعاً من قَبُولِه، كما في اعتذارِ فرعونَ حينما أشرفَ على الهلاكِ والموتِ .

٦ . كما أنَّ الاعتذارَ المردودَ وردَ في القرآنِ من رموزِ الكفرِ والطغيانِ؛ كفرعونَ والمنافقين وبني إسرائيلَ، فقد وردَ أيضاً في أواسطِ المجتمعِ خدمةً

(١) « تفسير المراغي » (٥ / ١١) .

للأغراض الخبيثة والمعاني السيئة ، كما كان من إخوة يوسف ، وسيأتي بيانه في الباب الثاني .

٧ . سبب رد الاعتذار لا يخرج عن أصليين :

❁ إمّا لفساد مقاصده ؛ كمن يتخذ وسيلةً للتهرّب من المسؤولية وتوزيعها على الآخرين ؛ كما كان من بني إسرائيل في الاعتذار من عبادة العجل ، أو كمن يتخذ سترًا يتوارى به خلف باطله ؛ كما كان من المنافقين وأهل الباطل .

❁ وإمّا لعدم تنويجه بأسباب القبول ؛ وهذا ما سيأتي بيانه في الفصل التالي إن شاء الله .





الفصل الثالث

أسباب قبول الاعتذار

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : الاعتراف بالذنب والخطأ .

المبحث الثاني : تقديم الأسباب الصادقة .

المبحث الثالث : انتقاء الألفاظ المناسبة .

المبحث الرابع : تقديم الاعتذار في الوقت المناسب .



المبحث الأول

الاعتراف بالذنب والخطأ

شَطْرُ الاعتذارِ الاعترافُ بالاعتذارِ المقبولِ ؛
لدلالته على صدقِ ندمِ المعتذرِ ، كما أنه كفيْلٌ أن يَنْتَزِعَ جذورَ الغضبِ من
المعتذرِ إليه ، ويُعيدَ للعلاقاتِ حياتها وصفاءها . واعترافُ المعتذرِ بالذنبِ
دليلٌ على شجاعته الخُلُقِيَّةِ التي تزيده ثقةً بنفسه ، وتجردُه من الشعورِ بالذنبِ .
ومثُلُ طالبِ السماحِ بالاعتذارِ من غيرِ اعترافٍ ، كمثلِ مَنْ يقفزُ فوقَ الخطأِ
لِيُغَشِّيَهُ وَيَحْجُبَهُ ؛ للشعورِ الخاطيءِ بالدلةِ والضعفِ بذلكِ الاعترافِ ، مخالفًا ما
ورد في القرآنِ من جميلِ الاعترافِ ، من أنقياءِ البشرِ وقادتهم .

فَادُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما استخلفه الله في الأرضِ ، وأعطاه المعرفةَ التي يعالجُ
بها هذه الخلافةَ ، زاده في العطاء ؛ بأن أسكنه وزوجَه الجنةَ ، ومع العطاءِ كان
الابتلاءُ والاختبارُ ؛ فأبيحت له ثمارُ الجنةِ إلا واحدةً ، فلم يَزَلْ بهما عدوهُما
حتى نسي آدمُ عهدَه وأكلا من تلكِ الشجرةِ ، فأخرجهما مما كانا فيه ، ولكنَّ
العثرةَ لم تطلْ ، إذ نهض آدمُ إلى ربِّه قائلاً : ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا
وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] ، فقد توجَّهَ إلى الله بالاعترافِ
بالذنبِ والخطأِ وظلمِ أنفسهما ، مصحوبًا كُلُّ ذلكِ بالندمِ والضراعةِ إلى الله
تعالى أن يغفَرَ لهما ويرحمهما ؛ ولذا قالَا : ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ
مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ؛ يطلبانِ المغفرةَ من الله تعالى ولا يكتفیانِ بها ، بل يطلبانِ مع

المغفرة أن يتغمّدهما الله برحمته ، ولئن لم تَكُنِ المغفرة والرحمة ليكون الخسارُ العظيمُ ، للذين خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِظُلْمِهِمْ لَهَا ، وخَسِرُوا غفرانَ الله تعالى ورحمته ، وذلك هو الخسرانُ المبينُ^(١) ، وهكذا قدّم الاعتراف بالخطأ مصحوباً بطلبِ العفوِ والسماحِ عمّا بَدَرَ ، والندمِ على الذنبِ^(٢) ، فقبلَ الله توبته واعتذاره ؛ ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَقَتَابَ عَلَيْهِ وَهْدَى﴾ [طه : ١٢٢] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « قولهما : ﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ يتضمنُ الإقرارَ والاستغفارَ . وَمَنْ هُوَ دُونَ آدَمَ إِذَا أَقْرَبَ بِذَنْبِهِ وَاسْتَغْفَرَ مِنْهُ غُفِرَ لَهُ »^(٣) ، فَمَنْ أَشْبَهَ آدَمَ فِي الاعترافِ وسؤالِ المغفرة والندمِ والإقلاعِ ، اجتباهُ رَبُّهُ وهْدَاهُ ، وظَفِرَ بالمقصودِ ، وفاز بالسعادة التي لا ينالها إلا مَنْ يُنِيبُ إلى الله ويتبعُ سبيله ، وَمَنْ أَشْبَهَ إبليسَ إِذَا صدرَ منه الذنبُ ؛ فاستكبر وأبى واحتجَ لذنبه ، فإنه لا يزدادُ من الله إلا بُعْداً^(٤) .

وفي اعتذارِ السحرة شجاعةٌ في الاعترافِ بالحقِّ ، في يومٍ جُمِعَتْ فيه الجموعُ ، واستثيرت فيه الهممُ ، والدعوةُ إلى التجمعِ والترابطِ والثباتِ ، في مشهدٍ مهيبٍ ، لإثباتِ الباطلِ ، وإبطالِ الحقِّ ، تحدياً لموسى أمامَ الحشدِ العظيمِ ، فألقى السحرةُ سحرَهم ، حتى أوجس موسى خيفةً منه ، لكن أُلْقِيَ

(١) ينظر : « جامع البيان » للطبري (١ / ٥٤١) و« مفاتيح الغيب » للرازي (٣ / ٤٧١) و« أضواء البيان » للشنقيطي (٨ / ٢٦) .

(٢) وهذه التوبة أعلى مقامات الاعتذار ، كما ذكرناه من كلام الراغب الأصفهاني ()

(٣) « تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية » للقيسي « جمع إيا القيسي (١ / ١٩٨)

(٤) كما في قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَام حينما أبى إبليسُ السجود ، واحتجَ لذنبه .

عليه العونُ الإلهيُّ، فألقى موسى عصاه، فإذا هي المفاجأة العظمى، إنه التحوُّلُ الكاملُ، إنه إشراقُ النورِ ووضوحُ الحق، إنها المعجزةُ الإلهيةُ، إيمانُ السحرة، وبطلانُ السحرِ، وإخفاقُ الدعوة الفرعونية أمامَ الملائكة، فصارت بينَهُ ورحمةً للمؤمنين، وحجةً على المعاندين، فلجَّ فرعونُ في كفره وطغيانه، وتهدَّد السحرة وتوعَّدهم، بتقطيع الأيدي والأرجل من خلافٍ، والتصليب في جذوع النخل، والاستلقاء بالقوة الغاشمة قوة الوحوش في الغابة، ولكن قد فات الأوان، وخالَجَ الإيمانُ القلوبَ، فأعلنَ السحرةُ ثباتهم أمامَ فرعون، مهما ساوَمهم فيه من العذاب: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢]، وقرَّنه بالاعتذار: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَرْهَمْنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣]، مُعْتَرِفِينَ بذنبهم أمامَ الملائكة، مقرِّين به أمامَ الربِّ المزعومِ لبني إسرائيل، حتى أضْحَى فرعونُ في سلطانه كحشرة في ترابها، إنها لمسةُ الإيمانِ في القلوبِ دفعَتْهم إلى هذا الاعترافِ والاعتذارِ إلى ربِّ موسى وهارونَ، أمامَ مَنْ قَالَ: أنا ربُّكم الأعلى، وأمامَ الحشدِ الغفيرِ، فهزَّأت القلوبُ المؤمنةُ بتهديدِ الطغيانِ الجائرِ، وواجهته بكلماتِ الاعتذارِ القوية، وبرجاءِ الإيمانِ العميقِ، عسى أن يكونَ هذا الاعترافُ شافعاً لذنبهم الذي طالما جأهروا به لصدِّ الناسِ عن الإيمانِ، وإبطالِ ربوبيةِ ربِّ الأربابِ^(١).

(١) ينظر: «إرشاد العقل السليم» لأبي السعود (٦/٣٠) و«محاسن التأويل» للقاسمي (٧/١٣٥) «في ظلال القرآن» لسيد قطب (٤/٢٣٤٣).

وكما أنَّ الاعتراف بالذنب هو أساسُ الاعتذارِ في حقِّ الله كما اتضحَ لنا من المواقفِ السابقة ، وعلى ذلك يُنصُّ المولى سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٦٤] فهو كذلك أساسُ الاعتذارِ في حقِّ البشر ، فلا يتمُّ الاعتذارُ إلا بالاعترافِ بالافتراقِ في حقِّ المعتذرِ إليه ، ذلك أنه يمتصُّ الآثارَ النفسيةَ التي أحدثتها الجنايةُ من نفسِ المعتذرِ إليه ، لشعوره باحترام ذاته ، وتقدير كيانه ، وردَّ حقِّه إليه .

ومن أبداع الاعترافاتِ للبشرِ في القرآنِ اعترافُ امرأةِ العزيزِ بالافتراقِ في حقِّ يوسفَ عليه السلام ، في سلطانِ الملكِ وعلى مجمعٍ من النساءِ ، حينما أراد الملكُ أن يتحققَ من أمرِ يوسفَ عليه السلام ، تلبيةً لرغبته في إظهارِ ساحةِ براءته ، فنطقتِ النساءُ بنزاهةِ يوسفَ عليه السلام وبراءته ، ولم يتعرَّضن لأمرهنَّ ، حينها ظهرت حصَّةُ الحقِّ من حصَّةِ الباطل ، وأعلنتِ امرأةُ العزيزِ جنائيتها في حقِّ يوسفَ عليه السلام : ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : ٥١] ؛ تُعلنُها صريحةً مؤكَّدةً ، فتقصرُ المراودةَ على نفسها غيرِ آبهةٍ بمجمعِ النساءِ وحضورِ السلطانِ وافتضاحِ أمرها ، ولم تكتفِ بهذا الاعترافِ الذي تعرَّض فيه نفسها في معرضِ الاتهامِ الصريحِ المؤكَّد ، بل تستحضرُ يوسفَ الذي لا يزال في سجنه ، وتشهدُ له بالنزاهةِ والعفة ، وأنها هي الكاذبةُ فيما تقولته عليه ، وأنه هو الصادقُ في نفيِ هذا الاتهامِ عنه ^(١) .

(١) ثم تسرد بقية اعتذارها الذي سبق أن أوضحناه في الاعتذار من فعل ، وإنما أعدناه هنا لما يكمن فيه من فوائد لهذا المبحث .

فالشرط الأساسي، والركيزة الأولى، في الاعتذار الصادق المقبول؛ هي: الاعتراف بالخطأ، كيف وقد جمّلتها امرأة العزيز بالشهادة لخصمها بالطهر والصدق، حتى تُزيل ما في نفس يوسف من آثار ظلمها، ولنا أن نعود بالذاكرة قليلاً، لمواقف اعتذارات سابقة لنا، لننظر كيف يُنقّي الاعتذار ما في نفوسنا، حينما يعترف المذنب بخطئه، ويزيده بالشهادة لنا بالوفاء والصدق والنزاهة عن الخطأ، فيُعيد للعلاقات حياتها، وللقلوب صفاءها.

ثم تردف امرأة العزيز ذلك الاعتراف بمعانٍ أخرى للاعتذار؛ كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]، فتقرن الاعتذار بالاعتراف، أي: قولي هذا وإقرارى ببراءته، ليعلم أنني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته، وإن خنته في وجهه في أول الأمر، فالآن يعلم أنني لم أخنه في غيبته^(١).

فما زالت تحاول إتقان الخروج من وكر الخطيئة بجميل الاعتراف والاعتذار، يقول بعض الحكماء: شفيع المذنب إقراره، وتوبته اعتذاره^(٢).

فامرأة العزيز بعد أن اتهمت يوسف أمام المملأ، تتقدم وتقر بالحق أمام المملأ، وتعتذر من ذلك غير مبالية بما يلحقها من زوجها أو من الناس، فثوب ذنب البستة بريئاً أمام الناس ليس له من كفارة إلا أن تنزعه عنه بالاعتراف والاعتذار أمام الناس، فهكذا يكون الاعتذار؛ بمحو الخطأ وما لحقه من

(١) ينظر: «تفسير القرآن الكريم» لابن القيم (٣٣١).

(٢) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (٣٤٢).

تَبِعَاتٍ ، فسمِعَهُ يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَنْ تَعُودَ إِلَى طَهْرِهَا وَنَقَائِهَا إِلَّا بِاعْتِرَافِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ أَمَامَ الْمَلِكِ وَالْمَلَأِ ؛ لَتَقْطَعَ كُلَّ الْأَحَادِيثِ وَالشُّكُوكِ الطَّاعِنَةِ فِي سَمْعِهِ يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

من خلال الآيات ندرك ما يلي :

١ . الخطأُ سمةُ الإنسانِ وطبيعةُ النفسِ البشرية ، ولا يُعَابُ الإنسانُ على الخطأِ ، لكن يُعَابُ على التماذي فيه ، وعدمِ الاعترافِ به ، والجدالِ عنه بالباطل ، والإصرارِ عليه ، وجعلِ الرجوعِ عنه نقيصةً .

٢ . بدأ الاعتذارُ مع ابتداءِ الحياةِ البشرية ، متمثلةً في اعتذارِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، عندما أكلَ من الشجرةِ .

٣ . في اعتذارِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى موعظةٌ لذريتهما ؛ إذ عَرَفُوا وَتَبَيَّنُوا منها كيفيةَ التنصُّلِ من الذنبِ ، ويقابلهُ استكبارُ إبليسَ وإعراضُه عن الاعترافِ والاعتذارِ الصادقِ كما في بقيةِ قصةِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما أبى إبليسُ السجودَ ، واحتجَّ لذلك فكان سبباً في هلاكه وطرده من رحمةِ الله .

٤ . الاعترافُ بالخطأِ أوّلُ طريقِ الاعتذارِ ، وبسقوطه يسقطُ الاعتذارُ المقبولُ ، فلا اعتذارَ من اقترافٍ من غيرِ اعترافٍ ، وطالبُ السماحِ من غيرِ اعترافٍ كَمَنْ يَقْفُزُ فَوْقَ الْخَطَا لِيُغْطِيَهُ .

٥ . إنَّ إعلانَ الاعترافِ أو إسرازه يتناسبُ مع الخطأِ وآثاره ، فآدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أسرَّ اعترافَه لاختصاصه بحقِّ ربِّه في اقترافه ، وأعلنَ السحرةُ اعترافهم لتجلية

الحقّ الذي صدّوا به الخلق عن خالقهم ، كما أعلنتِ امرأةُ العزيزِ اعترافَها أمامَ الملكِ والمَلَأَ ، لتبرئةِ ساحَةِ يوسفَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** مما وصّته به في المَلَأَ ، وهكذا لا بد أن يتناسب الاعترافُ مع محوِ آثارِ الاقترافِ .

٦ . تبدو الشجاعةُ الخُلُقِيَّةُ في اعترافِ السحرةِ ؛ إذ يؤمنون بالواحدِ الأحدِ ويكفرون بمنّ قال : أنا ربُّكم الأعلى ، ويعتذرون إلى الله سبحانه في ساحَةِ مُلْكِ فرعونَ وسلطانِهِ ، فمثلُ هذه الشجاعةِ ينبغي أن تُحتدَى عند سطوعِ الحقِّ وبيانه .

٧ . ثقافةُ الاعترافِ بالخطأ والنزولِ من أولِ السُّلَمِ مَطْلَبٌ مُلِحٌّ لعلاجِ الكثيرِ من التبعاتِ والسلبياتِ والتجاربِ المَريرةِ ، وفي سجنِ يوسفَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أوضحُ مثالٍ ؛ لإعراضِ امرأةِ العزيزِ عن الاعترافِ في أولِ الحالِ .

٨ . في اعتذارِ امرأةِ العزيزِ وَقَفَاتٍ في الاعترافِ بالخطأ وبيانه ؛ منها ما يأتي :
 ❁ ظهرت الصراحةُ والوضوحُ في الاعترافِ ؛ فقد أكّدتِ الجنايةَ بنسبته بالضميرِ إلى نفسها ، ثم أتبعَتْ ذلك التصريحَ بالمرادةِ ، فلم تستعملِ لفظاً عاماً يوحي بخطئها .

❁ تولّتِ الاعتذارَ بنفسِها ، ولم تمنعها مكانتها من ذلك .

❁ وجّهتِ اعتذارَها مباشرةً لمن وقع عليه الخطأ ، ولم توجهه للملكِ ، مع أنها كانت بحضرته وسلطانِهِ .

٩ . الرجوعُ إلى الحقِّ سمةُ القادةِ العظامِ على مرِّ التاريخ ، بل يُعدُّ ذلك جزءاً من ملامحِ عظمتهم ، ابتداءً بأولِ الخليفة ؛ كما ذكرنا في قصةِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، واختتاماً بنبيِّ هذه الأمة .

فعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ بقومٍ يُلْقِحُونَ ، فقال : « لو لم تفعلوا لصلح » ، قال : فخرج شبيصاً ، فمرَّ بهم فقال : « ما لنخليكم ؟ » ، قالوا : قلتَ كذا وكذا ، قال : « أنتم أعلمُ بأمرِ دنياكم »^(١) ، ويعدُّ هذا الحديث من الأصولِ في الرجوعِ إلى الحقِّ والاعترافِ بالخطأ ، وقد اقتفى أثره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صحابتهُ وأهلُ الخيرِ من بعده .



(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٣)

المبحث الثاني

تقديم الأسباب الصادقة

الاعتذارُ بأسبابٍ واضحةٍ صادقةٍ ، إنْ أجدناه ؛ فإنه كفيْلٌ بأنْ يُوصَلَ المرءُ إلى مرماه ، ويحصلَ به على مبتغاه ، ويُزِيلَ من المعتذرِ إليه سخونةَ غضبه ، ويحوِّلَ جفأه إلى صفاءٍ ، وذلك في صدقه وعدمِ اختلاقه للأعداءِ والأسبابِ ، فيوصلُ العذرَ مهما كان ، ويتركُ التلونَ في الأعذارِ ؛ فإنه قد يزيدُ الطينَ بلةً ، وفي القرآنِ نماذجٌ من ذلك ؛ إما في الاعتذارِ للخروجِ من الذنبِ ، وإما لبيانِ الحالِ .

فحينما ذهب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يتلقَّى وحي الهداية ، واستخلفَ على بني إسرائيلَ هارونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، إذا هم يركسون في حماة الضلالة ، فيعبدون العجل ، فيرجعُ إليهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد استشاط غضباً من فعلتهم ، فيسألهم متعجباً : أَسْتَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ؟ ويُلقي الألواحَ التي كانت تحمِلُ كلماتِ ربِّه ، وهو لا يُلقيها إلا وقد أَفْقَدَ الغضبُ زمامَ نفسه ، ويأخذُ برأسِ أخيه يجرُّه إليه ، ويُعاتبه على فعله بني إسرائيلَ ، وفي شدة الموقفِ وفورانِ غضبِ موسى على هارونَ وقومه يقدمُ هارونُ اعتذاره ، ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَتُوبَ إِيَّائِي أَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ إِنَّكُمْ تَقُولُونَ نَتُوبُ وَإِنَّ رَبَّنَا لَبُحْرٌ شَدِيدٌ ﴿٩٠﴾﴾ [طه : ٩٠] ، فلقد نصحتهم حتى كادوا يقتلونني ، وإنِّي خشيتُ لو قاتلتهم وتَفَانُوا وتَفَرَّقُوا ﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه : ٩٤] ، وإنِّي رأيتُ

أن الإصلاح أولى في حفظ الدِّهْمَاءِ والمداراةِ معهم إلى أن ترجع إليهم؛
فلذلك استأنيتُ بهم، وانتظرتُك لتكونَ أنتَ المتدارِكُ للأمرِ حسبما ترى،
﴿ فَلَا تُشِمَّتْ بِتِ الْأَعْدَاءُ ﴾ [الأعراف: ١٥٠] بنهرِك لي، ومَسِّك إياي بسوءٍ؛
فإنَّ الأعداءَ حريصون على أن يجدوا عليَّ عَثْرَةً، أو يطلِّعوا لي على زلةٍ، ﴿وَلَا
تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] فتُعَامِلْنِي معاملةً لهم^(١).

عندئذٍ تهدأُ سورةُ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، وتنكشفُ له الحقيقةُ، وتجيءُ نوبةُ
الندمِ، فيستغفرُ لنفسه ولأخيه مما فرطَ منه.

وبعد إيمان قوم عيسى المستخلصين، ورؤيتهم للمعجزاتِ البيناتِ، طلبوا
أن تنزلَ عليهم آيةٌ من السماءِ، فعاتبهم عيسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** على ذلك، لعظيم
طلبهم بعدَ إيمانهم ووضوح الحقِّ لهم، فقدَّموا اعتذارهم لبيانِ حالهم، وقالوا
معتذرين من سؤالهم: نريدُ أن نأكلَ منها؛ فنحن بحاجةٌ إلى الطعامِ، وتزدادُ
قلوبُنا اطمئناناً و يقيناً بقدرةِ الله وبصدقِ نبوتك؛ لأنَّ علمَ الحسِّ والمشاهدةِ
أقوى دلالةً على المطلوبِ من العلمِ النظريِّ القائمِ على التسليمِ بالبراهينِ،
ونكونَ من الشاهدين على هذه الآيةِ عند بني إسرائيل الذين لم يحضروها، أو
نكونَ من الشاهدين لله بالوحدانيةِ وبكمالِ القدرةِ، ولك بالنبوةِ، فيكونَ ذلك
سبباً للإيمانِ أو ازديادِ الإيمانِ، فكان صدقُ ما قدَّموه من أسبابٍ شافعاً لقبولِ
طلبهم واعتذارهم^(٢).

(١) ينظر: «جامع البيان» للطبري (١٣/١٢٨) و«الكشف والبيان» للثعلبي (٤/٢٨٦)
و«أضواء البيان» للشنقيطي (٨/٧٨).

(٢) ينظر: «مفاتيح الغيب» للرازي (١٢/٤٦٣) و«أنوار التنزيل» للبيضاوي (٢/١٥٠).

وفي اعتذار المنافقين بالأسباب الباهتة كما في سورة التوبة ، نرى السبب واضحاً في ردّ اعتذارهم وافتضاح أمرهم ، فبعد رجوع النبي ﷺ والمؤمنين من غزوة تبوك تلقّاهم المنافقون بالأعذار الكاذبة ، ليستروا ذنبهم وخطيئتهم ، ولكن الله سبحانه فضح أمرهم ، وكشف عن سترهم الزائف ، فقابلهم النبي ﷺ والمؤمنون بالوحي : ﴿لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَجْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ يُنْزِلُونَ إِلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة : ٩٤] ، نهياً لهم عن الاعتذار ، ثم علّل المؤمنون ذلك بعدم التصديق لهم ؛ لأنّ غرض المعتذر أن يُصدّق فيما يقول ، فإذا عرّف أنه لا يُصدّق ترك الاعتذار .

من خلال الآيات ندرك ما يلي :

- ١ . كما أنّ شطر الاعتذار هو الاعتراف بالخطأ ، فالشطر الآخر منه هو الصدق في الاعتذار ، وذلك بتقديم الأسباب الصادقة فيه ، فقد يُقرّ الإنسان بخطئه لكنه يُقدّم أعذاراً سمجةً ، خالطاً الاعتذار بالاحتجاج ، فلا يكون حريّاً بالقبول .
- ٢ . ترك تقديم الأسباب الصادقة في الاعتذار يخلق حالة من ردة الفعل السلبية ، لذلك يُقال : « عذرٌ أقبح من ذنب »^(١) ؛ فقد يتسبّب العذر أحياناً في مشكلة أكبر من سبب الاعتذار ، وفي هذا المعنى يقول مسلمة بن قتيبة لرجل وقد اعتذر إليه : لا يدعوك أمرٌ قد تخلّصت منه إلى الدخول في أمرٍ لعلك لا تخلّص منه^(٢) .

و« التفسير المنير » للزحيلي (١١٦ / ٧) .

(١) « موسوعة الرقائق والأدب » للحمداني (٦٣٩٦) مصدر إلكتروني « الموسوعة الشاملة »

(٢) « السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث » للصّلاّبي (٨٢٨) .

٣ . تقديم الأسباب الصادقة في الاعتذار لا يلزم أن يكون عن ارتكاب خطأ ، فقد يكون اعتذاراً لبيان الحال ؛ كما كان من هارون حينما عاتبه موسى **عَلَيْهِمَا السَّلَامُ** ، فذكر له الحال ، ووضح الأسباب ، ليسكن من غضبه ، ويكشف له عن طبيعة موقفه ، وأنه لم يقصر في نصح القوم ومحاولة هدايتهم ، وكما كان من الحوارين حينما عاتبهم عيسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** على طلبهم الجريء ، فاعتذروا إليه بطلب زيادة الإيمان .

٤ . الغاية من الاعتذار تصديق المعتذر بما قدم من عذر ، ويظهر ذلك جلياً في رد القرآن لعذر المنافقين بعدم الإيمان به ، فكأنه تنويه بالغاية من الاعتذار .

٥ . مدار الاعتذار المقبول على الصدق ، تحقيقاً للغاية من الاعتذار ، من إصلاح ذات البين وصفاء القلوب .

الاعتذار فنٌّ من شأنه أن يشدَّ حبال الوصال بين أفراد المجتمع ، ويُنعش ما خمد منها ، إن أجدنا فيه ما سبق من مباحث في هذا الفصل ، وكسونا باللباقة اللفظية والتوقيت الزمني المناسب ؛ ليحظى بالقبول ، وهذا ما سيكون بيانه في المباحث التالية إن شاء الله .



المبحث الثالث

انتقاء الألفاظ المناسبة

لا شك أن للكلمة أثرها وتأثيرها في البيان والإصلاح والحصول على المنشود، ومن هنا كانت الحاجة ملحة إلى انتقاء ألفاظ الاعتذار، حتى تحظى بالقبول، ويُنال بها المطلوب، وتُلامس من البشر القلوب، وعلى ضوء ما ورد في القرآن، سيكون البيان.

من أبرز الأمثلة في انتقاء الألفاظ، وهو ما يُعدُّ من نماذج الاعتذار إلى الله في القرآن: اعتذار يونس عليه السلام، حينما ضاق ذرعاً بتكذيب قومه، وأنذَرهم بالعذاب، وخرج من بين أظهرهم مُغضباً آبقاً، من غير أن يأمره الله بذلك، وظنَّ أن لن يُضيّق الله عليه، فسار حتى ركب في السفينة مع أناسٍ، فافترعوا: مَنْ يُلقُون منهم في البحر؟ لَمَّا خافوا الغرق ببقائهم أجمعين، فأصابَت القرعة يونسَ، ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصفات: ١٤١]، فالتقمه الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحار، فعظمت الكربات، واشتدَّ الأمر، وخنقه الغم، واقترب منه الموت، فاعتذر إلى ربه تبارك وتعالى بجملة واحدة: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ فأقرَّ الله تعالى بكمال الألوهية، ونزَّهه عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ وآفةٍ، واعترف بظلم نفسه وجنابته، وأنه قد أتى من قبل نفسه، وأن نفسه هي التي أوقعته في هذا البلاء، ودفعت به إلى

هذا الموقف الذي هو فيه ، فهو في دعائه هذا يطلبُ البراءة من نفسه ، والنجاة من شباكِها ، وذلك بإخلاص العبودية لله ، والبراءة من كل شيء ، حتى من نفسه هذه ، والاستسلام لله الذي لا إله إلا هو : ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَفَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء : ٨٨] ، فاصطفاه ربُّه واستخلصه ، واختاره للنبوَّة والوحي ، وجعله من الأنبياء المرسلين لقومه الكاملين في الصلاح ، وأرسله إلى مائة ألفٍ أو يزيدون ، فآمنوا جميعاً^(١) ، ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

يقول السعدي : « وهذا وعدٌ وبشارةٌ لكل مؤمنٍ وقع في شدةٍ وعمٍّ أن الله تعالى سيُنْجِيه منها ، ويكشف عنه ، ويخفف ؛ لإيمانه »^(٢) .

كما أننا نجدُ التنزيه لله وتقديمه بين يدي الاعتذار في مقولة الملائكة كما أوضحناه في الاعتذار من القول : ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة : ٣٢] ، ف« سبحانك » اسمٌ يُعْظَمُ الله به ويُحاشا به من السوء ، وتصدير الكلام به اعتذارٌ من الاستفسار والجهل بحقيقة الحال ؛ ولذلك جُعِلَتْ مفتاحاً لاعتذار الأنبياء ؛ فقال موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** : ﴿سُبْحَانَكَ نُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، وقال يونس : ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٧] ، أدباً منهم في الجواب ، وإشعاراً بأن ما صدر منهم قبل ذلك يمحوه هذا التنزيه .

(١) ينظر : « جامع البيان » للطبري (٣٨٤ / ١٦) و« تيسير الكريم الرحمن » للسعدي (٥٢٩) و« التفسير القرآني » للخطيب (١٠٢٨ / ١٢) و« التفسير المنير » للزحيلي (٧٥ / ٢٩) .

(٢) « تيسير الكريم الرحمن » للسعدي (٥٢٩) .

وأما انتقاء الألفاظ في اعتذار البشر؛ فيظهر لنا ذلك في الاعتذار المقدم لموسى عليه السلام حينما هرب من فرعون وانتهى به سفره الطويل إلى ماء مدين^(١)، ووصل إليه وهو مجهودٌ مكدودٌ، فإذا هو يطلع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة، السليمة الفطرة، إذ وجد الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لشرب من الماء، ووجد امرأتين تمنعان غنمهما عن الماء، فتقدم للمرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣]؛ أي: قالتا: لا نسقي حتى ينتهي القوم من السقي، وأبونا شيخٌ كبيرٌ هَرِمٌ لا يستطيع الرعي والسقي بنفسه، فهذا ما ألجأنا إلى الحال التي ترى، وفي هذا اعتذارٌ من حضورهما للسقي مع الرجال؛ لعدم وجدانهما رجلاً يستقي لهما؛ لأنَّ الرجل الوحيد لهما هو أبوهما؛ وهو شيخٌ كبير^(٢)، وفي هذا التعبير ﴿وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ كنايةٌ تتضمن استعطافاً لموسى عليه السلام، فقد أرادت أن تقولاً له: إننا امرأتان ضعيفتان مستورتان، لا نقدر على مزاحمة الرجال، وأبونا شيخٌ طاعنٌ في السن، قد أضعفه الكبر وأعياه، فلا بُدَّ لنا من تأخير السقي إلى أن يقضي الناس أوطارهم من الماء^(٣).

(١) مَدِين: قال القرطبي: «هي قرية شعيب»، وقال الحموي: «ومدين على بحر القلزم». انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥٩/١٧) و«معجم البلدان» (١٤/٢) و«معجم الأمكنة الوارد ذكرها في القرآن» لابن جنيد (٣٢٥).

(٢) ينظر: «النكت والعيون» للماوردي (٢٤٦/٤) و«التحرير والتنوير» لابن عاشور (١٠٠/٢٠) و«تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (٦١٤) و«التفسير المنير» للزحيلي (٨٤/٢٠).

(٣) «الجدول في إعراب القرآن» لمحمود صافي (٢٤٥/٢٠).

وفي حديث عِثْبَانَ ما يوافق هذا النوع من الاعتذار ؛ في بيان الحال باستدرار العاطفة لقبول الاعتذار ، فقد كان عِثْبَانُ بْنُ مَالِكٍ يَوْمَ قَوْمِهِ وهو أعمى ، فأتى إلى النبي ﷺ يعتذر إليه ببيان حاله ، فقال : « يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّهَا تَكُونُ الظُّلْمَةُ وَالسَّيْلُ ، وَأَنَا رَجُلٌ ضَرِيرُ الْبَصَرِ ، فَصَلِّ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي بَيْتِي مَكَانًا أَتَّخِذُهُ مُصَلًّى ، فَجَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ ؟ فَأَشَارَ إِلَى مَكَانٍ مِنَ الْبَيْتِ ، فَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ »^(١) .

قال ابنُ رَجَبٍ : « وقد اعتذر عِثْبَانُ أيضًا بأن السيول تحول بينه وبين مسجد قومه الذي يصلي بهم فيه ، فطلب من النبي ﷺ أن يأتيه في بيته فيصلّي فيه ، حتى يتخذ مصلًى »^(٢) .

فكان اعتذار عِثْبَانَ بأن السيول تحول بينه وبين مسجد قومه الذي يصلي بهم فيه ، وفوق ذلك فهو رجلٌ ضَرِيرٌ ، كل ذلك تقوية لقبول طلبه ، مع علمه بوجوب الصلاة في المسجد ، وأنه لا يُعْفَى من ذلك أحدٌ .

وفي اعتذار النملة عن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وجنوده ، يتجلى سمو الاعتذار بلباقة الألفاظ ، فقد جُمِعَ لسليمان جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة ؛ من الجن والشياطين ، ومن الطيور ، فهم يُوزَعُونَ ؛ أي : يُدَبَّرُونَ وَيُرَدُّ أَوْلَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ ، وَيُنْظَمُونَ غَايَةَ التنظيم في سيرهم ، حتى إذا اتَّوَا عَلَى وَادِ النَّمْلِ صَاحَتْ هَذِهِ النَّمْلَةُ بَنِي جَنْسِهَا فِي وَسْطِ هَذَا الْخَطَرِ الدَّاهِمِ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل : ١٨] ، كَانَتْهَا

(١) أخرجه البخاري (٤٢٤) ومسلم (٣٣)

(٢) « فتح الباري » (١٧٨/٣) .

لَمَّا رَأَتْهُمْ مُتَوَجِّهِينَ إِلَى الْوَادِي ، فَرَّتْ عَنْهُمْ مَخَافَةَ الْهَلَاكِ ، فَتَبِعَهَا غَيْرُهَا ، وَصَاحَتْ صَيْحَةً نَبَّهَتْ بِهَا مَا بِحَضْرَتِهَا مِنَ النَّمْلِ فَتَبِعَتْهَا ، فَجَتَّ بِنَفْسِهَا وَنَصَحَتْ لِبَنِي جَنْسِهَا ، مُتَّبِعَةً ذَلِكَ اعْتِذَارَهَا عَنْ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجُنُودِهِ ، وَالْعَجَبُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّ هَوْلَ الْمَوْقِفِ لَمْ يُنْسِهَا أَنْ تَعْتَذَرَ عَنْ سَلِيمَانَ وَجُنُودِهِ .

يَقُولُ ابْنُ بَادِيسَ ^(١) : « وَلَمْ يُنْسِهَا هَوْلُ مَا رَأَتْ مِنْ عَظَمَةِ ذَلِكَ الْجَنْدِ إِذَا رَأَتْ بَنِي جَنْسِهَا ؛ إِذْ كَانَتْ تُدْرِكُ بِفَطَرَتِهَا إِلَّا حَيَاةَ لَهَا بِدُونِهِمْ ... فَأَنْذَرْتُهُمْ فِي أَشَدِّ سَاعَاتِ الْخَطَرِ أَبْلَغَ الْإِنْذَارِ ، وَلَمْ يُنْسِهَا الْخَوْفُ عَلَى نَفْسِهَا وَعَلَى بَنِي جَنْسِهَا مِنَ الْخَطَرِ الدَّاهِمِ أَنْ تَذَكَّرَ عَذَرَ سَلِيمَانَ وَجَنْدِهِ » ^(٢) ، وَفِي اعْتِذَارِ النَّمْلَةِ عَنْ سَلِيمَانَ مَنْتَهَى الْأَدَبِ فِي نَفْيِ الشُّعُورِ عَنْهُمْ فِي حَالِ إِيْذَائِهِمْ لِلنَّمْلِ فِي قَوْلِهَا : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

فَاعْتَذَارُ النَّمْلَةِ أَسْلُوبٌ بَلَاغِيٌّ يَظْهَرُ فِيهِ الْإِحْتِرَاسُ لئَلَّا يُتَوَهَّمْ نِسْبَةُ الظُّلْمِ إِلَى سَلِيمَانَ بِأَنَّهُمْ إِنْ حَطَّمُوهُمْ فَلَيْسَ عَنْ قَصْدٍ مِنْهُمْ وَلَا شُعُورٍ ، بَلْ لِعَدَمِ ظُهُورِ كَرَمِ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ ، فَسَمِعَ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلَهَا ، وَضَحِكَ إِعْجَابًا مِنْهُ بِفَصَاحَتِهَا وَنَصَحَهَا ، وَحَسَنَ تَعْبِيرِهَا ^(٣) .

(١) عبد الحميد بن محمد بن مكِّي ابن باديس ، وأسرته أسرة قسنطينية مشهورة بالعلم والشراف والجاه ، رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر ، كان شديد الحملا على الاستعمار ، وحاولت الحكومة الفرنسية في الجزائر إغراءه بتوليته رئاسة الأمور الدينية فامتنع واضطهد وأوذى ، وأنشأت جمعية العلماء في عهد رياسته كثيرا من المدارس ، وتوفي (١٣٥٩ هـ) انظر : « آثار ابن باديس » (١ / ٧٢) و « الأعلام » للزركلي (٣ / ٢٨٩) .

(٢) « في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير » (٢٦٢) .

(٣) ينظر : « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (١٣ / ١٧٠) و « التسهيل لعلوم التنزيل » لابن جزي (٢ / ١٠٠) و « معترك الأقران في إعجاز القرآن » للسيوطي (١ / ٢٧٩) و « تيسير الكريم

يقول السعديُّ معلقاً على قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩] «إِعْجَابًا مِنْهُ بِفَصَاحَتِهَا وَنَصِحِهَا وَحَسَنِ تَعْبِيرِهَا»^(١).

من خلال الآيات ندرك ما يلي :

أنه لا ريب أن الاعتذار يُرتاد لطلب العفو من الله ، وإزالة الذنب ، ومحو ما قد يقع في قلوب البشر ، ومن أنجع السبل لذلك تحسين الكلام وتحبير الألفاظ ؛ فإن له أثره في القبول ، واستمالة النفوس ؛ و«إنَّ من البيانِ لِسِحْرًا»^(٢) ، وقد تجلّى ذلك فيما سبق ذكره من الآيات ، ولنلخصه فيما يأتي :

١ . حينما أطبقتِ الظلماتُ على يونسَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** ، بعد أن خرج مُغضَّبًا من قومه عن غير أمرٍ ربّه ، نادى : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ، فكان نداؤه واعتذاره مناسبًا لحاله ، باعترافه بأنَّ كلَّ ما سوى الله باطلٌ ، براءةً من هوى نفسه ، وبيانًا أنه إذا خلّص من أهوائها ونوازِعها ، فقد خلّص من كلِّ سوءٍ ، وأمن كلِّ مكروهٍ ، ثم تنزيهه لله عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ ، ثم ختمَ اعتذاره باعترافه بظلمه لنفسه ، ومن هنا كان خلاصه من بطن الحوتِ ، وكانت نجاته من هذا البلاء .

٢ . ابتدأتِ الملائكةُ اعتذارها بالتنزيه لله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** ، حينما أدركت أنها سألت ما لا ينبغي لها سؤاله ، محاشاةً لله عن السوءِ ، ورجاءً في أن يمحو هذا التنزيه ما صدر منها ، كما ذكرنا في معرضٍ موقفيها . وابتدأ الأنبياءُ اعتذارهم

الرحمن « للسعدي (٦٠٢) و«الجدول في إعراب القرآن» لمحمود صافي (١٩/١٥٥) .

(١) « تيسير الكريم الرحمن » للسعدي (٦٠٣) .

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٦٧)

إلى الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** بالتنزيه أيضًا ، هذا في الاعتذار إلى الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** ، كما ينطبق ذلك على الاعتذار إلى البشر والله المثل الأعلى في ذلك فيحسنُ بالمعتذر من خطئه أن يذكر محاسن المعتذر إليه ؛ فإن ذلك أدعى لقبول العذر ، كما كان من امرأة العزيز حينما شهدت ليوسف **عَلَيْهِ السَّلَامُ** بالنزاهة والصدق .

٣ . وفي قصة الفتاتين مع موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** حينما ورد ماء مدين ، نوعٌ من الاعتذار لبيان الحال ، مغلفٌ بالاستعطاف ، لكسبِ قلبِ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** ، للنفوسِ عنهما بؤرودٍ ما يخالفُ المروءةَ ، من مباشرةِ السقي مع الرجال ، وما ورد في القرآن مِمَّا هو على شاكلةِ هذا الاعتذار في بيانِ الحال ، يكثرُ تغليفُه بألفاظِ الاستعطافِ ؛ كسبًا للقلوبِ ، وعفواً عن المورودِ ، ونيلاً للمطلوبِ .

٤ . وأما اعتذارُ النملةِ فهو نوعٌ عزيزٌ من الاعتذار ، ضربُه الله مثلاً ليُحتدَى في العفوِ عن الأذى ، فشهادةُ النملةِ لهم بعدمِ الشعورِ اعتذارٌ عنهم ووصفٌ لهم بالتقوى والتحفُّظِ من مضرةِ الحيوانِ ، فجَمَعَتِ الاعتذارَ عن الآخرين وهو خُلُقٌ اجتماعيٌّ يكادُ يُفقدُ ، وأضافت إليه أَلُفَ المعاني لإزالةِ الحرجِ عنهم ، فما أحوَجنا إلى هذا الخلقِ للتعايشِ مع المجتمعِ بقلبٍ سليمٍ ، وإلى هذا الخلقِ أشار النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في امتداحِه لخلقِ الأنبياء .

فعن عبد الله بن مسعودٍ قال : كَأَنِّي أَنظُرُ إِلَى النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ؛ ضَرْبَهُ قَوْمُهُ فَأَذْمَوْهُ ، فَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ : رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ^(١) .

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٧) ومسلم (١٧٩٢)

يقولُ القَسْطَلَانِيُّ : « رب اغفر لقومي » أضافهم إليه شفقةً ورحمةً بهم ، ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال : « فإنهم لا يعلمون »^(١) ، فهذا الحديث يمتدحُ النبي ﷺ هذا النبي الذي قابل السيئة بالحسنة ، بل من عظيم خلق هذا النبي أن زاد عفوه بالاعتذار من سيئتهم ، وحكاية مثل ذلك إنما يكونُ للامثال ، وهذا أسلوبُ نبويٌّ تربويٌّ .

٥ . من خلال ما مضى يظهرُ أن تحبير الألفاظ وانتقاءها سببٌ في قبول الاعتذار ، وقد وقع ذلك في القرآن على عدة أوجه في الاعتذار من خطأ ، كما في قصة يونس عليه السلام ، وفي الاعتذار ممّا وقع من الخطأ في الاجتهاد ؛ كما في اعتذار الملائكة ، وفي الاعتذار لبيان الحال ، كما في اعتذار الفتاتين لموسى عليه السلام ، وفي الاعتذار عمّن يتوقع وقوع الخطأ منه ، كما في اعتذار النملة عن سليمان عليه السلام احتراساً من أن يُتوهم وقوع الظلم من سليمان عليه السلام .

٦ . أسدئ إلينا يونس عليه السلام جميلاً باختيار هذا اللفظ الذي هداه الله إليه : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ، فقد قبل الله توبته واعتذاره ؛ فقال : ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ ، وأشركنا في ذلك معه ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، ولذلك جاء في حديث سعدٍ قال : قال رسول الله ﷺ : « دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ؛ فإنه لم يدع بها رجل مسلمٌ في شيء قط إلا استجاب الله له »^(٢) .

(١) « إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري » (٨٣ / ١٠)

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٠٥) وصححه الألباني « صحيح الجامع الصغير وزيادته » (٦٣٧ / ١) .

فدعاء يونس **عَلَيْهِ السَّلَامُ** سرٌّ من أسرار إجابة الدعاء ؛ لِمَا فِيهِ من الاعترافِ
 بوحدانية الله ، وتنزيهه سبحانه ، وإظهار الذلِّ والافتقارِ إليه سبحانه ، والاعترافِ
 بظلم النفس المتضمن للاعتذار .

٧ . جاء ضربُ المثلِ في القرآنِ باعتذارِ النملة ؛ لِيُحْتَذَى خُلُقًا فِي التَّعَايُشِ
 مع البشرِ .





المبحث الرابع

تقديم الاعتذار في الوقت المناسب

كما أنَّ للألفاظ أثرها وتأثيرها في قبول الاعتذار، فللوقت واختياره مثل ذلك، بل إنهما شقان لا ينفصلان، فاختيار الوقت الملائم لتقديم العذر بما يناسب الخطأ الذي وقع فيه سببٌ مهمٌّ في قبول الاعتذار، بل قد يُقوِّت القبول بإهماله، وليبيان ذلك نستلهم بعض الأمثلة مما ورد في القرآن :

من ذلك اعتذار داودَ عليه السلام في القرآن، فقد ذكر تعالى أنه أتى نبيّه داودَ الحكمةَ وفصل الخطاب، وكان معروفاً بذلك مقصوداً، وفي معرض ذلك قصّ سبحانه على نبيّه محمدٍ صلّى الله عليه وسلّم نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلها الله فتنَةً لداودَ؛ فقال: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١]، إنه نبأ عجيبٌ؛ فقد تسوّر الخصمان على داودَ محلّ عبادته من غير إذنٍ ولا استئذانٍ، ولم يدخلوا عليه من باب، فلمّا دخلوا عليه بهذه الصورة، فزع منهم وخاف، فقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: ٢٢] أي: احكم بيننا بالعدل، ولا تملّ مع أحدنا، والمقصود من هذا أن الخصمين عُرِفَ أنَّ قصدَهما الحقَّ الواضح الصّرف، وإذا كان ذلك فسيقضان عليه نبأهما بالحق.

فقال أحدهما : ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكَلْنَاهَا وَعَزَّيْنِي فِي الْخَطَابِ﴾ [ص: ٢٣] ، نصّر على الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة ؛ لاقتضائها عدم البغي ، وأن بغية الصادر منه أعظم من غيره ؛ إذ له تسع وتسعون نعمة ؛ وذلك خير كثير يُوجب عليه القناعة بما آتاه الله ، ولي نعمة واحدة فطمع فيها ، وقال : دُعها لي ، وغلبني في القول ، فلم يزل بي حتى أدركها أو كاد .

والقضية كما عرَضها أحد الخصمين تحمّل ظلماً صارخاً مثيراً لا يحتمل التأويل ، وعلى إثر سماع داود عليه السلام لهذه المظلمة الصارخة لم يوجّه إلى الخصم الآخر حديثاً ، ولم يطلب منه بياناً ، ولم يسمّع له حجة ، وحكم بظلمه لأخيه مطلقاً ؛ فقال : ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] ، أي : وهذه عادة الخُلطاء والقرناء أو الكثير منهم ؛ لأنّ الظلم من صفة النفوس ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ؛ فإنّ ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يمنعهم من الظلم ، وأيقن داود عليه السلام أنّما أوقعناه في فتنة بهذه الخصومة ؛ ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] فبادر بالاعتذار مما بدر منه ، وخرّ ساجداً ، وأنانب إلى الله تعالى بالتوبة النصوح ، ولم يتوان في ذلك .

فقبل الله توبته ، وأكرمه الله بأنواع الكرامات ؛ قال سبحانه : ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّعَاقِبٍ﴾ [ص: ٢٥] ؛ أي : منزلة عالية ، وقربة منا ، وحسن مرجع في الآخرة^(١) .

(١) ينظر : « البحر المحيط » لأبي حيان (١٥٠ / ٩) و « الجواهر الحسان » للثعالبي (٦٢ / ٥)

ومن ذلك اعتذارُ هارونَ لموسى حينما رجَّع من مناجاةِ ربِّه في الطور^(١) ، وقد أعلمه ربُّه بانحرافِ قومه من بعده ، فرجَّع ممتلئاً غضباً وغيظاً عليهم ، لتَمَامِ غيرته عليه الصلاة السلام ، وكمالِ نُصْحِهِ وشفقته على قومه ، فقال : ﴿ يَسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ﴾ [الأعراف : ١٥٠] ، أي : بسَّتِ الحالة التي خَلَفْتُمُونِي بها من بعدِ ذهابي عنكم ، فإنها حالة تُفْضِي إلى الهلاكِ الأبدِيِّ ، والشقاءِ السرمديِّ ، ورمَى الألواحَ ، وأخذَ بلحيةِ هارونَ وبرأسه ، يجرُّه إليه ، ويُعَاتِبُهُ من شدةِ غيظه وفرطِ غضبه لله ، وكان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** حديداً متصلباً في كلِّ شيء ، فلم يَتِمَّا لَكَ حينَ رآهم يعبدون العجلَ ، ففعل ما فعل ، فبادرَه وبادَلَه هارونُ بالاعتذارِ ؛ ﴿ ابْنَ أُمِّ ﴾ [الأعراف : ١٥٠] ، مبتدئاً بنداءِ الأُخوةِ ، ثم أخبره أنه غيرُ عاصٍ لأمره بل ممتثلٌ له ، ولكنَّهم مُصِرُّون على عبادةِ العجلِ .

فندِمَ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** على ما استعجل من صنعِه بأخيه قبل أن يعلمَ براءتَه مما ظنَّه فيه من التقصيرِ ، وبادر بالاعتذارِ إليه والدعاءَ له ؛ فقال : ﴿ رَبِّ أَعْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٥١] ، فقد سأل الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** أن يغفرَ لهما وأن يُدْخِلَهما في رحمته ، ويجعلها تحيطُ بهما من

و«أضواء البيان» للشنقيطي (٦/٣٣٩) .

(١) الطور : طُورٌ : بالضم ثم السكون ، وآخره راء ، جبل بيت المقدس ، ممتد ما بين مصر وأيلة ، سمى بطور بن إسماعيل بن إبراهيم ؑ ، وهو الذي نودي منه موسى ، والطور في كلام العرب : الجبل ، وقال بعض أهل اللغة : لا يسمى طورا حتى يكون ذا شجر ، ولا يقال للأجرد : طور . انظر : «معجم البلدان» للحموي (٤/٤٧) و«معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع» للبكري (٣/٨٩٧) .

كل جانبٍ ؛ فإنها حصنٌ حصينٌ من جميع الشرورِ ، وثُمَّ كُلُّ الخيرِ والسرورِ^(١) .
كُلُّ ما سَبَقَ يدلُّ على أن أفضلَ أوقاتِ الاعتذارِ : أن يقعَ بعدَ الخطأِ مباشرةً ،
والأفضلُ فيه المبادرةُ وعدمُ التأخيرِ ، وقايةٌ للمجتمعِ من تقاذفِ التهمِ ، وتفشيِ
سوءِ الظنِّ .

وفي السنةِ نموذجٌ من ذلك ؛ فعن عبد الله بنِ عمرَ ، قال : « مَكُنَّا ذَاتَ لَيْلَةٍ
نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِصَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ ، فَخَرَجَ إِلَيْنَا حِينَ ذَهَبَ
ثُلُثُ اللَّيْلِ ، أَوْ بَعْدَهُ ، فَلَا نَذْرِي أَشْيَءَ شَغَلَهُ فِي أَهْلِهِ ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ ، فَقَالَ حِينَ
خَرَجَ : « إِنَّكُمْ لَتَنْتَظِرُونَ صَلَاةَ مَا يَنْتَظِرُهَا أَهْلُ دِينٍ غَيْرِكُمْ ، وَلَوْ لَا أَنْ يَثْقُلَ عَلَى
أُمَّتِي لَصَلَّيْتُ بِهِمْ هَذِهِ السَّاعَةَ » ، ثُمَّ أَمَرَ الْمُؤَذِّنَ فَأَقَامَ الصَّلَاةَ ، وَصَلَّى »^(٢) .

ظاهرُ الحديثِ يدلُّ على مبادرةِ النبي ﷺ بالاعتذارِ من تأخيره
للصلاةِ ، بعدَ خروجهِ مباشرةً ، تفادياً لِمَا قد يقعُ في النفوسِ .

يقولُ النوويُّ تعليقاً على الحديثِ : « فِيهِ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِلْإِمَامِ وَالْعَالِمِ إِذَا تَأَخَّرَ
عَنْ أَصْحَابِهِ أَوْ جَرَى مِنْهُ مَا يَظُنُّ أَنَّهُ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْتَذَرَ إِلَيْهِمْ ، وَيَقُولَ : لَكُمْ
فِي هَذَا مَصْلَحَةٌ مِنْ جِهَةٍ كَذَا ، أَوْ كَانَ لِي عُذْرٌ ، أَوْ نَحْوُ هَذَا »^(٣) .

(١) ينظر : « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (٤٧٧/٣) و« البحر المحيط » لأبي حيان

(٢/٤) (٣٩٥) و« التفسير المنير » للزحيلي (٢٧٥/١٦)

(٢) أخرجه مسلم (٦٣٩)

(٣) « شرح مسلم » للنووي (١٣٩/٥) .

كُلُّ ما سَبَقَ من المواقِفِ تَظَهَّرَ فيه مبادِرَةُ المَخطِئِ أو المَتهَمِ بِالخَطِئِ
 بِالاعتذارِ ، ولنا أن نَقَفَ الآنَ مع موقِفٍ كَثيرٍ الورودِ مع يوسفَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** ،
 قَلِيلٍ مع غيرِه من الناسِ ، وهو موقِفُهُ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** بعدما حَصَحَصَ الأمرُ في
 حَقِّه ، وأدارَ مَلِكُ مِصرَ في عَصِرِهِ ، ونَزَحَ إِلَيْهِ إِخْوَتُهُ لِيَجْلِبُوا الرِّزْقَ من
 خَزَائِنِ مَلِكِهِ ، وَضَمَّ إِلَيْهِ أَخَاهُ بِكَيْدٍ من أَمْرِ رَبِّهِ ، ثُمَّ بَعْدَ حِينٍ من مَسِّ الضَّرِّ
 بِأَهْلِهِ ، بَعَثَ مع إِخْوَتِهِ بِقَمِيصٍ لَهُ لِيَرْتَدَّ بِصَرِّ أَبِيهِ ، فَيَأْتِي مع بَنِيهِ ، ويدخلوا
 مِصرَ آمِنِينَ مَطمَئِنِينَ ، لِتَحَقِّقَ رُؤْيَا يوسفَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** وَيُخْرِ لَه أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ
 سُجَّدًا ، وَيَرَى يوسفَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أَنَّ الوَقْتَ حَانَ لِيَفْتَحُوا جَمِيعًا صَفْحَةً
 جَدِيدَةً ، فَيبادِرُ بِالاعتذارِ عن إِخْوَتِهِ أَمَامَ أَبَوَيْهِ عَلَى مَسْمَعٍ مِنْهُمَا مع بَنِيهِ ،
 بِعِبارَةٍ لَطِيفَةٍ تُوحِي بِجَمالِ خُلُقِ يوسفَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** : ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ
 بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

فَقَدْ تَخَطَّى كُلَّ الْأَحْداثِ وَعَبَّرَ عَنْهَا بِقَوْلِهِ : « مِنْ بَعْدِ » إِشارةً إِلَى أَنَّ الْأَمْرَ
 انْقَضَى وَانْتَهَى ، إِعْرَاضًا عَنِ التَّذْكِيرِ بِما يُعَكِّرُ صَفْوَ الْأَخْوَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِخْوَتِهِ ، ثُمَّ
 أَسْنَدَ الْفَعْلَ إِلَى الشَّيْطَانِ .

يَقُولُ الْقُرْطُبِيُّ : « أَحَالَ ذَنْبَهُمْ عَلَى الشَّيْطَانِ تَكْرُمًا مِنْهُ »^(١) ، رَفْعًا لِلحَرَجِ
 عَنْهُمْ ، ثُمَّ اخْتَارَ الْطُفَّ الْأَفْعَالَ لِلتَّعْبِيرِ عَمَّا حَدَثَ « نَزَغَ » .

(١) « الجامع لأحكام القرآن » (٩ / ٢٦٧) .

يقول ابن عاشور : « شبه حدوث الوسوسة الشيطانية في النفس بنزغ الإبرة ونحوها في الجسم بجامع التأثير الخفي ، وشاعت هذه الاستعارة بعد نزول القرآن حتى صارت كالحقيقة »^(١) ، ثم بدأ بالظرف المضاف لياء المتكلم ، ويقصد نفسه مع براءة ساحته تمامًا من هذا الظلم الذي وقع عليه ، ليذهب الوحشة التي يشعرون بها ، وهذا من باب التلطف الشديد .

من خلال الآيات ندرك ما يلي :

١ . حينما أدرك داود عليه السلام خطأه سارع بالاعتذار من غير توانٍ في ذلك ، وهذا ما تُشعر به الآية : ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ ، فقد سبقت آية التوبة الفاء التي تدل على الترتيب والتعقيب ، كما جاء التعبير عن فعل الركوع مسبوقاً بالخروج بمعنى السقوط ، وهو مجاز يدل على السرعة في السقوط ، من ذلك ما يقال : عَصَفَتْ رِيحٌ فَخَرَّتْ الْأَشْجَارُ لِلْأَذْقَانِ^(٢) ، فقبل الله توبته وزاده من فضله برفع منزلته عنده سبحانه ، وعلو درجته في الآخرة ؛ ﴿ فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ ، مع ما امتن الله به عليه من الابن الأواب سليمان عليه السلام ، ﴿ وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٣٠] ، وهذا ما تدل عليه الآية ؛ فقد جاءت معطوفة على ما قبلها ، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها ، وكل ما امتن الله عليه به من المن والقبول يدل على فضيلة المبادرة بالتوبة والاعتذار بعد الخطأ مباشرة ، فالكسر أولى أن ينجز بعد كسره مباشرة .

(١) « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٢٣٠ / ٩) .

(٢) « أساس البلاغة » للزمخشري (٢٣٨ / ١) مادة (خرر) .

٢ . وفي اعتذار هارون لموسى عليه السلام في ذروة غضبه ما يدل على أن أنسب أوقات الاعتذار ما كان عقب الخطأ مباشرة ، فقد استطاع هارون عليه السلام أن يُزيل غضب أخيه بمبادرته بالاعتذار مع ما كساه من لطيف الألفاظ ؛ ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ . يقول ابن كثير : « ناداه بنداء الأمومة : ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ لتكون أرفأ وأنجع عنده ، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه »^(١) ، وفي هذا إشارة إلى ضرورة التلطف في تقديم العذر في حال الشدة والغضب ، وإلا فقد يفقد الاعتذار أثره ، أو قد تأتي الأمور عكسيةً بازدياد المشكلة .

٣ . المبادرة بالاعتذار تزيد التقارب والتألف ، كما في موقف يوسف عليه السلام حينما بادر بالاعتذار عن إخوته بعد اجتماعهم مع أبيهم ، ليطمس صفحة الأحداث السابقة ، ويطوي صفحتها ، وكما في موقف موسى حينما بادر هارون بالاعتذار ، فقبل عذر أخيه ولهج له بالدعاء .

٤ . تأخير الاعتذار عن وقته قد يُضاعفُ الخسارة ، ويُفقدُ القبول ، حينها لن يُجدي البكاء على اللبن المسكوب ، وفي الواقع مشاهد وأمثلة .



(١) « تفسير القرآن العظيم » (٣ / ٤٧٧) .



الفصل الرابع أثر الاعتذار

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : أثر الاعتذار على المعتذر .

المبحث الثاني : أثر الاعتذار على المعتذر منه .

الاعتذار أدبٌ اجتماعيٌّ جاء به الشريعة
الإسلامية ، تبدو أهميته بظهور أثره ، ونيل ثمره ،
سواءً أكانَ في جنبِ المولى سبحانه أم في حقِّ البشر ،
وسأتناولُ ذلكَ بالبيانِ من خلالِ المباحثِ التاليةِ

المبحث الأول

أثر الاعتذار على المعتذر

من خلال البحث وجدتُ أنَّ أثر الاعتذار على المعتذر يمكنُ تقسيمه إلى قسمين :

أ- أثر الاعتذار على المعتذر إن كان في حق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

❁ العفو والمغفرة :

فمن أعظم آثار الاعتذار على المعتذر لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ما يناله المعتذر من محو الزلات والخطايا وعفو المولى سبحانه ؛ وتلك أعظم الآثار لطبيعة الإنسان المجبولة على الخطأ والزلل ، المعرضة للشهوة والغفلة ، وآيات القرآن زاخرة بهذا المعنى العظيم ، وقد تعددت المواقف والأمثال في هذا المعنى بالبيان ، من ذلك توبه واعتذار أبي البشر لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى حينما أكل من الشجرة التي نهاه الله عن أكلها ، فبادر الله بالتوبة : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] ، فامتنَّ المولى عليه بالعفو والمغفرة ، ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٧] ، وما جاء في قصة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ مثال آخر لهذا الأثر ، حينما أدرك داود خطأه بقضية الخصمين ، وعلم أنه اختبارٌ بادر بطبيعته الأوابة إلى الاستغفار : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص : ٢٤] ، وأتاب الله تعالى بالتوبة النصوح والعبادة ، فأحلَّ الله عليه عفوهُ وغفرانهُ ﴿ فَعَفَرْنَا لَهُ ﴾ [ص : ٢٥] .

❁ الفوز بعظيم العطايا وجيل المنح :

إِنَّ مَنْ فَضَلَ اللَّهُ وَعَظِيمَ كَرَمِهِ مَا يَجُودُ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ التَّائِبِينَ مِنَ الْمُنْحِ الرِّبَانِيَّةِ ، وَالْكَرَامَاتِ الْإِلَهِيَّةِ ، بَعْدَ التَّوْبَةِ وَالْإِعْتِذَارِ ، فَهَذَا نَبِيُّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحَلَّ عَلَيْهِ الْمَوْلَى عَفْوَهُ ، ثُمَّ أَفَاضَ عَلَيْهِ مِنْ بَحَارِ جُودِهِ بِأَنْ رَفَعَهُ مَنْزِلَةً عَالِيَةً ، وَجَعَلَ لَهُ حُسْنَ الْمَصِيرِ فِي الْآخِرَةِ : ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَقَابٍ﴾ [ص : ٢٥] .

ووهبه الابن النبي الأواب سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فارتفع محلُّه وكانت حاله بعد التوبة أفضل من قبلها ، ومثِّل ذلك ما حدث لابنه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما فُتِنَ فِي مُلْكِهِ فَثَابَ إِلَى الْإِعْتِذَارِ لِلَّهِ فَأَجَابَهُ رَبُّهُ ، وَأَعْطَاهُ فَوْقَ الْمَلِكِ الْمَعْهُودِ ، مُلْكًا خَاصًّا لَا يَتَكَرَّرُ ، بِتَسْخِيرِ الرِّيحِ وَالشَّيَاطِينِ لَهُ تَحْتَ إِرَادَتِهِ وَتَصْرِيفِهِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَلَهُ حُسْنُ الْمَرْجِعِ فِي الْآخِرَةِ : ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَقَابٍ﴾ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ إِعْتِذَارِهِ لِرَبِّهِ عَنْ مُنَاجَاتِهِ فِي نَجَاةِ ابْنِهِ : ﴿قِيلَ يٰنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود : ٤٨] ، فَأَدْرَكَتْ نُوحًا رَحْمَةُ رَبِّهِ مِنْ رَبِّهِ تَطْمِئِنُّ قَلْبُهُ وَتُبَارِكُهُ هُوَ وَالصَّالِحُ مِنْ نَسْلِهِ .

يَقُولُ الْبَقَاعِيُّ : « فَبَارِكْ اللَّهُ فِي الْجَمِيعِ ، حَتَّىٰ مَلَأُوا أَقْطَارَ الْأَرْضِ وَنَوَاحِيهَا »^(١) .

(١) « نظم الدرر » (٢٩٦ / ٩) .

وقَدْ كَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَثَارِ قَبُولِ اعْتِذَارِ امْرَأَةِ عِمْرَانَ حِينَمَا وَضَعَتْ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ ، فَاعْتَذَرَتْ لِرَبِّهَا بِأَنَّ مَا وَضَعَتْهُ لَا يَفِي بِنَذْرِهَا مِنَ الْقِيَامِ بِخِدْمَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَقَبِلَ اللَّهُ اعْتِذَارَهَا وَحَفِظَ مَرْيَمَ وَرَعَاهَا ، وَأَفَاضَ عَلَيْهَا مِنْ بَرَكَاتِهِ ، وَنَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

❁ إجابة الدعاء :

الاعتذارُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ أَثَارِهِ إجابةُ الدعاءِ ، بَلْ هُوَ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ إجابةِ الدعاءِ ، تَمَثَّلَ ذَلِكَ وَاضِحًا جَلِيًّا فِي اعْتِذَارِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَمَا ذَهَبَ مَغَاضِبًا لِإِعْرَاضِ قَوْمِهِ عَنْ دَعْوَةِ رَبِّهِ ، فَخَاضَ فِي الْبَحْرِ وَالتَّقَمَّهُ الْحَوْتُ ، فَأَصْبَحَ فِي الظُّلُمَاتِ يَعَانِي الْكَرْبَاتِ ، كُرْبَةً إِعْرَاضِ قَوْمِهِ ، وَكُرْبَةً وَقُوعِهِ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ ، فَنَادَى رَبَّهُ مُعْتَذِرًا إِلَيْهِ : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٧] ، مُقَرِّرًا بِذَنْبِهِ ، مُنْزِعًا اللَّهُ سُبْحَانَهُ ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ، وَجَعَلَ اعْتِذَارَهُ مِنْ أَسْبَابِ إجابةِ الدعاءِ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِهِ : ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٨] .

❁ حصول العبد على ما يحبه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

جاءَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ الْمَغِيرَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ ، وَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ بَعَثَ الْمُبَشِّرِينَ وَالْمُنْذِرِينَ »^(١) ، وَهَذَا أَحَدُ الْأَقْوَالِ الَّتِي جَاءَتْ فِي مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ .

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٦) ومسلم (١٤٩٩)

قال ابن بطال : « وقوله : « ولا أحد أحبُّ إليه العذرُ من الله » فمعناه ما ذكر في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ ، فالعذرُ في هذا الحديث : التوبة والإنباء^(١) .

ويؤيد هذا المعنى ما جاء من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه ، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة ، فاضطجع في ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها ، قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح »^(٢) .

ب- أثر الاعتذار على المعتذر فيما يتعلق بحق البشر :

❁ إشاعة حسن الظن :

ظهر هذا الأثر في اعتذار هارون لأخيه موسى ﷺ حينما استخلفه على بني إسرائيل ، ففوجئ بعد مجيئه من مناجاة ربه بعبادته بني إسرائيل للعجل من بعده ، فاستشاط غضباً على هارون وأخذ برأس هارون يعاتبه ، فأبدى هارون اعتذاره بأنه لم يأل جهداً في ذلك ، وأبان لموسى ﷺ عذره ، فاستغفر له موسى ﷺ وزال الخلاف بينهما ، وبادله بالدعاء له : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٥١] .

(١) « شرح صحيح البخاري » (٤٤٣ / ١٠)

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٨) ومسلم (٢٧٤٧)

❁ الإصلاح وتصفية القلوب :

هذا الأثر من أوسع آثار الاعتذار ، فلا يكاد يخلو منه اعتذار ، ومن أبرز الأمثلة لهذا الأثر في القرآن اعتذار إخوة يوسف لأخيهم يوسف عليه السلام ، فقد اعتذروا ليوسف عليه السلام واعترفوا بتعمدهم للخطأ ؛ حرصاً على محو أثر ذنبهم وإصلاح ذات بينهم : ﴿ تَاللّٰهِ لَقَدْ ءَاثَرَكُ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ ﴾ [يوسف : ٩١] ، فقابلهم يوسف عليه السلام بالعمو وصف القلوب ، واجتمعت على الأخوة ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] .

يقول السعدي : « فسمح لهم سماحاً تاماً ، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق ، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة ، وهذا نهاية الإحسان ، الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق ، وخيار المصطفين »^(١) .

وقد حمل اعتذار امرأة العزيز هذا الأثر من الاعتذار حينما تقدمت أمام الملك والملا واعترفت بذنبها الذي اقترفته في حق يوسف عليه السلام ؛ لتبرئة ساحة يوسف عليه السلام ، وإصلاح سمعته التي لطمتها بجرمها ﴿ أَلَنْ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوْدُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [يوسف : ٥١] ، ثم نزهت يوسف عليه السلام وشهدت له بالصدق : ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ [يوسف : ٥١] ؛ لإصلاح ذات البين وتصفية القلوب .

وكما يظهر هذا الأثر مع المعتذر يظهر مع المعتذر إليه ، ومن أبرز الأمثلة لهذا الأثر في القرآن ما كان بين يوسف وإخوته ، فقد قبل يوسف عليه السلام

(١) « تيسير الكريم الرحمن » للسعدي (٤٠٤ / ١) .

اعتذار إخوته، وقابلهم بالاعتذار عنهم بجهلهم، وزادهم بالعفو عنهم من غير تأنيب: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، وإنَّ هذا لمن شيم الكرماء .

يقول الطبريُّ في قول يوسف « لا تثريب » : « لا تعيير عليكم ولا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الأخوة ، ولكن لكم عندي الصفح والعفو »^(١) .



(١) « جامع البيان » (١٦/٢٤٧) .

المبحث الثاني أثر الاعتذار على المعتذر منه

كما وجدنا أثر الاعتذار على المعتذر كذلك نجد على المعتذر منه وذلك في :

❁ الإنصاف والعدل :

فقد يلحق المعتذر الأذى أو يلحقه العقاب فيما يعتقد فيه من الخطأ ، فإن قدم المعتذر عذره وأبان حاله بما يرفع عنه الملام ، تمكن المعتذر إليه من إنصافه ورفع العقاب عنه ، وقد ظهر هذا الأثر في اعتذار الهدد لسليمان عليه السلام ، حينما تغيب عن الركب وكاد سليمان عليه السلام أن يوقع عليه العقاب ، إلا أنه فتح باب العذر القوي الصادق أمامه : ﴿لَا عُدْبَنَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذْبَحْتُهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل : ٢١] ، وهذا من عدله عليه السلام ، ثم رفع عنه العقاب بعد اختبار عذره ، وهذا من تمام عدله وإنصافه .

❁ تحقيق المصالح المرجوة من المعتذر إليه :

تمثل هذا الأثر في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام ، فقد انطلق موسى عليه السلام مع الخضر ليتعلم منه ممّا علّمه الله ، على شرط من الخضر لموسى ألا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكرا ، لكن موسى عليه السلام يتكرر منه السؤال فيما يجده من غرائب الأحداث ، وعجائب الأمور ، سواء أكان في خرق سفينة من أركبوهما من غير أجر ، أم في قتل الغلام من غير ذنب ، أم في بناء جدار أهل القرية من غير أجر مع امتناعهم عن ضيافتهما ، ففي

كُلُّ مَرَّةٍ يَتَكَرَّرُ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ السُّؤَالُ ، وَيَخْرُقُ مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَضِرِ مِنْ مِيثَاقٍ ، وَيَكَادُ يَكُونُ بَيْنَهُمَا الْفِرَاقُ كَمَا كَانَ الْإِتِّفَاقُ عَلَى عَدَمِ السُّؤَالِ ، لَكِنْ يَأْتِي اعْتِذَارُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ شَافِعًا ، وَتَسْتَمِرُّ رَحَلَتُهُ مَعَ الْخَضِرِ وَيَتِمَكَّنُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْوُقُوفِ عَلَى بَعْضِ مِنْ عِلْمِ الْخَضِرِ الَّذِي عَلَّمَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ ، فَبِهَذَا يَتَضَحُّ أَثَرُ الْعِذَارِ عَلَى الْمُعْتَذِرِ إِلَيْهِ فِي نَيْلِ الْمَصْلَحَةِ الْمَرْجُوعَةِ مِنْهُ .

وهناك بعض الآثار المستنبطة من الواقع ، وهي آثار للاعتذار نلمسها من خلال المعاشية في واقع الحياة ، ومن ذلك :

❁ سلامة الصدر :

إنَّ الاعتذارَ يَنْتَزِعُ أَثَرَ الزَّلَاتِ وَالْأَخْطَاءِ عَلَى الْآخَرِينَ ، وَيَطْفِئُ نَارَ الْحَقْدِ وَالْغَضَبِ ، وَالْمَوَاقِفِ وَالْأَزْمَاتِ ، وَيُزِيلُ التَّشَنُّجَ فِي الْعِلَاقَاتِ ، وَإِنَّهُ لَكَفِيلٌ بِإِعَادَةِ الْعَتَبَارِ لِلْمُعْتَذِرِ إِلَيْهِ ، وَإِحْسَاسِهِ بِاحْتِرَامِ ذَاتِهِ .

❁ التواضع ونفي الكبر :

إنَّ الاعترافَ بِالذَّنْبِ وَالْخَطَا وَالْتَقْصِيرِ أَمَامَ الْمُعْتَذِرِ إِلَيْهِ أَيًّا كَانَ مَنْصَبُ الْمُعْتَذِرِ وَشَأْنُهُ جَدِيرٌ بِأَنْ يَنْتَزِعَ مِنَ النَّفْسِ جَذْوَرَ الْكِبَرِ ، وَيَخْلُقَ التَّوَاضِعَ .
يقول ابنُ حِبَّانَ : « فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي اعْتِذَارِ الْمَرْءِ إِلَى أَخِيهِ خَصْلَةٌ تُحَمِّدُ إِلَّا نَفْيُ الْعُجْبِ عَنِ النَّفْسِ فِي الْحَالِ ، لَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَلَّا يُفَارِقَهُ الْعِذَارُ عِنْدَ كُلِّ زَلَّةٍ »^(١) .

(١) « روضة العقلاء » (١٨٤) .

❁ ذهاب الهم والحزن :

للاعتذار أثرٌ فوريٌّ مزودجٌ في تهدئةِ الخواطرِ ، وذهابِ الهمِّ وحصولِ الاطمئنانِ علىِ المعتذرِ ، والمعتذرِ إليه ، وذلك أنَّ وقوعَ المعتذرِ في الخطأِ يسببُ له في الغالبِ نوعاً من الألمِ ووخزِ الضميرِ ، ويقابلُ ذلكَ ما يقعُ في نفسِ المعتذرِ إليه من الألمِ والإهانةِ في حقِّه ، وإنَّ الاعتذارَ لخليقٍ أن يُعيدَ الأمورَ إلى مجاريها ، ويمسحَ كلَّ ألمٍ أو معاناةٍ ، فيُعيدَ للمعتذرِ المصدقيةَ والثقةَ في قلوبِ الآخرينَ ، ويُعيدَ للمعتذرِ إليه اعتبارهَ واحترامَ ذاته .

يقولُ ابنُ حَبَّانَ : « الاعتذارُ يُذهبُ الهمومَ ، ويُجَلِّيُ الأحزانَ ، ويدفعُ الحقدَ ، ويُذهبُ الصددَ »^(١) .

❁ أنه سبيل لإصلاح النفس ومعالجة السلوك :

يظهرُ ذلكَ بوقوفِ الإنسانِ موقفَ الإقرارِ بالخطأِ والذنبِ ، فإنَّ هذا الموقفَ نوعٌ من العقوبةِ الاختياريةِ يفرضُها الإنسانُ على نفسه ، تُشكِّلُ له رادعاً من وقوعه في موقفٍ مشابهٍ له ، وهو سبيلٌ لإعادةِ النظرِ في الأخطاءِ ومعالجةِ السلوكِ .

بعكسِ ما إذا مرَّ الإنسانُ على أخطائه مرورَ الكرامِ ولم يشعرْ بخطئه ، فإنَّ ذلكَ سبيلٌ لأنَّ يستهينَ بها ويعاودُ ارتكابها .

(١) « روضة العقلاء » (١٨٤) .

هَذَا وَمِمَّا يَنْبَغِي الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ ، وَالتَّأَكُّدُ عَلَيْهِ ، أَنَّ لِلْإِعْتِذَارِ آثَارًا فَاعِلَةً عَلَى الْمُسْتَوَى الْأُسْرِيِّ ، وَالْمُسْتَوَى الْجَمَاعِيِّ (الْمَجْتَمَعِ) ، وَسَأَتَحَدَّثُ عَنْ هَذِهِ الْآثَارِ فِيمَا يَلِي :

أ- آثار الاعتذار على مستوى الأسرة :

أولاً : نجدُ الأسرة تسودها المحبةُ والتفاهمُ وحسنُ المعاشرة ؛ لما للاعتذارِ من أثرٍ في إزالة ما في النفوسِ ، وإصلاح ما تخلل العلاقاتِ من الصَّدْعِ .

ثانياً : نجدُ أنَّ الأسرة التي نشأت على الاعتذارِ ينشأ فيها الصغيرُ نبيلَ المشاعرِ ، لديه الثقةُ والشجاعةُ في الاعترافِ بالحقِّ .

ب- آثار الاعتذار على مستوى المجتمع :

أولاً : المجتمعُ المعتذرُ عن أخطائه تقلُّ فيه المشاكلُ ، ويشتدُّ فيه الترابطُ ، فالاعتذارُ كفيلٌ بوادٍ الأخطاءِ في مهدها قبل أن تتفاقمَ ، ويُستصعبَ حلُّها .

ثانياً : المجتمعُ المعتذرُ أرقى أخلاقاً وأقومُ سلوكاً ؛ لأنَّ الاعتذارَ فيه تهذيبٌ للنفوسِ ، وتقويمٌ للسلوكِ المعوجِّ في حياةِ المجتمعِ .



الباب الثاني المعتذرون في القرآن الكريم

وفيه خمسة فصول :

الفصل الأول : اعتذار الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

الفصل الثاني : اعتذار سائر الخلق لله .

الفصل الثالث : الاعتذار للأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

الفصل الرابع : الاعتذار لغير الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

الفصل الخامس : الاعتذار في الحياة الآخرة .





الفصل الأول

اعتذار الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى

وفيه ستة مباحث :

المبحث الأول : اعتذار آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

المبحث الثاني : اعتذار نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

المبحث الثالث : اعتذار يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

المبحث الرابع : اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ،

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى

حينما طلب رؤيته .

المطلب الثاني : اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن قومه .

المطلب الثالث : اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى

حينما قتل نفساً بغير حق .

المبحث الخامس : اعتذار داود عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

المبحث السادس : اعتذار سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

المبحث الأول

اعتذار آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لله عَزَّوَجَلَّ

تكررت قصته اعتذار آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن في ثلاثة مواضع ، وفي كل مواضعها تقترب بأمير الملائكة وإبليس بالسجود لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم وسوسة الشيطان لآدم واستجابة آدم له ، ثم اعتذار آدم لربه ، وتختلف المواضع اقتضاباً وبسطاً ؛ فجاءت في البقرة موجزة ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٣٦﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ٣٧﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٣٨﴾ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿ [البقرة : ٣٤ - ٣٧] .

وفي الأعراف جاءت إيضاحاً لما سبق ذكره في آيات سورة البقرة ، وفي طه جاءت بياناً لسبب اعتذاره ، وعند النظر والتدبر نجد أن القصة أوجزت في سورة البقرة المدنية ، بعد أن فصلت ووُضِّحت في سورتي طه والأعراف المكيّتين ، وقد سلكت سورة طه في قصة اعتذار آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ مسلكاً خاصاً ؛ فلم يكن فيها حديث عن الخلق وابتدائه ، أو مَجْرَى حِوَارٍ من الله للملائكة أو إبليس ، كما كان في سورتي البقرة والأعراف ، بل بدأت الآيات الكريمة بقوله سبحانه : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُحِذِّ لَهُ عَزْماً﴾ [طه : ١١٥] .

وهذه براعة استهلالٍ يُتَشَوَّقُ إلى ما حدث بعدها من قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وقد أشارت الآية إلى أن التركيز في هذه القصة على خطأ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثم أخذت الآيات في التفصيل فيما حدث ؛ ﴿ فَقُلْنَا يَكَادُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلَزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه: ١١٧] ، فوجه الله سبحانه الخطاب لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أولاً ؛ ﴿ عَدُوُّكَ وَلَزَوْجِكَ ﴾ ، ثم ركّز الشقاء على آدم أيضاً ؛ ليكون أكثر حذراً من الشيطان الذي قعد له بالمِرصادِ بعد أن طرد من رحمة العزيز الغفار ، لكنَّ الشيطان بذل كل ما في وسعه لِيُغْوِيَهُ ^(١) ، وقد عرّف مواطن الضعف فيه ؛ ﴿ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَكَادُمْ هَلْ أَذُوكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾ [طه: ١٢٠] ، وإتماماً للإغواء أكد لهما مُقْسِماً أنه ناصح لهما ، وقد جاء ذلك في سورة الأعراف .

ونلاحظ في سورة طه أن التركيز على آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ ﴿ فَقُلْنَا يَكَادُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلَزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ ^(١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ^(١١٨) وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ [طه: ١١٧ - ١١٩] ، بخلاف ما كان في سورة الأعراف ؛ فقد كان الخطاب لآدم وزوجه معاً ، أمّا في البقرة فقد جاءت القصة بالصيغتين ، فجاءت بعض الآيات خطاباً لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحده ، وبعضها لهما جميعاً .

(١) اقتصار الشيطان على التسويل لآدم ، لعلمه بأن المرأة بزوجهما مركز في الجبل ، يقول ابن عاشور في قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ ^(١١٩) ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ وَقَتَابَ عَلَيْهِ وَهْدَى ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢] : « ورود إثبات العصيان لآدم دون زوجه يدل على أن آدم كان قدوة لزوجه ، فلما أكل من الشجرة تبعته زوجته » . ينظر : « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٣٢٧/١٦) .

وفي النهاية ظفر الشيطان بمقصوده ؛ ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوَاءُتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ [طه : ١٢١] ،
 لحكمة أرادها الله سبحانه^(١) ، ثم امتنَّ الله على آدم بالهداية ، فقدَّم توبته بكلماتٍ تلقَّاها من ربه جاءت في سورة الأعراف^(٢) .

يقول الطبريُّ في قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى ءَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ : « لَقَّاهما هذه الآية : ﴿ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ »^(٣) ، ﴿ قَالَ رَبَّنَا ﴾ نداءٌ مضافٌ ، والأصل « يا

(١) قد يشير العجب ما وقع من آدم عَلَيْهِ السَّلَام من الخروج عن أمر ربه ، وجملة الأمر أن الله كتب ذلك وقدره ؛ لحكمة يريد بها سبحانه ، يقول الرازي : « واعلم أن واقعة آدم عجيبة ؛ وذلك لأن الله تعالى رغبه في دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله : ﴿ فَقُلْنَا يَكَادُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [٧٧] إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ [٧٨] وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى » . ورغبه إبليس أيضا في دوام الراحة بقوله : ﴿ قَالَ يَكَادُمْ هَلْ أَذُوكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ ﴾ ، وفي انتظام المعيشة بقوله : ﴿ وَمُلْكٍ لَّا يَبْغَى ﴾ ، فكان الشيء الذي رغب الله آدم فيه هو الذي رغبه إبليس فيه ، إلا أن الله تعالى وقف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة ، وإبليس وقفه على الإقدام عليها ، ثم إن آدم عَلَيْهِ السَّلَام مع كمال عقله وعلمه بأن الله تعالى مولاه وناصره ومربيه ؛ أعلمه بأن إبليس عدوه ؛ حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للجنة بسبب عداوته ، كيف قبل في الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول إبليس ، مع علمه بكمال عداوته له ، وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه هو الناصر والمربي ؟! ومن تأمل في هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الأمر أن هذه القصة كالتنبية على أنه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه ، وأن الدليل ، وإن كان في غاية الظهور ونهاية القوة ؛ فإنه لا يحصل النفع به إلا إذا قضى الله تعالى ذلك وقدره . « مفاتيح الغيب » (١٠٧ / ٢٢) .

(٢) ينظر : « المحرر الوجيز » لابن عطية (٦ / ١) و « تفسير المراغي » (١٢١ / ٨) و « قصص القرآن الكريم » لفضل عباس (١٢٨ ١٢٩) .

(٣) « جامع البيان » للطبري (٥٤٢ / ١) .

ربنا « ، وقيل : في حذف « يا » معنى التعظيم ، ثم نَزَّها رَبَّهُما عن الظلم وأضافا الظلمَ إلى نفسِهما اعترافاً واستحقاقاً ، إذ كانا السببَ في وضعِهما أنفسَهما في هذا الموضع ، وقد جَزَمَا بأنهما يكونانِ من الخاسرين إن لم يغفرَ اللهُ لهما ، لاقتراحِهما ما نهى اللهُ عنه ، واستدلالاً على العواقبِ بالمبادئ ، فإنَّهما رَأَيَا من العصيانِ بوادئِ الضَّرِّ والشرِّ ، فعِلِمَا أنه من غضبِ اللهِ ومن مخالفةِ وصايته ، وقد أكَّدا جملةَ جوابِ الشرط بلام القسم ونون التوكيد ؛ إظهاراً لتحقيقِ الخُسرانِ استرحاماً واستغفاراً من الله تعالى^(١) .

يقول ابنُ عطية في قوله تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] : « اعترافٌ من آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وحواءَ وطلبٌ للتوبةِ والسَّترِ والتَّغْمُدِ بالرحمةِ ، فطلبَ آدمُ هذا ، وطلبَ إبليسُ النظرةَ ، ولم يَطْلُبِ التوبةَ ، فوَكِّلَ إلى رأيه »^(٢) .

فَقَبِلَ اللهُ منهما التوبةَ ، لكنَّ أَهْبَطَهُما من الجنة^(٣) إلى الأرض ، وَرَجَعَ كَيْدُ

(١) ينظر : « البحر المحيط » لأبي حيان (٢٦٧ / ١) و « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٦٧ / ٨) و « إعراب القرآن » للنحاس (٤٨ / ٢)

(٢) « المحرر الوجيز » (٣٨٧ / ٢) .

(٣) يظهر والله أعلم أن الجنة التي أخرج منها آدم هي جنة الخلد ، وقد استفاد البحث في المسألة ، والذي عليه الجمهور أنها جنة الخلد ، ومن أقوى أدلتهم ما أخرجه مسلم (١٩٥) من حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ ، فيقومُ المؤمنون حتى تُرْلَفَ لَهُم الجنةُ ، فيأتون آدمَ ، فيقولون : يا أبانا ، اسْتَفْتَحْ لَنَا الجنةَ ، فيقولُ : وهل أَخْرَجَكُمْ مِنَ الجنةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدمَ » .

وينظر : « الفصل في الملل والأهواء والنحل » لابن حزم (٦٩ / ٤)

العدو عليه ، وبطل مكرهه ، فتمت النعمة عليه وعلى ذريته ، ووجب عليهم القيام بها ، وأن يكونوا على حذر من هذا العدو المرابط الملازم لهم ، ليلاً ونهاراً ، المستمر معهم إلى يوم القيامة .

تأملات في اعتذار آدم عليه السلام :

❁ يظهر لنا من خلال ما سبق أن الخلائق ثلاثة أصناف من حيث الوقوع في الخطأ :

- ١ - الملائكة : وهم معصومون عن معصية الله تبارك وتعالى .
- ٢ - إبليس : وهو مطرود من رحمة الله مُصِرٌّ على المعصية ، مُعْرِضٌ عن التوبة .

٣ - الإنسان : وهو الذي تتصارع فيه قوى الخير والشر ، مجبول على الخطأ والزلل ، مأمور بالتوبة والاعتذار .

❁ الاعتذار الصادق من آدم عليه السلام يظهر في : مبادرته إلى الاعتراف والاعتذار . والإحساس العميق بظلم النفس مصحوباً بالضراعة إلى الله تعالى بالمغفرة والرحمة ، ولئن لم تكن المغفرة والرحمة ، لتحلن الخسارة ، وذلك هو الخسران المبين . وشدة ندم آدم عليه السلام على ما صدر منه ، ويؤكد ذلك موقفه يوم القيامة ، كما جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجمع الله تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تُرْلَفَ لهم الجنة ، فيأتون آدم ، فيقولون : يا أبانا ، استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل

أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَاطِيئَةً أَبِيكُمْ آدَمَ؟! ^(١) ، فما زال هذا الذنب يُساورُهُ مع ما قدّم من اعتذاره وتوبته .

❁ أن في سرعة مبادرة آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الاعتذار دعوةً إلى ذلك ، كما أن في استفتاح آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اعتذاره بلفظ الربوبية دعوةً لاستفتاح الاعتذار بأفضل الألفاظ .

يقول السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ : « ينبغي للعبد إذا وقع في ذنب أن يُبادر إلى التوبة والاعتراف ، ويقول ما قاله الأبوان من قلب خالص ، وإنابة صادقة ؛ فما قصّ الله علينا صفة توبتهما إلا لنقتدي بهما فننور بالسعادة ، وننجو من الهلكة » ^(٢) .

❁ عبّر آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في اعتذاره لربه عن معصيته بلفظ « الظلم » ، فليحذر الإنسان من أن يظلم نفسه بالمعاصي ، ذلك أن معصية المرء ربه ظلم لنفسه ؛ لأنه يورّطها في العقوبة ، باعتدائه على ما يغضب ربه ، وقد جاء التعبير عن ذلك في عدة مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] ، وقوله سبحانه : ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النمل : ١١] .

❁ أن آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا لم يستغن عن الاعتذار مع علوّ شأنه ، فالواحد منا أولى بذلك ، وفي اعتذاره موعظةٌ لذريته حيث عرّفوا كيفية التنصّل من الخطأ .

(١) أخرجه مسلم (١٩٥)

(٢) « قصص الأنبياء » للسعدي (١٩)

❁ بَسَطُ الأمل لبني البشرِ للاعتذارِ بالنسيانِ في الالتزامِ بالتكاليف ؛ فإنما نحن أبناءُ آدمَ ، وَيَعْتَرِينَا من النسيانِ ما يَعْتَرِي أبانا وزيادةً .

❁ هبوطُ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الأرض -بعد خطئه وقبولِ اعتذاره- إشارةٌ إلى أنه قد يُقْبَلُ الاعتذارُ مع عدمِ بقاءِ الحالِ على ما كان .

❁ اجتمع في اعتذارِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله : ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دواعي القبولِ ؛ إذ اعترف بالمخالفة ونديم عليها ، ولَمْ نَفْسِهِ ، وسارعَ إلى التوبة ، ولم يَقْنَطْ من الرحمة ، كما اجتمع في مُحاجةِ إبليسَ لله في قوله : ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] ، دواعي رفضِ الاعتذارِ ؛ إذ لم يُفَرِّ بالذنبِ ، ولم يندم ، وقنط من الرحمة ، واستكبر ، وعارضَ رَبَّهُ .

يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ في حُجَّةِ إبليسَ : « هي باطلةٌ ؛ لأنه عارضَ النصَّ بالقياسِ ، ولهذا قال بعضُ السلفِ : أولُ مَنْ قاسَ إبليسُ ، وما عُدَّت الشمسُ والقمرُ إلا بالمقاييسِ »^(١) ، فَمَنْ أَشَبَّهَ آدمَ بالاعترافِ والاعتذارِ إذا صَدَرَتْ منه الذنوبُ ، اجتباه رَبُّهُ وهداه ، وَمَنْ أَشَبَّهَ إبليسَ إذا صَدَرَ منه الذنبُ ، فإنه لا يزدادُ من الله إلا بُعْداً .

❁ صدقُ العبدِ مع الله سببٌ في التوفيقِ للتوبةِ والقبولِ ؛ يقول ابنُ سعدي في توبةِ الله على آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « وتوبتهُ نوعانِ : توفيقُهُ أوَّلاً ، ثم قبولُهُ للتوبةِ »^(٢) ، وما كان هذا إلا لصدقه مع رَبِّهِ .

(١) « تفسير شيخ الإسلام » جمع إياد القيسي (١٣٨/٣) هذا وقد فصل شيخ الإسلام في فساد حجته .

(٢) « تيسير الكريم الرحمن » (٥٠) .



المبحث الثاني

اعتذار نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لله عَزَّوَجَلَّ

جاءت قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ نبراساً للقصاص القرآني في عشر سور مكية، في كل موضع منها إشارة تُضيف إلى شخصية نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ صبغةً جديدةً، ولكن سورة هود استأثرت بتفصيل مطوّل عن قصته، يُشبه من حيث الطول ما جاء في سورة نوح التي سُميت باسمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحق أن في قصة نوح في سورة هود دروساً هاديةً هادفةً، تطلُّ نبراساً مَهْماً تباعد الزمن، وتطاوَلت الدهور؛ فلقد فصلت السورة الشبهات التي جابهَ بها قومه، كما فصلت الردَّ عليها، ثم حكّت تفاصيل نهاية قومه، ومن سبق عليه القول من أهله، ثم انتهت القصة بثلاث آيات في مسألة فرعية لا من صلب القصة وأصول وقائعها، فقد انتهت بموقف تربويٍّ إيمانيٍّ، قدّم فيه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ اعتذاره لربه، تفرّدت به سورة هود، ولم يتكرّر هذا العرض في سورة أخرى، وقد صبغ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا الاعتذار صبغةً فريدةً؛ ذلك أنه حينما نفذ أمر الله، أفلعت السماء، وتوقّف نزول الماء، وخضعت الأرض، وابتلعت تلك الأمواج العاتية، وأنجز الله ما وعد نوحاً من إهلاك قومه؛ نادى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الشديد الذي قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، نادى ربه بنجاة ابنه^(١): ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ وَ

(١) ينظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٢٧/١) «تيسير المنان في قصص القرآن» لأحمد فريد (٥٠) و«قصص القرآن الكريم» لفضل عباس (١٨٦).

فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكِيمِينَ ﴿٤٥﴾ [هود: ٤٥] ،
إِذِ التَّبَسَّ عَلَيْهِ الْأَمْرُ بِنَجَاةِ ابْنِهِ^(١) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾: «... ظاناً أنه دخل في جملة مَنْ وُعد بنجاتهم»^(٢) ، وقد راعى نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ذلك الطلب الأدب مع ربه سبحانه ، وحسن السؤال ؛ فقال : ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ ، ولم يقل : إنك لا تخلف الميعاد ، ثم ردَّ الأمر إلى العالم العادل الحكيم في تدبيره ، فجاءه التنبيه العاتبُ من ربه : ﴿قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَنْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] ، حينها أدرك نوحٌ أنه قد زلَّ في حق ربه ؛ فقدم بديع اعتذاره : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] .

يقول فيه الخازن : « ألبأ إليك ، واعتذر إليك : ﴿أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ؛ إنك أنت علام الغيوب ، وأنا لا أعلم ما غاب عني ، فأعتذر إليك من مسألتي ما ليس لي به علم ، ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي﴾ يعني : جهلي وإقدامي على سؤال ما ليس لي به علم ، ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿أَكُنْ مِنْ

(١) ما كان من سؤال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لربه في أمر ابنه لا يدخل في المعصية ؛ يقول محمد رشيد رضا : « إن سؤال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ما سأله لابنه لم يكن معصية لله تعالى خالف فيها أمره أو نهيه ، وإنما كانت خطأ في اجتهد رأي بنية صالحة ، وإنما عدها الله تعالى ذنباً له لأنها كانت دون مقام العلم الصحيح بمنزلته من ربه ، هبطت بضعفه البشري وما غرس في الفطرة من الرأفة والرحمة بالأولاد إلى اتباع الظن » . « تفسير المنار » (١٢/ ٧٢) .

(٢) « تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية » للقيسي (٣/ ٥٤٣) .

الْخَيْرِينَ ﴿١﴾ ، فاستعاذ بالله ، والمستعِذُّ طالبٌ ، والطالبُ راجٍ وطامعٌ في نيل المطلوبِ من أن يسأله سبحانه ما لا علم له يقيناً بصحته ، خروجاً من حوله وقوته ، في اتقاء ما يُغضب ربّه فيما يَستقبلُ من أمره ، وتأدّباً واتعاظاً بموعظته سبحانه ، وهذا اعتذارٌ من نوح **عَلَيْهِ السَّلَامُ** وإنابةٌ لربه ، وتسليمٌ لأمره ، ختمه بطلب المغفرة ثم الرحمة من ربه ، وإن لم يكن ذلك بآءٍ بالخسارة العظيمة ، فقَبِلَ اللهُ اعتذاره ، وأنزل عليه غفرانه ، وأسبغ عليه بركاته ، وعلى الصالح من نسله ؛ ﴿قِيلَ يَنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ [هود: ٤٨] .

تأملات في اعتذار نوح **عَلَيْهِ السَّلَامُ** :

❁ استفتاحُ نوح **عَلَيْهِ السَّلَامُ** اعتذاره بنداء الربوبية ؛ استجلاباً لإحسانِ الربِّ وغُفرانه .

❁ مبادرةُ نوح **عَلَيْهِ السَّلَامُ** بالاعتذار ، من فورِهِ ، بعد عتابِ اللهِ له وظهورِ الحق لديه ، وذلك يدلُّ على ندمه ورغبته في الخروج من خطئه ، وذلك خُلُقُ الأنبياء الذي ينبغي أن يُقتدى به .

❁ حصرُ نوح **عَلَيْهِ السَّلَامُ** اعتذاره فيما ليس له به علمٌ ، دليلٌ على أن ما كان منه ، اجتهادٌ بنية صالحة ، كما أن استجارته بالله من أن يعصيه في مستقبل الزمان فيما ليس له به علمٌ ، وعدمُ حصرِ تعوذه فيما صَدَرَ منه من ذنبٍ ؛ مبالغةٌ في الاعتذار .

❁ استعاذه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من أن يعصي الله فيما ليس له به علمٌ ، إشارةً إلى أن ذلك أمرٌ محذور لا مفرٍّ منه إلا بالعوذ بالله سبحانه .

❁ تفرَّد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ببديعِ اعتذاره في القرآن ؛ في التوبة مما مضى والاستعاذه مما هو آتٍ .

❁ حَمَلَ اعتذارُ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ معاني عظيمَةً ، ولهجةً صادقةً ، استجلب بها قبولَ الله وامتنانه عليه وعلى الصالح من نسله : ﴿ قِيلَ يَنْحُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ﴾ ، فالكريم سبحانه حينما قبل منه زاده في العطاء فوق المأمول والمُرتجى ، فبهذا القبول والإكرام فليقتد .



المبحث الثالث

اعتذار يونس عليه السلام لله عز وجل

أول إشارة تحدثت عن قصة اعتذار يونس ذي النون^(١) عليه السلام جاءت في سورة القلم ، وهي السورة التي جاءت تسلياً للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ قال سبحانه : ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۖ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَن نَّادَرَكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّي لَنُذِ بِالْعَرْكِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۖ﴾ [القلم : ٤٨ - ٤٩] ، وفي هذه الآية إشارة إلى القصة من غير تفصيل أو بيان لما هيّة الأمر والأسباب ، وهي إشارة تنوِّق النفوس وتشوِّق إلى ما سيأتي بعدها من تفصيل ، وقبل أن تنتقل إلى تفصيلها ، نقف على بديع التعبير القرآني في الإشارة إلى حفظ الله ليونس عليه السلام وعنايته بأوليائه في هذه الآيات ؛ فقد جاء التعبير عن يونس عليه السلام بـ «صاحب الحوت» ، ومن المعلوم أن الصَّحْبَ في اللغة يأتي بمعنى الحِفْظ ؛ ومنه قولهم : لا صحبه الله : أي لا حِفْظه ، ويقال : بأهله صُحْبَةُ الله ، وصاحبه أي حِفْظه^(٢) ، وإن من تسخير الله تعالى ليونس عليه السلام أن جعل ما هو سبب في الهلاك سبباً في نجاته وحفظه .

ثم تأتي سورة الصافات لتبين جزءاً كبيراً من موقف يونس عليه السلام :

(١) ذو النون : أي صاحب النون . والنون : الحوت . وإنما عنى بذى النون : يونس بن متى ، « جامع البيان » للطبري (٣٧٤ / ١٦) .

(٢) « جمهرة اللغة » لابن دريد ، (٢٨٠ / ١) مادة (صحب) .

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ [الصفات: ١٣٩ - ١٤٤]، فقد دعا قومَه فأبَوْا، وكرَّر عليهم فأبَوْا، فوعدهم العذاب وخرج من بين أظهرهم، ولم يصبر الصبر الذي ينبغي، ولكنه أبق مغاضبًا لهم، فركب في سفينة موقرة أي ممتلئة من الركاب والأحمال، فلمَّا توسَّطوا البحرَ شارفت على الغرق، ودار الأمر بين أن يبقوا جميعًا فيهلكوا، وبين أن يلقوا بعضهم بمقدار أن تخفَّ السفينة فيسلم الباقيون، فاختاروا الأخير لعدْلهم وتوفيقيهم، فافتَرعوا فأصابَت القرعة أناسًا منهم، ومنهم يونس **عليه السلام**، ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾؛ أي المغلوبين في القرعة، فألقوه فالْتَقَمه الحوت وهو على حالٍ يلام عليها؛ لاستعجاله في ترك قومِه^(١)، ولكن عناية الله حاطته؛ فلم يكسر له عظمًا ولم يمزغ له لحمًا، وهكذا عناية الله بعباده المؤمنين وبأنبيائه خاصَّة^(٢)، ألم تأت النار على إبراهيم بردًا وسلامًا؟ ولذلك عبَّر عن ذلك بالالتقام ﴿فَالْتَقَمَهُ﴾ إشارة إلى أكله من غير

(١) نهى النبي **صلى الله عليه وسلم** أن يُفضِّل أحد من نفسه على يونس **عليه السلام**، فعن ابن عباس، عن النبي **صلى الله عليه وسلم**، قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى». يقول ابن القيم: «تشديد أن يقع تنقيص له في نفس من سمع قصته، فبالغ في ذكر فضله لشد هذه الذريعة». «تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته مع عون المعبود» (٢٧٩/١٢)

والحديث: أخرجه البخاري (٣٣٩٥) ومسلم (٤٣)

(٢) ينظر: «جامع البيان» للطبري (٣٨٤/١٦) و«التحرير والتنوير» لابن عاشور (٦٧/١) و«تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (٧٠٧، ٥٢٩).

مَضُغ ، وفي اللغة يُقال : التَّقَمَ الشَّيْءَ : أي بلعه ، وَلَقِمَ الشَّيْءَ لَقْمًا : أي أكله بِسُرْعَةٍ^(١) .

وحين أصبح في بطنِ الحوتِ أدرك خطأه ، فنادى ربّه ، وأحدث التوبة والاعتذار ؛ كما جاء في سورة الأنبياء ؛ قال سبحانه : ﴿وَذَا النُّوْبِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء : ٨٧ - ٨٨] ، فقد خرج يونس **عليه السلام** وظنَّ أن لن يضيق الله عليه في أمرِ قومِه ، وسيختارُ له ما هو أفضل ، فلمَّا أن حَدَثَ ما حَدَثَ في السفينة وعلى البحر ، وصار في جَوْفِ الحوتِ ؛ نادى ربّه نداءَ الفقيرِ الذليل ؛ لعلمِه بخطئه : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ ، نادى ربّه بنداءِ الألوهية ؛ لأنه هو الإلهُ الحقُّ الذي لا تحقُّ العبادةُ إلا له ، ولا يصحُّ أن يُسألَ غيره .

يقولُ شيخُ الإسلام في قوله تعالى : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ﴿٨٧﴾﴾ : « ... يتضمَّن البراءة مِمَّا سَوَّى اللهُ مِنَ الْآلِهَةِ الْبَاطِلَةِ ؛ سواءٌ صَدَرَ ذَلِكَ عَنْ هَوَى النَفْسِ ، أَوْ طَاعَةِ الْخَلْقِ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ »^(٢) ، فلفعلُه ما يُلامُ عليه ، ناسبَ هنا أن يعترفَ بأنّه لا إله إلا الله ، للبراءة من نفسه ، والنجاة من شباكِها ، وذلك بإخلاصِ العبودية لله ، والبراءة من كل شيء ، حتّى من نفسه هذه ، والاستسلام لله الذي لا إله إلا هو ،

(١) « المعجم الوسيط » مجمع اللغة (٢ / ٨٣٥) مادة (لقم) .

(٢) « تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية » للقيسي (٤ / ٣٧٨) .

ثم قال : ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لله عن كل ما لا يليق به ، فكانت إتماماً لما قبلها في الاعتذار إلى الله ، ثم اعترفَ بظلمه لنفسه : ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ؛ يعترفُ بحقيقة حاله ، ويعترفُ بذنبه . يقول شيخ الإسلام في قوله تعالى : ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ : « اعترافٌ بالذنب ، وهو يتضمنُ طلبَ المغفرة ؛ فإن الطالبَ السائلَ تارةً يسألُ بصيغةِ الطلبِ ، وتارةً يسألُ بصيغةِ الخبرِ »^(١) ، ومن هنا قبل الله توبته واعتذاره^(٢) ، ونجّاه من بطن الحوت ، وامتنَّ عليه بظلِّ شجرةِ اليقطينِ ، تُظِلُّه بظلِّها الباردة ، وتحفظُه من الحشرات ، وقد قال ابنُ أبي الصَّلْتِ^(٣) قبل الإسلام في ذلك بيتاً من شعر :

فَأَنْبَتَ يَقْطِينًا عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ
مِنْ اللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ الْفِي ضَاحِيَا^(٤)

(١) « تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية » للقيسي (٤/ ٣٧٨) .

(٢) ما تضمنته قصة ذي النون مما يلام عليه كله مغفور ، بدله الله به حسنات ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « ... فكانت حاله بعد قوله : (لا إله إلا أنت سبحانك) إني كنت من الظالمين (أرفع من حاله قبل أن يكون منه ما كان ، والاعتبارُ بكمالِ النهاية ، لا بما جرى في البداية ، والأعمالُ بخواتيمها » . « مجموع الفتاوى » (١/ ٢٩٩)

(٣) أمية بن أبي الصَّلْتِ : هو أمية بن أبي الصَّلْتِ بن أبي ربيعة ، وأمه رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف ، علامة عصره علماً وكتابةً وشعراً وروايةً ، قال أبو عبيدة : اتفقت العرب على أن أمية أشعر ثقيف ، نظر أمية في الجاهلية إلى الكتب وقرأها ، حرّم الخمر وتجنب الأوثان ، ذكره ابن السكن في الصحابة ، وقال : لم يدركه الإسلام ، وقد صدّقه النبي ﷺ في بعض شعره ، قيل : إنه مات سنة تسع من الهجرة بالطائف .

ينظر : « الشعر والشعراء » لابن قتيبة (١/ ٤٥٠) و« طبقات فحول الشعراء » لابن سلام (١/ ٢٥٩) و« الإصابة في تمييز الصحابة » لابن حجر (١/ ٣٨٥) و« ديوان أمية بن أبي

الصَّلْتِ » (٨)

(٤) « البداية والنهاية » (١/ ٢٥٦) . والبيت في « ديوانه » (٦٥) .

وهذا من لُطفه وكرمه سبحانه ، ثم امتنَّ عليه مرةً أخرى بأن أرسَلَه إلى مائة ألفٍ أو يزيدون ، فدعاهم إلى الله تعالى ، حتى صاروا في موازينِ أعمالِه^(١) .

هكذا جاءت قصةُ يونسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في عدةِ سُورٍ ، متسقة الحَلَقَاتِ ، مرتبةً الحوادثِ ، وُخِّمَتْ بتعقيبِ هادِفٍ : ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

تأملات في اعتذار يونسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

❁ الحقُّ أنَّ اعتذارَ يونسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حقيقٌ بالدرسِ ؛ فقد جاء موجزًا مجملًا لطيفًا ، يَنْضَحُ أدبًا وتقديرًا لله ، وقد عاشَ بهذا الاعتذارِ حقيقةً أن لا إله إلا الله ، واستشعرَ أن لا إله إلا الله ، وأدركَ فعلاً أنه لا نافعَ ولا ناصرَ إلا الله ، فَنطَقَ بها لسانه ، واستحضرها قلبه ، وعاشها بكيانه .

❁ اعتذارُ يونسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء بصيغةِ الخبرِ المتضمنِ للسؤالِ ، وهذا من بابِ حُسْنِ الأدبِ في السؤالِ ؛ لِمَا فيه من إظهارِ حاله على وَجْهِ الذُّلِّ والافتقارِ ؛ ولذلك جاء في حديثِ سَعْدٍ ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ »^(٢) .

❁ في وصفِ يونسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الصَّافَّاتِ بأنه من المسبِّحين ، إشارةً إلى سببِ نجاتِه ، وقد جاء في تفسيرها عِدَّةٌ أَوْجُهٍ : أحدها : من القائِلين : لا إله

(١) ينظر : « تيسير الكريم الرحمن » للسعدي (٧٠٧) .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٠٥) وصححه الألباني « صحيح الجامع الصغير وزيادته » (٦٣٧ / ١) .

إلا أنت سبحانك إنِّي كنتُ من الظالمين ، قاله الحسنُ . الثاني : من المصلِّين ، قاله ابنُ عباس . الثالثُ : من العابدين ، قاله وهبُ بنُ مُنبه^(١) ، وأياً كان تفسيرُها فهي إشارةٌ إلى أنَّ العملَ الصالحَ شفيعٌ لصاحبه ، وسببٌ لقبولِ اعتذاره .

❁ في خاتمة قصة اعتذارِ يونسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تقريرٌ لحقيقةِ إيمانيةٍ مُطردةٍ : أن العبدَ إذا كان له سابقةٌ مع ربِّه من العملِ الصالح ، كان ذلك سبباً لقبولِ اعتذاره ؛ ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، وفي هذه الآية كما يقول ابنُ عُثَيْمِينَ : « ترغيبُ المؤمنين في الإيمان ، بالثباتِ عليه والازديادِ منه »^(٢) .

❁ في الآيات دلائلٌ على قبولِ الله لاعتذارِ يونسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، منها ما كان صريحاً كما جاء في قوله تعالى : ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، ومنها ما كان مفهوماً من خلال الآيات ؛ ومن ذلك : قوله تعالى : ﴿لَوْلَا أَنْ تَدْرِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ المعنى : أنه نُبِذَ بالعراء وهو غيرُ مذموم ، ولولا رحمةُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَنُبِذَ بالعراء وهو مذموم^(٣) ، وهذا دليلٌ على قبولِ معذرتِهِ .

كما يدلُّ على ذلك قوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٢٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ، وقد بيَّنا سابقاً أن التسييحَ كان سبباً لقبولِ اعتذاره ، وخروجه من بطن الحوت .

(١) « النكت والعيون » (٦٧ / ٥) .

(٢) « تفسير القرآن الكريم » (٥٨ / ١) .

(٣) ينظر : « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (١٢٩ / ١٥) .

لطائفُ الله التي حاطَتْه بعد نَبْذِهِ بالعراء ، فقد أنبت اللهُ عليه شجرةً من يقطين
لترُدَّ عنه كثيرًا من الغوائلِ ، وأرسله إلى مائةِ ألفٍ أو يزيدون ، فاستجابوا له
بنعمةٍ من الله وفضلٍ منه .





المبحث الرابع

اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لله عَزَّوَجَلَّ

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى حينما طلب رؤيته .

المطلب الثاني : اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن قومه .

المطلب الثالث : اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى حينما قتل نفسا بغير

حق .



المطلب الأول

اعتذار موسى لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى حينما طلب رؤيته

تميّز موسى عَلَيْهِ السَّلَام عن سائر الأنبياء والرسل بأنه كليّم الله ، كَلَّمَهُ رَبُّهُ ، وأنزل عليه التوراة المتضمنة للرسالة والتشريع ودستور الحياة ، وتمت المكالمة بعد أن أخبر الله نبيه عن موعد محدد يتهيأ فيه للمناجاة ، فتمّ ميقاتُ رَبِّهِ بعد أربعين ليلةً ، وفي هذا احتفاءً بموسى وتكريماً له ، فناداه سبحانه وقربه وأذناه ، وهذا مقامٌ رفيعٌ ومَعْقِلٌ منيعٌ وَمَنْصِبٌ شريفٌ ، أدرك فيه موسى عَلَيْهِ السَّلَام ما خصّه الله به من الكرامة ، وتآقت نفسه إلى مزيدٍ من الفضل ، واستشرفت نفسه إلى أن يرى الله بعينه ، ليجمع الفضل من طرفيه ، طرفِ السمع وطرفِ البصر ؛ ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] بأن تكشف الحُجُبَ عني ، حتى أنظر إلى ذاتك المقدسة من غير واسطة ، كما أسمعني كلامك من غير واسطة ، حينها جاء الرد الحاسم : ﴿قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنَّ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] والجبل أمكن وأثبت من الكيان البشري ، لكنه لم يتحمل لمحةً من لمحات الذات الإلهية ، فساخت نتوءاته ، فبدا مسوئاً بالأرض مدكوكة ، ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعَقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] ، مغشياً عليه ، فلما أفاق ثاب إلى نفسه واستشعر أنه تجاوز المدى بسؤاله ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ، تنزهت وتعاليت أن

تُرى بالأبصار وتُدرك ، وفي تصدير توبته بـ : « سبحانك » اعتذارُ الله عن تجاوزِ المدى في السؤال ، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تأكيدٌ للاعتذار ، وأكثرُ المفسرين على أن المراد بقوله : ﴿أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ : أن الله لا يرى في الدنيا ، لا أن الرؤية غير ممكنة في نفسها ، وغير واقعة ألبتة .

حينها أدركت موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** رحمته سبحانه ، وزاده الكريمُ بُشرى الاصطفاء مع التوجيه له بالرسالة إلى قومه ، ولا شك أن ذلك من أعظم النعم ^(١) .

تأملات في اعتذار موسى لله تبارك وتعالى من طلب رؤيته :

❁ قول « سُبْحَانَكَ » تنزيهٌ لله عما لا يليق به ، واعتذارٌ له ، وقد تصدرت هذه الكلمة اعتذار الملائكة ويونس وموسى **عَلَيْهِمَا السَّلَامُ** لله تبارك وتعالى ؛ تنزيهاً لله عما أقدموا عليه في حقه سبحانه .

❁ مبادرة موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** بالاعتذار ، وهذا يظهر من دلالة قوله سبحانه : ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، فإن « لَمَّا » من أدوات الشرط غير الجازمة ، وتفيد الظرفية الزمانية ، وتسمى حرف وجود لوجود ، فلما وجدت الإفاقة وجد الاعتذار ، وفي سبق الأداة بالفاء ، الدالة على الترتيب والتعقيب ؛ دلالة على أن موسى اعتذر من فوره بعد الإفاقة .

❁ تأكيد الاعتذار بعدة معانٍ : كقوله : ﴿بُنْتُ إِلَيْكَ﴾ ، وقوله : ﴿أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، وفي هذا إشارة إلى ندم موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** وصدق اعتذاره ،

(١) ينظر : « تفسير السمعاني » (٢ / ٢١٣) و « زاد المسير » لابن الجوزي (٢ / ١٥٢) و « تفسير المنار » لرشيد رضا (٩ / ١١٠) و « في ظلال القرآن » لقطب (٣ / ١٣٦٩) .

والرغبة الشديدة في العفو والصفح عمّا بَدَرَ منه ، وفي هذا الاعتذارِ من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلماحاً إلى أنّ من مُوجِبَاتِ قَبُولِ الاعتذارِ تكريرَ معاني وعباراتِ الاعتذارِ في الوقتِ الواحدِ ، وذلك أرجى في القبولِ .

❁ قبولُ الكريمِ سبحانه لاعتذارِ نبيّه ، والامتنانُ عليه بالكتابِ والرسالةِ ، وهذا حالُ الكريمِ إذا عفا وقبلَ الاعتذارَ .



المطلب الثاني

اعتذار موسى عليه السلام لله عز وجل عن قومه

لَمَّا تَابَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ ، وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَتْلِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا كَمَا أَمَرَهُمْ ، أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى أَنْ يَأْتِيَهُ فِي نَاسٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ ، وَوَعَدَهُمْ مَوْعِدًا ، فَاخْتَارَ مُوسَى سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِهِ ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِمْ لِيَعْتَذِرُوا ، فَقَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ، فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ وَمَاتُوا ، حِينَهَا أَدْرَكَ مُوسَى عِظَمَ الْأَمْرِ وَهَوْلَ مَا جَرَى ، فَقَامَ ينادي اللَّهَ بِنْدَاءِ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَيُنَاشِدُهُ وَيَرْغُبُ إِلَيْهِ ، بِالْمَعَانِي الْمُتَنَوِّعَةِ لِلْإِعْتِذَارِ ، فَاسْتَفْتَحَ اعْتِذَارَهُ أَوَّلًا بِقُدْرَةِ اللَّهِ الْمُطْلَقَةِ عَلَى إِهْلَاكِ الْقَوْمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْتَرِبُوا مِنْ هَذِهِ الْحَضْرَةِ الْمُقَدَّسَةِ ، فَكَيْفَ بِهِمْ وَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَضْرَةِ الْمُقَدَّسَةِ؟ فَالرَّحْمَةُ أَوْلَى ، ثُمَّ قَدَّمَ اعْتِذَارَهُ بِأَسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ اسْتِعْطَافًا وَاسْتِجْلَابًا لِعَفْوِ اللَّهِ ، بِأَنَّ مَا صَدَرَ كَانَ عَنْ سَفَهَاءِ الْأَحْلَامِ وَضَعْفَاءِ الْعُقُولِ ، ثُمَّ كَرَّرَ الْإِعْتِذَارَ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى ، فِيهَا بَيَانٌ مُنْشَأً غَلْطَهُمْ ؛ فَمَا الْفِتْنَةُ الَّتِي وَقَعُوا فِيهَا ، وَقَالُوا فِيهَا مَا قَالُوا ، إِلَّا فِتْنَةُ اللَّهِ وَابْتِلَاؤُهُ ، فَمَنْ حَضَرَهُ عَقْلُهُ وَرُشِدُهُ نَجَا وَلَمْ يَزَلْ مُسْتَقِيمًا ، وَأَمَّا مَنْ ضَعُفَ عَقْلُهُ وَسَفُهُ رَأْيِهِ ، وَصَرَفَتْهُ الْفِتْنَةُ فَهُوَ الَّذِي فَعَلَ مَا فَعَلَ ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ فَأَنْتَ وَلِيُّنَا ، أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَخَيْرُ الْغَافِرِينَ ، فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لِعِذَارِهِ ، وَأَحْيَاهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ ، وَغَفَرَ لَهُمْ ^(١) .

(١) ينظر: «جامع البيان» للطبري (١٣/١٤١) و«معالم التنزيل» للبغوي (٢/٢٣٧) و«نظم

تأملات في اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ قَوْمِهِ :

تتعدد معاني وصيغ الاعتذار في قصة اعتذار موسى لله عن قومه كما يأتي :

✽ التذكير بالعفو السابق لاستجلاب العفو اللاحق ، فالاعتراف بالذنب وشكر المنعم مما يستجلب العفو ، أي : يا رب إِنَّا كُنَّا مُسْتَحِقِّينَ لِلْإِهْلَاكِ ، ولم يكن من موانعه إلا عدم مشيئتك إِيَّاهُ ، أَمَا وَقَدْ لَطُفْتَ بِنَا وَعَفَوْتَ عَنَّا مِنْ قَبْلُ ، فاللطف بنا الآن من كريم عادتكَ^(١) .

وفي ذلك يقول ابن القيم : « هذا استعطاف من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لربه ، وتوسُّل إليه بعفوه عنهم من قبل ، حين عبد قومه العجل ... يقول موسى : إِنْهُمْ قَدْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ مَا يَقْتَضِي هَلَاكَهُمْ ، ومع هذا فَوَسَّعَهُمْ عَفْوَكَ وَمَغْفِرَتُكَ ، وَلَمْ تُهْلِكْهُمْ ، فَلْيَسَّعْهُمْ الْيَوْمَ مَا وَسَّعَهُمْ مِنْ قَبْلُ »^(٢) .

✽ الاعتذار جاء بصيغة الاستفهام زيادة في الاستعطاف ؛ للعفو وقبول الاعتذار ، أي : يا رب إِنَّهُ لِمُسْتَبَعْدٌ عَلَيَّ رَحْمَتِكَ أَنْ تُهْلِكَنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنْ قَوْمِنَا .

يقول السعدي : « فتضرع إلى الله ، واعتذر بأن المتجرئين على الله ليس لهم عقول كاملة تردهم عما قالوا وفعلوا »^(٣) .

الدرر « للبقاعي (١٠٢ / ٨) و « إرشاد العقل السليم » لأبي السعود (٢٧٧ / ٣) .

(١) ينظر : « إرشاد العقل السليم » (٢٧٧ / ٣) .

(٢) « إغاثة اللهفان » (٣٠٧ / ٢) .

(٣) « تيسير الكريم الرحمن » (٣٠٤) .

❁ إعادة الاعتذار بمعنى آخر ، عمدته أن ما وقع ما هو إلا فتنة ؛ يهدي الله بها من يدركون طبيعتها ويأخذونها على أنها ابتلاء من ربهم ؛ فيجتازونه صاحين عارفين ، ويضل الله بها من لا يدركون ذلك فيمرون بها غافلين ، ويخرجون منها ضالين .

يقول ابن جزي : « هذا اعتذار عن فعل السفهاء ؛ فإنه كان بقضاء الله ومشيتته »^(١) .

❁ ثم يرجع إلى الاستعطاف مرة أخرى ، يُثني فيها على الله ، ويلتجئ إلى رحابه ، ويطلب منه التجاوز عن الزلة ، وأن يشملهم بالرحمة .

❁ ومن هذا ندرك أن الاعتذار قد تعدد صيغه وأساليبه في الموقف الواحد ، استجلاباً للقبول ، وإظهاراً للندم والصدق في الاعتذار ، وهذا من براعة الاعتذار كما كان من موسى عليه السلام .

❁ قد يتولّى الاعتذار غير صاحبه ، لمصلحة ترجى في ذلك ، أو لعدم قدرة صاحبه على الاعتذار ، كما حدث من موسى عليه السلام حينما هلك قومه ، وأخذتهم الرجفة .



المطلب الثالث

اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِّلَّهِ عَزَّوَجَلَّ

حينما قتل نفساً بغير حق

اعتذارُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من القتلِ كان أولَ اعتذارٍ نصَّ عليه القرآنُ في حياته ، إذ كان في مرحلة فتوَّته وشبابه ، حينما كان تحتَ مُلكِ فرعونَ وسُلطانِه ، وقبل أن يُكرِّم بنبوته ، وقد جاءتِ الإشارةُ إليه في سورة الشعراءِ الجامعة لقصاص الأنبياء ، من غيرِ بيانٍ لسببِ قتله لهذه النفس ، ولا أيِّ إيضاحٍ ، ولكن في سورة القصص جاء الخبرُ في قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِمَا فَتَغَنَّى الَّذِي مِنَ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص : ١٥] ، حيث دخل المدينة^(١) على حين غفلةٍ من أهلها ؛

(١) المدينة : اسم مدينة فرعون بمصر ، وأول من سكن مصر بعد أن أغرق الله تعالى قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ببصر بن حام بن نوح فسكن منف وهي أول مدينة عُمِّرت بعد الغرق هو وولده وهم ثلاثون نفساً ، ومعنى « مافه » بلسان القبط ثلاثون ، ثم عرِّبت فقبل « منف » ، وهي المرادة بقوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص : ١٥] ، بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ ، وبينها وبين عين شمس ستة فراسخ ، وبمنف آثار الحكماء والأنبياء وبها كان منزل يوسف الصديق ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ومن كان قبله ومنزل فرعون موسى وكانت له عين شمس ، والفسطاط اليوم بين منف وعين شمس ، ولا زالت عامرة مأهولة بالسكان معروفة من خلال تاريخها . ينظر : « معجم البلدان » للحموي (٢١٣ / ٥) و « معجم الأمكنة » لابن جنيد (٣٤٣) .

قيل : في وقت راحتهم وقيلولتهم ، وقيل : ما بين المغرب والعشاء ، فوجد في المدينة رجلين يقتتلان ، أحدهما من بني إسرائيل شيعه موسى عليه السلام ، والآخر من أعدائهم القبط ، فطلب الإسرائيلي الغوث من موسى عليه السلام ، فأجابه موسى عليه السلام ، فوكز القبطي ، أي ضربه بجُمع كفه ففضى عليه ، فندم موسى عليه السلام على هذه الحادثة ، واستحيا من ربه الذي أكرمه ونجّاه ، وأحسن إليه ، وآتاه ورعاً وحكماً وعلماً ، فندم في الحال وقال ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ ؛ لأنه لم يؤمر بقتله ، ولم يكن يقصد قتله والقضاء عليه ، ثم أتبع ندمه اعتذاره فقال ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [القصص: ١٦] ، ولم يكتفِ موسى عليه السلام بذلك ، بل أقسم وأخذ على نفسه عهداً أنه لن يكون ظهيراً للمُجرمين ^(١).

تأملات في اعتذار موسى عليه السلام من القتل :

✽ النفس المؤمنة تُبادرُ بالاعتذار حينما تدرك أنها وقعت في خطأ ، وقد تجلّى ذلك في مبادرة موسى عليه السلام بالاعتذار حينما قتل القبطي ، وذلك سمة ظاهرة في كل اعتذاراته لله ؛ كما سبق أن أوضحناه .

✽ لقد كان الدافع في اعتذاره من القتل تعظيمه لله وخوفه منه ، وإلا فقد كان الأمر مستوراً ، والنفوس غافلة عن قتل القبطي ، وهذا ما أثبتته الآية .

✽ الاعتذار الصادق يتسم بالندم على الخطأ ، وهذا ما ظهر في اعتذار موسى عليه السلام ؛ حينما التفت به مكايد الشيطان .

(١) ينظر : « جامع البيان » للطبري (٣٠٨/١٨) و« الكشاف » للزمخشري (٣/٣٩٨) و« المحرر الوجيز » لابن عطية (٤/٢٨٠) .

يقول ابن سعدي : « فندم موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** على ما جرى منه ، و﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ ؛ أي : من تزيينه ووسوسته ، ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ، فلذلك أجريت ما أجريت بسبب عداوته البينة ، وحرصه على الإضلال ، ثم استغفر ربه : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ؛ خصوصاً للمُخْبِتِينَ ، المبادرين للإِنبابة والتوبة ^(١) ، وسيظلُّ هذا الندم يُساورُ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** حتى قيام الساعة ، كما جاء في حديث الشفاعة الصحيح ، عند البخاري : « فيأتون موسى فيقول : لستُ هناكم ، ويذكرُ لهم خطيئته التي أصاب » ، وفي لفظ مسلم : « قال : فيأتون موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** فيقول : لستُ هناكم ، ويذكرُ خطيئته التي أصاب ، فيستحيي ربه منها » ^(٢) .

❁ حُكِّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ بِظُلْمِهِ لَهَا ، بسببِ تزيينِ الشيطانِ له ، فآيَةُ : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ بدلُ اشتغالٍ من قوله : ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ ، وَجَزُمُهُ بِأَن مَا صَدَرَ مِنْهُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ يَتَضَمَّنُ أَنَّ ذَلِكَ ظَلَمٌ لِنَفْسِهِ ؛ ولذلك تَوَجَّهَ إِلَى اللَّهِ بِالاعْتِرَافِ بِخَطئِهِ ، وَفَرَّعَ عَنْهُ طَلِبَ غَفْرَانِهِ ، وَقَدْ سَمَّاهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ ضَلَالًا ، واعترف على نفسه بالخطأ ^(٣) .

❁ الرَّبُّ سَبَحَانَهُ شُكُورٌ غَفُورٌ لِمَنْ بَادَرَ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِعْتِذَارِ ، وَهَذَا مَا أَثَبَّتَهُ الْآيَةُ : ﴿فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ ، إِذْ جَاءَتْ الْفَاءُ فِي ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ لِلتَّعْقِيبِ ؛ أَي : أَنَّ اللَّهَ اسْتَجَابَ لَهُ وَغَفَرَ لَهُ ، عَقِبَ تَوْبَتِهِ وَإِعْتِذَارِهِ .

(١) « تيسير الكريم الرحمن » (٦١٣) .

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٦) ومسلم (١٩٣) .

(٣) ينظر : « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٩١ / ٢٠) .

❁ شكرُ المعتذرِ إليه بالعزمِ على التَّحْيِي عن الذنبِ وعدمِ العودةِ إليه ، كما كان من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص : ١٧] ؛ فقوله : ﴿ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ يجوزُ أن يكونَ قسمًا جوابه محذوفٌ ، تقديره : أقسمُ بإنعامك عليَّ بالمغفرةِ لِأَتُوبَنَّ ؛ فلنَ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ، وأن يكونَ استعطافًا ؛ كأنه قال : ربِّ اعصمني بحقِّ ما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ من المغفرةِ ، فلنَ أَكُونَ إِنْ عَصَمْتَنِي ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ^(١) ، وأيًا ما كان فهو شُكْرٌ من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لربِّه ، على أن أَلْهَمَهُ التَّوْبَةَ وَالْإِعْتِذَارَ ، وقَبِلَ ذلكَ منه ، وهذا من تمام الاعتذارِ .



(١) ينظر : « الكشاف » (٣ / ٣٩٨) .



المبحث الخامس

اعتذار داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لله عَزَّوَجَلَّ

ورد ذكرُ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآنِ عدةَ مراتٍ ، فأحياناً يَرِدُ اسمُهُ فقط ، وأحياناً يرد مقروناً مع تفضيلِ الله له بإنزالِ الزَّبُورِ عليه ، وأحياناً أخرى يَرِدُ في سياقِ قتله لجالوتَ ، وأحياناً في سياقِ لعنِ الكفارِ من بني إسرائيلَ ، وفي سورة الأنبياءِ ورد ذكرُهُ عند الإشارةِ إلى حُكْمِهِ وقضائِهِ ، ثم عند الإشارةِ إلى تسبيحِهِ ، ثم في سورة النملِ عند ذكرِ ما مَنَحَهُ اللهُ مع ابنِهِ سليمانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ من العلمِ ، ثم في الإشارةِ إلى وراثَةِ ابنِهِ سليمانَ له ، وفي سورة سبأٍ عند ذكرِ ما امتنَّ اللهُ عليه به من تسبيحِ الجبالِ والطيرِ معه وإِلَانَةِ الحديدِ له ، ثم في سورة ص عند ذكرِ فتنَّتِهِ وابتلائِهِ وما ورد فيه من اعتذارِهِ لربِّهِ^(١) .

فقد كان ملكاً قوياً عزيزاً ، يَسُوسُ مَلِكَهُ بالحكمة والحزم معاً ، أثْنَى اللهُ عليه بقوَّتِهِ في الدينِ والبدنِ ، وكثرةِ عبادَتِهِ ، ودوامِ رجوعِهِ وأوْبَتِهِ لربه ، ثم شاء سبحانه أن يَبْلُوهُ بما آتاه ، فوقع ابتلاؤُهُ في الحُكْمِ والقضاء ، وكانت عينُ الله عليه تسوسُهُ وترعاه ، وتكشِفُ له ضعفَهُ وخطأَهُ ، وتُوقِيهِ خطرَ الطريقِ ، وتعلِّمُهُ كيف يتوقَّاه ، ففي ذاتِ يومٍ فُوجئَ نبيُّ الله داودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالمتخاصِمِينَ يتسَوَّران عليه المحرابَ ، ففزعَ منهما ، فبادراً يُطْمِئِنُّانِهِ ، وَيَقْصَّانِ عليه : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَوًا

(١) ولها اسمان : سورة صاد ؛ لافتتاحها بها ، وسورة داود ؛ لاشتغالها على قصَّته ، « بصائر ذوي التمييز » للفيروز آبادي (١ / ٣٩٩) .

الْخَصِمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿١١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ
بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿١٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي
لَهُ تَسَعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿١٣﴾ [ص: ٢١ - ٢٣]
فَقَصًّا عليه النبأ، وطلبًا منه العدل في القضاء، فقد كان المدعي لديه نعمة
واحدة، والمدعى عليه لديه تسع وتسعون نعمة، ومع ذلك لم يزل صاحب
النعاج بأخيه ليضم نعجته إلى نعاجه.

والقضية كما عرضها عليه المدعي تحمِل ظلمًا صارخًا مثيرًا لا يحتمل
التأويل، فما كان من داود **عَلَيْهِ السَّلَامُ** إلا أن أصدر الحكم بظلم صاحب النعاج،
ولم يوجّه إليه حديثًا، ولم يطلب منه بيانًا، ولكنه مضى بحكمه: ﴿قَالَ لَقَدْ
ظَلَمْتَكَ بِسُؤَالِ نَجَّتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَاطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، مؤكّدًا حكمه بالقسم المقدّر واللام
وقد، مبينًا أن كثيرًا من الخلطاء يصدر منهم الظلم، واستثنى الصالحين من عباد
الله من ذلك.

حينها أدرك داود **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أن ما وقع ما هو إلا اختبار وابتلاء من الله: ﴿وَوَظَنَ
دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَتَهُ﴾ [ص: ٢٤]، وقد كان عليه ألا يستشار، وألا يتعجل، وألا يأخذ
بظاهر قول واحد، قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته؛ فقد يتغيّر
وجه المسألة كله أو بعضه، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعًا أو كاذبًا أو
ناقصًا، فاستغفر وخرّ راکعًا لربه يعتريه الذل والخضوع^(١): ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ

(١) ينظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (٩/ ١٥٠) و«الإكليل في استنباط التنزيل» للسيوطي

وَحَرَّرَاكَ وَأَنَابَ ﴿٢٥﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴿٢٦﴾ [ص: ٢٥] ، بطبيعته الأوبة التي أثنى الله عليه بها : ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] ، فقبل الله منه ، وزاده من عظيم فضله ، بالقرب منه سبحانه ، وزيادة الخير له : ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ [ص: ٢٥] ^(١) .

تأملات في اعتذار داود عَلَيْهِ السَّلَام :

❁ الحقيقة أن قصة داود عَلَيْهِ السَّلَام عجيبة ، ومثيرة ؛ لذلك صُدرت بالاستفهام تشويقاً لها ، ثم عبّر عنها « بالنبا » ؛ وهو الخبر الذي لا يُقال غالباً إلا في الأمر المهم ^(٢) ، فهي تحكي سنة من سنن الله في عبادته ، سنة الفتنة والاختبار ، بل قد يُختبر العبد بنعمة شرفه الله بها ، كما كان لداود عَلَيْهِ السَّلَام ، فليُتنبّه لذلك ، فإن عثر الإنسان في الاختبار ، فعليه أن يتوب إلى ربه ويقدم الاعتذار ، كما كان من العبد الأواب ، وليحذر من أن يمرّ بها غافلاً ويخرج ضالاً .

(٢٢١) و« في ظلال القرآن » لقطب (٣٠١٨ / ٥) .

(١) هذا ما ورد بيانه في الصحيح من قصة داود عَلَيْهِ السَّلَام ، وقد نحا فيها كثير من المفسرين سبلاً شتى ، بعيدة عن الظاهر من النص القرآني ، تغص بالإسرائيليات التي لا تليق بنبي الله داود عَلَيْهِ السَّلَام ، يقول سيد قطب : « وخاضت بعض التفاسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوفاً كبيراً ، تنزه عنه طبيعة النبوة ، ولا يتفق إطلاقاً مع حقيقتها ، حتى الروايات التي حاولت تخفيف تلك الأساطير سارت معها شوطاً ، وهي لا تصلح للنظر من الأساس » . « في ظلال القرآن » لقطب (٣٠١٨ / ٥) ومن أراد الاستزادة فيما خاض فيه أهل العلم ، والصحيح من الأقوال فليراجع : « الإكليل في استنباط التنزيل » للسيوطي (٢٢١) و« تفسير القرآن الكريم » لابن عثيمين (٥٨٩ / ٨) .

(٢) ينظر : المصدر السابق .

❁ توبه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ سَبَقِيْ نمودجًا في الاعتذار ؛ لِمَا تَحْمِلُهُ من معاني الذَّلَّةِ والخضوعِ لرب الأرباب ، فَبِمُجَرَّدِ إدراكِهِ لذنبِهِ أعلنَ الاعتذارَ ، وقد جاء التعبيرُ بالفاءِ : ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّهٗ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ ؛ لإثباتِ هذا المعنى ، ثم خَرَّ من أعلى إلى أسفل ؛ ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ ؛ خضوعًا وذُلًّا لربه ، والتماسًا لعفوه ، وندمًا على ما كان .

❁ طبيعة داودِ الأوبةِ جَعَلَتْ اعتذارَهُ أَسْمَى أنواعِ الاعتذارِ في القرآن ، فلم يجتمع الاعتذارُ بالقولِ مع الفعلِ وهو السجودُ الذي يمثُلُ أقربَ أحوالِ العبدِ من ربِّهِ في القرآنِ إلا في اعتذارِ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

❁ اللطيفُ سبحانه حَاطَهُ بِعَفْوِهِ ومَغْفِرَتِهِ ، وأسبغَ عليه فيضَ رحماتِهِ ، فامتَنَّ عليه بالقربِ من مولاهُ وحسنِ المآبِ : ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ، وتلك هي الدرجةُ العظمى من الرعاية والرضا والتكريم والإنعام .

❁ كُلُّ شخصٍ مفتقرٌ إلى اللهِ ، محتاجٌ إليه ، والكريمُ سبحانه قد فتح أبوابَهُ لكلِّ مَنْ أَنَابَ وقَدَّمَ الاعتذارَ ، فما ضُرِبَ مَثَلُ داودَ إِلَّا لِيُحْتَذَى ، وهذا من منهج القرآن في التربية والوعظ .

❁ السجودُ لله توبهٌ وخضوعًا من سُنَنِ المرسلين ، وقد جاء عن النبيِّ المختارِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَرْعُ ذَلِكَ لِمَنْ أَلَمَ بِذَنْبٍ واختارَ الإيابَ ؛ فعن أبي بكر الصديقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول : « ما من رجلٍ

يُذنبُ ذنبًا ، ثم يقومُ فيُتطهِّرُ ، ثم يصلي ، ثم يستغفرُ الله ، إلا غفر الله له ^(١) ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ لَا يَلْبِسْ لَهُ ذُنُوبَهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٣٥] ، فيُشرع لِمَنْ أذنبَ أو أخطأ ، أن يصلي ركعتين ، يتوسَّلُ بهما إلى الله تعالى رجاء أن يقبلَ توبته ، وأن يغفرَ ذنبه ^(٢) .

❁ جاء بعد اعتذار داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هبةُ الله له ابنه الأواب سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وهذا يشيرُ إلى فضلِ الله سبحانه ، وإحسانه إلى عبده داودَ ، بعد خطيئته ، واستغفاره وندمه ، وقبولِ الله توبته ؛ ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص : ٣٠] .



- (١) أخرجه الترمذي (٤٠٦) وصححه الألباني « صحيح الجامع الصغير وزيادته » (١٠٠١ / ٢) .
- (٢) وقد ذكر العلماء صلاة ركعتين لمن أراد التوبة ضمن الصلوات المسنونة ، قال شيخ الإسلام في ذكره للنوافل ومنها صلاة التوبة : « ... وكذلك صلاة التوبة ، فإذا أذنب فالتوبة واجبة على الفور ، وهو مندوب إلى أن يصلي ركعتين ، ثم يتوب ، كما في حديث أبي بكر الصديق » .
- « مجموع الفتاوى » (٢٣ / ٢١٥) .



المبحث السادس

اعتذار سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لله عَزَّوَجَلَّ

لَمَّا أَثْنَى اللهُ عَلَى دَاوُدَ، وَذَكَرَ مَا جَرَى لَهُ وَمِنْهُ، أَثْنَى بَعْدَهَا مَبَاشَرَةً عَلَى ابْنِهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؛ فَإِنَّهُ اتَّصَفَ بِمَا يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ، فَهُوَ رَجَّاعٌ إِلَى اللهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، بِالتَّأَلُّهِ وَالْإِنَابَةِ، وَالْمَحَبَّةِ وَالذِّكْرِ، وَالِدَعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ، وَالْاجْتِهَادِ فِي مَرْضَاةِ اللهِ، وَتَقْدِيمِهَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَلِذَا لَمَّا عُرِضَتْ عَلَيْهِ خِيَلُهُ فِي مَتْنِهَا أُبْهَتْهَا وَجَمَالُهَا فَهِيَ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ، الَّتِي إِنْ اسْتُوقِفَتْ كَانَتْ عَلَى أَجْمَلِ هَيْئَةٍ؛ تَقُومُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَرْجُلٍ وَتَرْفَعُ الرَّابِعَةَ قَلِيلًا، وَإِنْ رَكَضَتْ كَانَتْ عَلَى أَكْمَلِ هَيْئَةٍ؛ وَهُوَ الْجُودُ، وَهَذَا غَايَةُ مَا يَكُونُ مِنْ جَمَالِ الْخَيْلِ تَشَاغَلَ بِهَا عَنْ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى، حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ، ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٢٣].

يَقُولُ ابْنُ كَثِيرٍ: « قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْمُفَسِّرِينَ: إِنَّهُ اشْتَغَلَ بِعَرْضِهَا حَتَّى فَاتَ وَقْتُ صَلَاةِ الْعَصْرِ، وَالَّذِي يَقْطَعُ بِهِ أَنَّهُ لَمْ يَتْرُكْهَا عَمْدًا بَلْ نَسِيَانًا »^(١)، فَقَالَ: نَدَمًا عَلَى مَا مَضَى، وَتَقَرُّبًا إِلَى اللهِ بِمَا أَلْهَاهُ عَنْ ذِكْرِهِ، وَتَقْدِيمًا لِحُبِّ اللهِ عَلَى حُبِّ غَيْرِهِ: ﴿رُدُّوْهَا عَلَى فُطُوفٍ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣]، فَعَاتَبَ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَأَخَذَ يُوَاكِهُ الْفِتْنَةَ بَضْرِبِ سِقَانِهَا وَأَعْنَاقِهَا، جَزَاءً مَا شَغَلَتْهُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ^(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم (٥٦/٧).

(٢) وقيل: إن المراد أنه شرع يمسح شوقها وأعناقها، ذهب إلى ذلك ابن جرير في «جامع البيان»

ثم أعقبها سبحانه بفتنةٍ أخرى لسليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، تحكي إنابته: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤]، فقد جاءت هذه الآية تحكي فتنة سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، في الملك والسلطان، مؤكدةً بالقسم المقدّر واللام المؤكدة للقسم و«قد»، ولم يبيّن سبحانه هذه الفتنة لا عينها ولا نوعها، فينبغي أن نقفَ عما أبهمه الله وأجمله، ولكن جاء الحديث عن توبته فيها موضّحاً، بطلب العفو منه سبحانه والتجاوز عن الزلل^(١): ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٤ - ٣٥]، ثم أناب: أي رجع إلى الله وتاب، فقال «ربّ» أي: أيها المحسنُ إليّ اغفر لي ما كان مني، وما صدر عني من الزلّة، وهي بدلٌ من «أناب»، ثم سأل الله أن يؤتیه مُلْكًا لا يكون لأحدٍ من بعده، وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين جرياً على سُنَنِ الأنبياء عليهم الصَّلَاةُ والسَّلَامُ والصّالحين، وكون ذلك أدخل في الإجابة، وبعد ذلك ختم توسّله باسم الله الوهّاب، مناسبةً لطلب خيرَي الدنيا والآخرة معاً، لا الأخيرة فقط، وهي صيغته مبالغه، وذلك لكثرة هَبَاتِ الله تعالى، والاختتام بالوهّاب من باب التوسّل بما يُناسبُ السؤال، وهو

للطبري (١٩٦/٢١) وسياق الكلام يدل على أن الصحيح ما ذُكر في المتن؛ فإنه ذكر أنه آثرها على ذكر ربه حتى فاتته صلاة العصر، ثم أمر بردها ليعاقب نفسه بإفساد ما ألهاه عن ذلك.

(١) ينظر: «جامع البيان» للطبري (١٩٦/٢١) و«النكت والعيون» للماوردي (٩٢/٥) و«إرشاد العقل السليم» لأبي السعود (٢٢٥/٧) و«تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (٧١٢) «التفسير القرآني» للخطيب (١٠٨٠/١٢) «تفسير القرآن الكريم» لابن عثيمين (٦٢٦/٨).

أحد معاني قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] ،
فإنَّ أحدَ معانيها أن تجعلَهَا وسيلةً لما تدعو به ^(١) .

ثم جاء قبولُ الله لتوبته والعفو عن زلته ^(٢) : ﴿فَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۝ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ۝ ۞ وَأَخْرَيْنَ مُقْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ۝﴾ [ص: ٣٦ - ٤٠] ،
فاستجاب الله له وغفر له ، وردَّ عليه مُلكَه ، وزاده ملكًا لم يحصل لأحدٍ من بعده ، بأن سحر له الريح الرُّخاء اللينة ، التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد ، وسحر له الشياطين ، أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر عليها الآدميون ، والتسخير هو الإلجاء إلى عملٍ بغير اختيارٍ ، وهو مستعارٌ هنا لتكوين أسبابِ صَرْفِ الريحِ إلى الجهات التي يريدُ سليمانُ ، وليكونَ له تمامُ التصرفِ في

(١) ينظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٢٠٤/١٥) و«إرشاد العقل السليم» لأبي السعود (٢٢٧/٧) و«نظم الدرر» للبقاعي (٣٨٣/١٦) .

(٢) أورد بعض المفسرين آثارًا كثيرة عن جماعة من السلف ، وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات ، وفي كثير منها نكارة شديدة ، وأصح ما قيل في ذلك ما جاء في معنى الحديث المتفق عليه ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، قال : « قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تحمل كل امرأة فارسًا يجاهد في سبيل الله ، فقال له صاحبه : إن شاء الله ، فلم يقل ، ولم تحمل شيئًا إلا واحدًا ، ساقطًا أحد شقيه ، فقال النبي ﷺ : لو قالها لجاهدوا في سبيل الله » أخرجه البخاري (٣٤٢٤) ومسلم (١٦٥٤) .

وذلك أن فتنة سليمان كانت بسبب تركه قوله : (إن شاء الله) وأنه لم يلد من تلك النساء إلا واحدة نصف إنسان ، وأن ذلك الجسد الذي هو نصف إنسان هو الذي ألقى على كرسیه بعد موته ، وهو ما جاء في معنى الفتنة ، ذهب إلى هذا القول الشنقيطي في «أضواء البيان» (٢٥٤/٣) والآلوسي في «روح المعاني» (١٩١/١٢) وقد ذهب ابن عثيمين في تفسيره إلى ضعف هذا القول ، ورجح أقوالاً أخرى ، ينظر : «تفسير القرآن الكريم» (٦٢٦/٨) .

الشياطين ، ثم زاد الله عليه المنّة بأن جعل له تمام التصرف في الأمور ، فأعطى مَنْ شئت وأمسك عَمَّن شئت ، من غير تضيق ولا حساب ، والإضافة في « عطاؤنا » لتعظيم شأن المضاف ؛ لانتسابه إلى المضاف إليه ، فكأنه قيل : هذا عطاءً عظيماً أعطيناه^(١) .

تأملات في اعتذار سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ :

✽ اعتذار سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ له صلة وثيقة باعتذار داود عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فقد جاء ذكره بعد ذكر أبيه ، ووُصِفَا جميعاً بصفة « الأواب » ، إشارة إلى أنهما على درجة واحدة من الاتصال بربهم ، والرجوع إليه دائماً ، ثم إنه إشارة إلى أن سليمان سيقع منه ما وقع لأبيه من فتنة وابتلاء ، ثم من استغفار وندم ، ثم من توبة وقبول من الله ، وعطاء جزلٍ عظيم من رب العالمين .

✽ حينما أدرك سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الخيل شغلته عن ذكر ربه قدّم اعترافه وأظهر ندمه ، اعتذاراً لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ .

✽ أضاف سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في اعتذاره لفظ الربوبية لله تعالى : ﴿ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ ، استعطافاً منه لربه سبحانه ، إذ أذعن له بالربوبية التي تقتضي أن يكون مشغولاً بذكره عَزَّوَجَلَّ .

(١) ينظر : « تيسير الكريم الرحمن » للسعدي (٧١٣) « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٢٣/٢٦٤) .

❁ أمر سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِ الْخَيْلُ الَّتِي شَعَلَتْهُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ ، فَجَعَلَ يَقْطَعُ سُوقَهَا وَأَعْنَاقَهَا لِحَرَمَانِ نَفْسِهِ مِنْهَا مَعَ مُحِبَّتِهِ إِيَّاهَا تَوْبَةً مِنْهُ وَتَرْبِيَةً لِنَفْسِهِ ، لَذَلِكَ ضَرَبَ مَوَاقِعَ الْحُسْنِ فِيهَا وَهِيَ سُوقُهَا وَأَعْنَاقُهَا ، كَمَا تَظْهَرُ مِبَادَرَتُهُ فِي ذَلِكَ ، لِمَجِيءِ فَاءِ التَّعْقِيبِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِرَدِّهَا : ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ .

❁ يُفْهَمُ مِنْ فِعْلِ سُلَيْمَانَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُتَّبَعَ الْمُعْتَذِرُ اعْتِذَارَهُ إِتْلَافَ مَا شَعَلَهُ وَصَدَّه عَنِ الْإِتْيَانِ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، تَوْبَةً لِلَّهِ وَتَرْبِيَةً لِنَفْسِهِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ أَنَّهُ ذَبَحَهَا وَتَصَدَّقَ بِلَحْمِهَا ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي السَّنَةِ إِتْبَاعُ التَّوْبَةِ وَالْإِعْتِذَارِ الصَّدَقَةَ لِلَّهِ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنْ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلَعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ ؛ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » ، قُلْتُ : فَإِنِّي أَمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْرٍ ^(١) .

❁ إِعَادَةُ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِمْتِحَانِ مِنَ اللَّهِ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** لِعَبْدِهِ سُلَيْمَانَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** فِي شَأْنٍ يَتَعَلَّقُ بِتَصَرُّفَاتِهِ فِي الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ ، كَمَا يَتَّبِعِي اللَّهُ أَنْبِيََاءَهُ لِيُوجِّهَهُمْ وَيُرْشِدَهُمْ ، حِينَهَا يُدْرِكُ سُلَيْمَانَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** خَطَاؤه ، وَيُنِيبُ إِلَى رَبِّهِ ، وَيَعْتَذِرُ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى ، وَيَطْلُبُ الْمَغْفِرَةَ وَيَتَّجِهُ إِلَى اللَّهِ بِالْإِعْدَاءِ وَالرَّجَاءِ ، وَهَذَا شَأْنُ عِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ الْأَوَابِينَ .

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) .

❁ في اعتذار سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** تتمثل القاعدة المشهورة « مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ » ؛ فسليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** عَقَرَ الجيَادَ الصَّافِنَاتِ المحبوبةَ للنفوسِ ، تقديمًا لمحبة الله ، فعَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ، بِأَنْ سَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ الرُّخَاءَ اللينةَ ، التي تجري بأمره إلى حيثُ أراد ، وَسَخَّرَ لَهُ الشَّيَاطِينَ ، أَهْلَ الاقْتِدَارِ عَلَى الْأَعْمَالِ التي لا يقدِرُ عليها الآدميون .

❁ الأنبياء **عَلَيْهِمُ السَّلَامُ** معنيون أكثر برضا الله سبحانه ، وبأُمُورِ الآخرة ؛ لذا طلب سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** العفوَ والمغفرةَ من الله قَبْلَ أَنْ يَطْلُبَ الْمَلِكَ .

❁ العبدُ إِذَا صَدَقَ فِي التَّوْبَةِ وَالْإِعْتِذَارِ لِلَّهِ ، لَهُ أَنْ يَسْأَلَ مَا يَشَاءُ مِنَ الدُّنْيَا بَعْدَ سُؤَالِ الْعَفْوِ ، كَمَا حَدَّثَ لِسُلَيْمَانَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** حِينَما ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِمُلْكِهِ ، ثُمَّ أَنَابَ بَعْدَهَا وَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يَهَبَهُ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ وَوَهَبَهُ مُلْكًا لَمْ يَهَبْهُ أَحَدًا مِنْ قَبْلِهِ وَلَا مِنْ بَعْدِهِ ، سُبْحَانَ الْكَرِيمِ الْوَهَّابِ .

❁ التَّوْبَةُ وَالْإِعْتِذَارُ كَمَا أَنَّهُمَا سَبَبٌ فِي الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا ، فَهُمَا سَبَبٌ فِي الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ ، كَمَا خَصَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ **عَلَيْهِمَا السَّلَامُ** بِذَلِكَ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ صِفَةَ الْأَوْبَةِ لَهُمْ : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَقَابٍ ﴾ ، كَمَا أَنَّهَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ إِذَا عَفَا عَنْ عِبَادِهِ الصَّادِقِينَ الْأَوَابِينَ أزالَ الْآثَارَ الْمَتَرَّبَةَ عَلَى الذَّنْبِ ، حَتَّى مَا يَقَعُ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا عَلِمُوا بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَقَعَ فِي قُلُوبِهِمْ نَزْوُلُهُمْ عَنْ دَرَجَتِهِمِ الْأُولَى ، فَأزالَ اللَّهُ هَذِهِ الْآثَارَ ، وَمَا ذَلِكَ بِعَزِيزٍ عَلَى الْكَرِيمِ الْغَفَّارِ ^(١) .

(١) ينظر : « تيسير الكريم الرحمن » للسعدي (٧١٢) .

❁ ما ذُكر من توبة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يخلُ من مقاصدِ الاتِّسَاءِ والعبرة ، كعادةِ القرآن في ابتدارِ وسائلِ الإرشادِ بالترغيبِ والترهيبِ ، فكانتِ الآياتُ المتعلقةُ بندمه على الاشتغال بالخيال عن ذكر الله موقعَ أُسُوةٍ به في مبادرة التوبة ، وكذلك جاءتِ الآياتُ المشيرةُ إلى الفتنة التي عَرَضَتْ لسليمان؛ إذ أعقبتها إنابةٌ ، ثم أعقبها إفاضةٌ نِعَمٍ عظيمة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَ﴾ [الأنعام : ٩٠] .





الفصل الثاني

اعتذار سائر الخلق لله عَزَّوَجَلَّ

وفيه ستة مباحث :

المبحث الأول : اعتذار صاحب القرية في سورة البقرة .

المبحث الثاني : اعتذار صاحب الجنتين في سورة الكهف .

المبحث الثالث : اعتذار أصحاب الجنة في سورة القلم .

المبحث الرابع : اعتذار قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَام .

المبحث الخامس : اعتذار بلقيس في قصة سليمان عَلَيْهِ السَّلَام .

المبحث السادس : اعتذار فرعون .





المبحث الأول

اعتذار صاحب القرية في سورة البقرة

جاءت قصته صاحب القرية^(١) في سورة البقرة في سياق الآيات التي تُثبت قدرة الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** على الإحياء والإماتة، والبعث والنشور، فُعْطِفَتْ على قصة الذي حاج إبراهيم في ربه، دليلاً آخر على تفرد الله بالخلق والتدبير، والإماتة والإحياء؛ ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، أي: قد باد أهلها، وفني سكانها، وسقطت حيطانها على عروشها، فلم يبق بها أنيس، بل بقيت موحشة من أهلها، مُقْفَرَةً، فوقف عليها ذلك الرجل متعجباً مستفهِماً، وقال: ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، استبعاداً لذلك، فأراد الله به خيراً وأراه آية في نفسه وفي أدواته؛ بأن أماته مائة عام ثم بعثه، أي أحياه؛ وهي حياة خاصة رُدَّتْ بها رُوحُه إلى جسده، وهذا بعثٌ خارقٌ للعادة، وهو غيرُ بعثِ الحشر، فقال له سبحانه: ﴿كَمْ لَبِثْتُ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، قال: لبثت يوماً أو بعض يوم، استقصاراً لتلك المدة

(١) اختلف المفسرون في تعيين القرية، والذي مرَّ بها، وهو اختلافٌ لا طائل تحته؛ إذ لم يثبت فيه شيء عن معصوم، والذي يأتي مبهمًا ولم يعين عن معصوم، طرِيقُنَا فيه أن نُبْهِمَهُ كَمَا أَبْهِمَهُ الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، يقول محمد رشيد رضا: «فهو من الاختصار البليغ، ولكن المفسرين أبوا إلا أن يبحثوا عنها وعمَّن مرَّ بها، فقال بعضهم: إنها قرية الذين خرجوا من ديارهم، وقيل غير ذلك. وقيل: إن الذي مرَّ أرمياء، وقيل: العزيز؛ رجماً بالغيب أو تسليماً للإسرائيليات». «تفسير المنار» (٤٢/٣).

التي مات فيها ، قال سبحانه : بل لبثت مائة عام ، ﴿فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ، والأمرُ بالنظر أمرٌ للاعتبار ؛ أي : فانظر إليه في حال أنه لم يتسَنَّه ؛ أي : لم يتغير ، بل بقي على حاله على تناولِ السنين واختلاف الأوقات عليه .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « ... قَصَّ هذه القصة التي فيها موتُ البشر مائة عام ، وموتُ حماره ، ومعه طعامه وشرابه ، ثم إحياء هذا الميت وإحياء حماره وبقاء طعامه وشرابه لم يتغير ولم يفسد ، وهو في دار الكون والفساد التي لا يبقى فيها في العادة طعامٌ وشرابٌ بدون التغير بعض هذه المدة ، وهذا يبين قدرته على إحياء آدميين والبهائم ، وإبقاء الأطعمة والأشربة لأهل الجنة في دار الحيوان بأعظم الدلالات »^(١) ، ففي هذا أكبر دليل على قدرته ؛ إذ أبقاه وحفظه من التغير والفساد ، وانظر إلى حمارك ؛ وكان قد مات وتمزق لحمه وجلده ، وانتثرت عظامه ، وتفرقت أوصاله ، فلولا طول المدة لم يكن كذلك ، ولنجعلك آية للناس على قدرة الله وبِعْثِهِ الأموات من قبورهم ، ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: ٢٥٩] ؛ أي : ندخل بعضها في بعض ، ونركب بعضها ببعض ، حتى صار الحمار عظاماً ، ثم بعد ذلك كسا الله العظام لحماً ، فنظر إليها عياناً ، فلما تبين ذلك له رأي عين لا يقبل الريب بوجه من الوجوه قال : ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ، فاعترف بقدرة الله على كل شيء ، وصار آية للناس ؛

(١) « درء تعارض العقل والنقل » (٣٧٦ / ٧)

لأنهم قد عَرَفُوا موته وموتَ حمارة ، وعَرَفُوا قضيتَه ، ثم شاهدوا هذه الآية الكبرى^(١) .

تأملات في اعتذار صاحب القرية في سورة البقرة :

❁ لَمَّا اجْتَمَعَ عند صاحبِ القرية آيتانِ من آياتِ الله إبقاءً ما يتغيرُ على حاله ، وهو طعامُه وشرابُه ، وإحياءُ ما كان ميتًا ، وهو حمارُه ، أراه الله سبحانه من هذه الآياتِ ، وأمرَه بالنظر إليها والتفكير فيها فقال : أعلمُ أن الله على كل شيء قديرٌ ، لا يستعصي عليه شيءٌ من الأشياء ، قال الطبريُّ : « لَمَّا اتضح له عيانًا ما كان مُستنكرًا من قدرة الله عنده قَبْلَ عِيَانِهِ قال : أعلمُ ... »^(٢) ، فقد تيقَّن من قدرةِ الله بالمشاهدة ، فأقرَّ واعترف أنه يعلمُ أن الله على كل شيء قديرٌ ، أي أعلمُ « أنا » هذا الضَّرْبَ من العلم الذي لم أكن أعلمُه ، وهذا على قراءةٍ مَنْ قرأ « أَعْلَمُ » بقطع الألف ؛ وهي قراءة الجمهور^(٣) .

❁ تَظْهَرُ بلاغةُ القرآن في تنويع أمثلة الاعتذار ؛ فقد جاء الاعتذارُ من استبعاد البعثِ بعد الموت نموذجًا محسوسًا ومشاهدًا بالأبصار ، ليعلموا بذلك صحة ما أَخْبَرَتْ به الرسلُ ، ويزدادوا به يقينًا ، قبل أن يأتي يومٌ لا ينفع فيه الاعترافُ

(١) ينظر : « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (٢٩٦/٣) و« فتح القدير » للشوكاني (٣٢١/١) و« محاسن التأويل » للقاسمي (١٩٨/٢) و« تفسير القرآن الكريم » لابن عثيمين (٢٨٨/٣) .

(٢) « جامع البيان » للطبري (٤٨١/٥) .

(٣) ينظر : « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٣٨/٣) .

والإقرار بالبعث ، ولا الاعتذار من التكذيب به ، كما سيأتي في اعتذارات اليوم الآخر في آخر فصلٍ من هذا الباب إن شاء الله .

❁ جاء اعتذارُ صاحبِ القريةِ عبرةً لغيره : ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ، ومثل ذلك قوله لعيسى بن مريم : ﴿وَأَلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] ، فقد يُحدثُ الله للعبد ما يكونُ به موعظةً لغيره .

❁ جاء اعتذارُ صاحبِ القريةِ في صورة الاعترافِ والإقرارِ بقدرَةِ الله الشاملة لكلِّ شيء ، ولكنَّ اعتذارَه جاء خاليًا من المقدماتِ والعباراتِ الموحية بالندم ، وعلى ذلك يكونُ أقلُّ درجاتِ الاعتذار .



المبحث الثاني

اعتذار صاحب الجنتين^(١) في سورة الكهف

جاء اعتذارُ صاحبِ الجنتينِ في سورةٍ تنوعتْ مشارِبُ الاعتذارِ فيها ، جاء هذا الاعتذارُ من رجلٍ ظَلَمَ نفسه ، واغترَّ بما أعطاه الله من جنانِ العَنَبِ الوارفةِ التي يحيطُ بها النخيلُ ، وتتخلَّلها الزروعُ والثمارُ ، ومَلَأَ نفسه البطرُ والغرورُ ،

(١) الجنتان : ذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه عجائب البلاد ، أن بحيرة تنيس كانت هاتين الجنتين وقد قيل : إن هذا مثل ضربه الله تعالى لهذه الأمة ، وليس بخبر عن حال متقدمة ، لتزهّد في الدنيا وترغب في الآخرة ، وجعله زجراً وإنذاراً ، وسياق الآية يدل على خلاف هذا ، وقيل : ولم يذكر المفسرون أين كانت الجنتان ، ولعلهما كانتا بالطائف فإن فيه جنات أهل مكة ، قاله ابن عاشور « التحرير والتنوير » (٣١٦/١٥) . و ينظر : « المحرر الوجيز » لابن عطية (٥١٥/٣)

واختلف في اسم هذين الرجلين وتعيينهما ، فقال الكلبي : نزلت في أخوين من أهل مكة مخزوميين ، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ . والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ، وهما الأخوان المذكوران في سورة (الصافات) في قوله : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ [الصافات : ٥١] ، وقيل : هو مثل لعينة بن حصن وأصحابه مع سلمان وصهيب وأصحابه ، شبههم الله برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا ، في قول ابن عباس . وقال مقاتل : اسمه تمليخا . والآخر كافر واسمه قرطوش . وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة الصافات . ينظر : « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (٤٠١/١٥) « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٣١٦/١٥) . ولم أجد أحاديث صحيحة مرفوعة إلى النبي ﷺ ، أو أقوالاً جزم بها أحد المفسرين في تحديد مكان وأصحاب القصة .

وظَنَّ أَنَّ هَذِهِ الْجَنَانُ لَنْ تَبِيدَ أَبَدًا ، وَأُنْكَرَ قِيَامَ السَّاعَةِ ، وَحَتَّى لَوْ قَامَتْ فَسَيَجُدُّ هُنَاكَ الْجَنَانُ وَالرَّعَايَةَ ، فَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَانِ فِي الدُّنْيَا عَلَى زَعْمِ مَا يَرَى ، وَتَبَاهَى عَلَى صَاحِبِهِ الْفَقِيرِ بِالْجَنَّةِ وَالْمَالِ وَالثَّمَرِ : ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف : ٣٤] .

وَأَمَّا صَاحِبُهُ الْفَقِيرُ الْمَعْتَزُّ بِعَقِيدَتِهِ وَإِيمَانِهِ ، فَيُجِيبُ صَاحِبَهُ الْمَغْتَرَّ الْمَتَبَطِّرَ مِنْكَرًا عَلَيْهِ كِبَرَهُ وَبَطَرَهُ ، وَيَذْكُرُهُ بِنَشْأَتِهِ مِنْ مَاءِ وَطِينٍ ، وَيَحْذَرُهُ عَاقِبَةَ الْبَطْرِ ، وَيَدْعُو عَلَى جَنَّتِهِ بِالزَّوَالِ وَالْبَوَارِ ، وَيُوجِّهُهُ إِلَى الْمُنْهَجِ الْقَوِيمِ ؛ بِالْإِقْرَارِ لِلَّهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ ، وَالشَّهَادَةِ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ ، وَالتَّأْدُّبِ مَعَهُ تَعَالَى ، وَالثَّنَاءِ عَلَى نِعَمِهِ الْجَلِيلَةِ : ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ۖ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝ ٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف : ٣٧ - ٣٩] .

وَيَرْجُو عِنْدَ رَبِّهِ خَيْرًا مِنْ جَنَّةِ صَاحِبِهِ الْمَتَكَبِّرِ : ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف : ٤٠] .

لَكِنَّ الْكِبَرَ يَتِمَادِي بِصَاحِبِهِ فَيُعْرِضُ عَنِ الْقَبُولِ ، فَيَنْزِلُ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ مِنَ السَّمَاءِ : ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَفْقَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف : ٤٢] ، وَتَتَحَوَّلُ جَنَّتُهُ مِنْ جَنَّةٍ طَيِّبَةٍ زَاخِرَةٍ إِلَىٰ أَرْضٍ قَاحِلَةٍ يَابِسَةٍ ، خِيَمَ عَلَيْهَا الْخَرَابُ ، وَحَلَّ بِهَا الْبَوَارُ ، حِينَهَا يُدْرِكُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ كَانَ بِشَوْءٍ مَعْصِيَتِهِ ، فَيَتَحَوَّلُ مِنَ الْبَطْرِ وَالْاِسْتِكْبَارِ إِلَى النَّدَمِ وَالِاسْتِغْفَارِ ، وَيُقَلِّبُ

كَفَّيْهِ ، وَذَلِكَ فِعْلُ الْمُتْلَهِّفِ الْمُتَأَسِّفِ عَلَى مَا فَاتَ ، وَيَقُولُ : ﴿يَلَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢] ، أَي : يَا لَيْتَنِي عَرَفْتُ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيَّ ، وَلَمْ أَكْفُرْ بِهِ ، وَهَذَا نَدَمٌ مِنْهُ حِينَ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ ، وَيَمْضِي قَدَرُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَنْصُرَهُ ^(١) .

تأملات في اعتذار صاحب الجنتين في سورة الكهف :

❁ قد يُعَبَّرُ عن الندم بالأفعال ، كما كان من صاحبِ الجنتين حينما أحاطَ الهلاكُ بجنتيه : ﴿فَأَصْحَ يَقْلِبُ كَفَّيْهِ﴾ .

❁ اعترافُ صاحبِ الجنتين بوحدايةِ الله وربوبيته ، اعتذارُ الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** مِمَّا صَدَرَ مِنْهُ .

❁ ترسُّمُ هذه الآياتِ نموذجًا من الاعتذارِ للمغترِّين بهذه الحياة الدنيا ، وتحثُّهم على تقديم الاعتذارِ في الوقت المناسب وقَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فَسِينْدُمُ وَيَقْدُمُهُ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ حينما يدركُ الْخَسَارَةَ ، وَلَاتَ سَاعَةَ مَنْدَمٍ .

❁ تنتهي الآياتُ من غير جلاءٍ وبيانٍ لتوبته ، وقَبُولِهَا أَوْ رَدِّهَا ، وَهَلْ عَوَّضَهُ اللَّهُ مَا سَلَبَهُ؟ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ السَّعْدِيُّ : « لَا يُسْتَبَعَدُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَلُطْفِهِ ، أَنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْجَنَّةِ ، الَّتِي أُحِيطَ بِهَا ، تَحَسَّنَتْ حَالُهُ ، وَرَزَقَهُ اللَّهُ الْإِنَابَةَ إِلَيْهِ ، وَرَاجَعَ رَشْدَهُ ، وَذَهَبَ تَمَرُّدُهُ وَطُغْيَانُهُ ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ أَظْهَرَ النَّدَمَ عَلَى شُرْكِهِ بِرَبِّهِ ،

(١) ينظر : « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (١٤٢/٥) و« النكت والعيون » للماوردي (٣٠٥/٣) و« الكشف » للزمخشري (٧٢٤/٢) .

وأن الله أذهب عنه ما يُطغيه ، وعاقبه في الدنيا ، وإذا أراد الله بعبد خيراً عَجَّلَ له العقوبة في الدنيا ، وفضل الله لا تحيطُ به الأوهامُ والعقولُ ، ولا يُنكره إلا ظالمٌ جهولٌ^(١) .



(١) « تيسير الكريم الرحمن » (٤٧٧) .

المبحث الثالث

اعتذار أصحاب الجنة^(١) في سورة القلم

أصحاب الجنة الذين حَدَّثَنَا القرآنُ عنهم ، كان للمساكين حظٌّ من ثمرِ جنتهم في حياة أبيهم ، فلمَّا انقطع من الدنيا عَزَمَ بنوه على أن يمنعوا المساكينَ حقَّهم ، واتفقوا على جَدَادِهَا مُصْبِحِينَ ، وباتوا بهذا الشرِّ ولم يعلموا أن الله لهم بالمرصاد ، وأن العذابَ يَسْبِقُهُمْ إلى جنتهم ، فانطلقوا في صباحهم يتحدثون متخافتين زيادةً في إحكام الأمر والتدبير ، وفي هذه الحالة الشنيعة من القسوة وعدم الرحمة ، عاقبهم الله باحتراق جنتهم ، فغَدَوْا على حَرْدٍ ولم يغدوا على

(١) الجنة : بأرض اليمن بالقرب منهم على فراسخ من صنعاء ويقال بفرسخين وكانت لرجل يؤدي حق الله تعالى منها وقيل : هي جنة بضوران ، وضوران على فرسخ من صنعاء ، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى عليه السلام بيسير وقيل : ضروان اسم هذه الجنة ، وكانت جنة عظيمة . ينظر : « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (٢٣٩ / ١٨) و« التحرير والتنوير » لابن عاشور (٨٠ / ٢٩) .

أصحاب الجنة : قيل : من أهل الكتاب قاله ابن عباس . ولم يبين من أي أهل الكتاب هو : أمن اليهود أم من النصاري؟ فقيل : كان يهوديا ، أي لأن أهل اليمن كانوا تدينوا باليهودية من عهد بلقيس كما قيل ، أو بعدها بهجرة بعض جنود سليمان وعن عكرمة : كانوا من الحبشة ، وقال ابن عاشور : قال بعض المفسرين : كان أصحاب هذه الجنة بعد عيسى بقليل ، أي قبل انتشار النصرانية في اليمن ؛ لأنها ما دخلت اليمن إلا بعد دخول الأحباش إلى اليمن في قصة القليس وكان ذلك زمان عام الفيل . ينظر : « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٨٠ / ٢٩) . ولم أجد أحاديث صحيحة مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أو أقوالاً جزم بها أحد المفسرين في تحديد مكان وأصحاب الجنة في سورة القلم .

حَرِثَ ، فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا فِي حَيْرَةٍ وَانزعاج : إِنَّا لَتَائِهُونَ ، فَلَمَّا تَأَمَّلُوا وَتَحَقَّقُوا أَنَّهَا جَنَّتُهُمْ ، أَيْقَنُوا بِحِرْمَانِهِمْ ، وَتَقَدَّمَهُمْ أَوْسَطُهُمْ وَأَصْلَحُهُمْ ، وَأَشَارَ عَلَيْهِمْ بِأَن يَعْتَذِرُوا لِرَبِّهِمْ مِنْ سُوءِ صَنِيعِهِمْ ، وَيَبْدُو أَنَّهُ كَانَ لَهُ رَأْيٌ غَيْرُ رَأْيِهِمْ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِمْ ، وَلَكِنَّهُ تَابَعَهُمْ عِنْدَمَا مَنَعُوا الْمَسَاكِينَ حَقَّهُمْ ، وَلَمْ يَثْبُتْ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي رَأَاهُ ، فَنَالَهُ مِنَ الْحِرْمَانِ مَا نَالَهُمْ ، وَهَذَا الْآنَ يَذْكُرُهُمْ مَرَّةً أُخْرَى ، وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِعْتِذَارِ مِنْ خَبَثِ نِيَّتِهِمْ^(١) ، حِينَهَا اسْتَجَابُوا لِقَوْلِهِ : ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [القلم : ٢٩] ، اعترافاً بالمعصية ، وَتَنْزِيهًا لِلَّهِ أَنْ يَكُونَ ظَالِمًا فِيمَا فَعَلَ ، وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَاوُمُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ بَغْيِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ ، وَعَزَمَهُمُ السَّيِّئُ ، عَسَى رَبُّهُمْ أَنْ يُبَدِّلَهُمْ خَيْرًا مِنْهَا ، بِتَوْبَتِهِمْ وَعَزِيمَتِهِمْ وَنَدَمِهِمْ عَلَى عَدَمِ الْعُودِ إِلَى مِثْلِهِ : ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَوُمُونَ﴾ [القلم : ٣٠ - ٣٢] .

تأملات في اعتذار أصحاب الجنة في سورة القلم :

❁ إِنَّ إِشَارَةَ صَاحِبِهِمْ - أَوْسَطِهِمْ - فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِمْ إِلَى خَطِيئَتِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ ، لَمْ يُدْخِلْهُ فِي دَائِرَةِ التَّوْبَةِ وَالْإِعْتِذَارِ ، وَلَمْ يُخْرِجْهُ مِنْ دَائِرَةِ الْحِرْمَانِ مَعَ أَصْحَابِهِ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِي إِعْطَاءِ الْمَسَاكِينَ حَقَّهُمْ ، فَلَا بَدَ لَصَاحِبِ الْحَقِّ أَنْ يَثْبُتَ عَلَى رَأْيِهِ وَتَوْبَتِهِ ، وَلَا يَجَارِيَ فِي حَقِّ اللَّهِ أَحَدًا .

(١) ينظر : « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (١٩٧ / ٨) و « الكشاف » للزمخشري (٥٩١ / ٤)

و « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (٢٤٤ / ١٨) و « محاسن التأويل » للقسامي (٣٠١ / ٩)

و « غاية الأمان في تفسير الكلام الرباني » للكوراني (٢١٢)

❁ لا تزال نزعَةُ الخير في أوسطهم ، فهو الذي قادهم ونبَّههم على ضرورة تفادي الأمر بالاعتذارِ لله ، وهكذا يجبُ أن يكون المؤمنُ في الثبات والحثُّ على التوبة إلى الله .

❁ استفاقتهم من غفلتهم واستجابتهم لدعوة صاحبهم في تقديم التوبة إلى الله ، دليل على قوة نوازع الخير فيهم .

❁ استفتاح توبتهم بتسبيح الله تعالى : ﴿ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا ﴾ ، تنزيه الله عن الظلم فيما فعل بهم ، بل هذا من عدل الله ، فلما حرموا حُرِّموا ، أي : لما حرموا المساكين من جنتهم حُرِّموا هذا الرزق ، فاعترفوا بالمعصية ، ونزَّهوا الله عن أن يكون ظالماً فيما فعل ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ، والتسبيحُ مقدمة الاستغفار من الذنب ، قال تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر : ٣] ، ثم أضافوا الربَّ في اعتذارهم اعترافاً بنعم الله عليهم .

❁ الاعترافُ بظلم أنفسهم : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ إقرارٌ بالذنب ، وجاء التأكيد لتحقيق الإقرار والاهتمام به ، كما أن حرف « إِنَّ » يفيدُ التعليلَ للتسبيح الذي قَبْلَهُ ، وحُذِفَ مفعولُ ظالمين ليُعَمَّ ظلمهم أنفسهم بما جرَّوه على أنفسهم من سلب النعمة ، وظلم المساكين بمنعهم حقهم في المال ، كما أن مجيء « إِنَّ » في قولهم : ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ ، لتأكيد هذه الرغبة والتوبة^(١) .

(١) ينظر : « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٨٧ / ٢٩) .

❁ اعترفهم بظلم المساكين من أصول التوبة والاعتذار ؛ فإنَّ من أصول التوبة تدارك ما يمكن تداركه .

❁ نَلَحَظُ الإِطْنَابَ فِي قَوْلِهِمْ بَعْدَ حُلُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ [القلم : ٢٨ - ٣١] ؛ لتلقين الظالمين لأنفسهم التوبة والاعتذار قبل فوات الأوان ، بأن يكونوا ، في تدارك أمرهم وسرعة إنابتهم ؛ كحال أصحاب هذه الجنة .

❁ قوله تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ ، كرروا ندمهم وتوبتهم رجاءً من الله أن يتوب عليهم فلا يؤاخذهم بذنبيهم ، ويعوضهم عن جنتهم ، ولم يرد في ذلك نصٌ صحيح في المقصود بالإبدال ؛ هل طلبوا العوض في الدنيا أو في الآخرة ؟ فإن كان في الدنيا فلنا أن نقول : لا بأس بطلب العوض من الله في الدنيا بعد التوبة من الذنب ، فقد جرى منهم ما جرى من سليمان عليه السلام ، حينما طلب من ربه بعد التوبة أن يهبه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده .

❁ هل أبدلهم الله خيراً منها ؟

يقول السعدي في قوله تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ : « فهم رجوا الله أن يُبدلهم خيراً منها ، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله ، ويلحون عليه في الدنيا ، فإن كانوا كما قالوا ، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيراً منها ؛ لأنَّ من دعا الله صادقاً ، ورغب إليه ورجاه ، أعطاه سُؤْلَه » (١) .

(١) « تيسير الكريم الرحمن » (٨٨٠) .

المبحث الرابع

اعتذار قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

عندما كان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بحَضْرَةِ رَبِّهِ ، كان قومُ موسى من بعده يَتَكَبَّرُونَ ويتخذون عَجَلًا جسدًا له خُوارٌ ، لا حياةَ فيه ، يعبدونه من دون الله ، وهذه طَبِيعَةُ بني إِسْرَائِيلَ التي ما تكادُ تستقيمُ حتى تلتوي مرةً أُخرى عن الطريق ، فلقد طلبوا من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يجعلَ لهم إلهًا يعكفون عليه بمجرد رؤيتهم لقومٍ وثنيين يعكفون على أصنام لهم ، فزَجَرَهُم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عن هذا الخاطِرِ ، وردَّهم ردًّا شديدًا ، فلمَّا خَلَوْا بأنفسهم ، ورأوا عَجَلًا جسدًا لا حياةَ فيه ، صَنَعَهُ لهم السامريُّ^(١) من الذهب ، يُخْرِجُ صوتًا كصوت البقر ، أَقْبَلَ عليه عامَّةُ بني إِسْرَائِيلَ يعبدونه من دون الله ، متنكِّرين لنعم الله عليهم ، مُعْرِضِينَ عن هديه وشرعه ، وحينما رَجَعَ إليهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُغْضَبًا غَضَبًا شديدًا ، عَلِمُوا بقبح صنيعهم ، وتَجَرَّعُوا كاساتِ الأَسْفِ ندمًا ، واعترفوا أَنَّهُمْ خَاسِرُونَ إن لم يتداركهم اللهُ بِجَمِيلٍ لطفه^(٢) ، قال تعالى : ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٩] .

(١) سبقت ترجمته في ()

(٢) ينظر : « جامع البيان » للطبري (١١٨ / ١٣) و « الهداية إلى بلوغ النهاية » لمكي (٢٥٥٩ / ٤) و « لطائف الإشارات » للقسيري (٥٧٢ / ١) و « تفسير السمعياني » (٢١٧ / ٢) و « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (٢٨٦ / ٧) .

ويأتي التعقيبُ القرآني على القصة مبيِّنًا أن الذين عبدوا العجل سيصيِّبهم غضبٌ من ربهم ، وذلةٌ في الحياة الدنيا ، وهذا ما حدث لهم حينما أمروا بقتل أنفسهم ، كما جاء في سورة البقرة : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ٥٤] ، وقد كان ذلك امتحانًا لهم على صدقِ توبتهم .

تأملات في اعتذار قوم موسى إلى الله :

❁ حصل الندمُ من أصحاب العجل ، والندمُ توبةٌ ، وهذا يدل على أنه ما زال فيهم بقيةٌ من استعدادٍ صالح ، فقد ندموا حينما تبين لهم ضلالتهم ، واعترفوا بذنبهم ، وعرفوا أنه لا يُنقذهم من عاقبة ما أتوا إلا تقديمُ اعتذارهم لربهم ، وهذه علامةٌ طيبةٌ دالةٌ على بقيةٍ من استعدادٍ في الفطرة للصالح^(١) .

❁ جاء التعبيرُ عن ندمهم بقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ ، والندمُ يكونُ في القلب ، ولكنه ذكر اليدَ لأنه يُقال لمن حصل على شيء قد حصل على يده أمرٌ كذا ، فمباشرةُ الأشياء في الغالب باليد ، قال الله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الحج : ١٠] ، ولأنَّ الندمَ وإن حلَّ في القلب فأثره يظهرُ في البدن ، لأنَّ النادمَ يَعْصُ يده ، ويضربُ إحدى يديه على الأخرى ، قال الله تعالى : ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى

(١) ينظر : « في ظلال القرآن » (٣ / ١٣٧٤) .

عُرُوشَهَا ﴿ [الكهف: ٤٢] ؛ أي : من الندم ، ولأنها آله القدرة ؛ قال تعالى : ﴿ذَا
الْأَيْدِيَّ﴾ [ص: ١٧] ، ويقال : ما لي بذلك يدٌ ، أي لا أستطيعه ، وهذا الكلام يدلُّ
على أن في الكلام كنايةً عن الندم ؛ لأنه ذَكَرَ اللازمَ الحِسِّيَّ له ^(١) .

❁ يظهرُ في الآية تقديمُ الندمِ في الذكرِ على تبيينِ الضلالةِ ، مع أن المعروفَ
في العادة أن يندمَ الإنسانُ على ما علمَ من ذنبه ، ثم يقدمُ اعتذاره ، وللمفسرين
في الجوابِ عن ذلك اجتهاداتٌ ؛ منها :

- أنه على تقديرِ أن يكونَ المقدمُ مؤخرًا ؛ لأن الندمَ والتحسُّرَ يقعان بعد
العلم بالمعصية والخطأ .

- أن هذا لا يحتاجُ إلى تقديرٍ ؛ بل يمكنُ تقدمُ الندمِ على تبيينِ الضلالِ ؛ لأن
الإنسانَ إذا شكَّ في عمله أصوابٌ هو أو خطأ ؛ حصل له الندمُ ، ثم بعد تكاملِ
النظر والفكر يُدرك أن ذلك خطأ .

- أن من قواعدِ علمِ المعاني ^(٢) أن ما لا يجبُ الترتيبُ فيه بزمانٍ ولا رتبةٍ
يُقدَّمُ في سرِّه الأهمُّ فالأهمُّ ، فإن لم يكن تقديمُ الندمِ هنا لسبقه في الزمن ،
فالأظهرُ أنه للمبالغةِ في استشعارهم استحقاقَ العقابِ .

(١) ينظر : « البحر المحيط » لأبي حيان (١٧٩/٥) و« التحرير والتنوير » لابن عاشور
(١١٢/٩) قال الصغاني : « هذا نظمٌ لم يُسمع قبل القرآن ، ولا عرفته العرب ، والأصل فيه
نزولُ الشيء من أعلى إلى أسفل ، ووقوعه على الأرض ، ثم اتَّسع فيه فقبل للخطأ من الكلام :
سَقَطَ ؛ لأنهم شَبَّهوه بما لا يُحتاج إليه فيسقط » ، « العباب الزاخر واللباب الفاخر » للصغاني
(٨٤) (حرف الطاء)

(٢) قال سيبويه في « الكتاب » (٣٤ / ١) : « كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم بيانه
أعنى ، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم » ينظر : « دلائل الإعجاز » للجرجاني (١٠٧/١)

- أن من المعلوم أن العلم بالضلال وحده لا يقتضي العفو والمغفرة إلا إذا ترتب عليه العمل بمقتضاه ، وهو التوبة ، فإن الذين ضلُّوا على علم ولم يتوبوا أشدُّ الناس عقاباً ، فعُلم بذلك أن تقديم الندم أهمُّ من العلم بالضلال^(١) .

❁ يظهر صدقُ اعتذارهم في اعترافهم : ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ، إذ :

❁ اعترفوا بعظيم ما أقدموا عليه ؛ وهذا كما قال آدمُ وحواءُ : ﴿لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف : ٢٣] ، ولَمَّا كان هذا الذنبُ وهو اتخاذُ غيرِ الله إلهاً أعظمَ الذنوب ، بدؤوا بالرحمة التي وسعت كلَّ شيءٍ ، ومن نتائجها غفرانُ الذنبِ .

وأمَّا في قصة آدمَ فإنما جرتِ المحاورَةُ بينهم وبين الله تعالى على ما صدرَ منهما من أكلِ ثمرِ الشجرة ، بعد نهيه إياهما عن قربانها فضلاً عن أكلِ ثمرها ، فبادراً إلى ذكرِ الغفرانِ وأتبعاه الرحمة ؛ إذ غفرانُ ما وقع العتابُ عليه أكَّدُ ما يُطلبُ أولاً .

❁ أقسموا أنه لا يسعُهم بعد هذا الذنبِ إلا رحمةُ ربهم التي وسعت كلَّ شيءٍ ، قائلين : لئن لم يَرْحَمْنَا بقبولِ توبتنا والتجاوزِ عن جريمتنا لنكوننَّ من الخاسرين لسعادة الدنيا والآخرة .

(١) ينظر : « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (٢٨٦/٧) و« تفسير المنار » لرشيد رضا (١٧٦/٩) .

❁ جاء إقرارهم بالعبودية لله في قولهم: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ،
أي الذي لم يقطع قط إحسانه عنا ، استدراراً لعفوه ورحمته .

❁ حصل قبول الله توبتهم بعد امتحانهم بقتل أنفسهم ، كما جاء في سورة
البقرة ، وعلى ذلك قد يكون قبول التوبة والاعتذار ، بعد الاختبار والامتحان ؛
للدلالة على الصدق في ذلك ، وهذا وقع من الله للبشر ، كما وقع لسليمان مع
الهدهد حينما امتحن صدق عذره قبل قبوله ، وسيأتي ذلك في مبحث اعتذار
الهدهد إلى سليمان عَلَيْهِ السَّلَام .





المبحث الخامس

اعتذار بلقيس في قصة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ

جاء اعتذارُ مَلِكَةِ سَبَأَ لِهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في موضعٍ واحدٍ من القرآنِ لم يتكرَّرَ في غيره ، وذلك في سورة النملِ التي تحملُ جملةً من الاعتذاراتِ فيما يخصُّ سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في مُلْكِهِ الذي وَهَبَهُ اللهُ إِيَّاهُ ، تبدأُ هذه الاعتذاراتُ باعتذارِ حشرةٍ لملك ، ثم طيرٍ لملكٍ ، ثم ملكةٍ لملكِ الملوكِ سبحانه متضمِّناً شكراً للملكِ سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ولذا جاءت تسميةُ هذه السورة بسورة سليمان ؛ لأنَّ ما ذُكرَ فيها من مُلكِ سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء مُفصَّلاً .

هذا ، وبعد البيانِ لاعتذارِ الحشرةِ والطيرِ فيما سَلَفَ من الأبواب ، نلتفتُ هنا لاعتذارِ الملكةِ بلقيسَ لله سبحانه ، وكيف جاء الاعتذارُ .

بعد أن جاء الهدهدُ بالنبأِ اليقينِ عن الملكةِ بلقيسَ ، مستنكِراً عبادتهم للشمسِ من دون الله ، دعاها سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الإسلامِ بكتابٍ ألقاه عليها من بعيدٍ ، فبعثت إليه بهديةً لتنظرُ وتفحصَ أمره ومدى حماسه لدعوته وثباته عليها ، فردَّ عليهم سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالإنذارِ بجنودٍ لا قبلَ لهم بها ، وإخراجهم من مملكتهم مدحورين مهزومين ، وفي أثناء ذلك اتخذَ سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مساراً آخرَ لدعوة بلقيسَ والتأثيرِ في قلبها ، فأحضَرَ عرشها ونكَّرَ بعضه قبل مجيئها ، فلمَّا حضرت قيل لها : ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ﴾ [النمل: ٤٢] ، قالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ [النمل: ٤٢] ،

ودُهشت من هَوْلٍ ما رأت ، وأعدَّ لها سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أيضًا مفاجأةً أخرى ، ليتمكّن الإيمانُ من قلبها ، ويتخلَّل أعماقها ، فأمرها أن تدخل القصرَ ، فإذا هو قصرٌ ممرّدٌ من قوارير ، يجري الماءُ تحته ، فلمّا رأته ظنّته لجةً ماء ، فشمّرت عن ساقها ، فقليل لها : إنه صرّح ممرّدٌ من قوارير ، فهاها ذلك الموقفُ ، ووقفت مدهوشةً أمامَ هذه العجائبِ التي يعجزُ عنها البشرُ ، وتدل على أن سليمانَ قد سُخِّرَ له قوَى أكبرُ من طاقةِ البشر ، فرجعت إلى الله ، وناجته معترفةً بظلمها لنفسها فيما سَلَفَ من عبادةٍ غيره ، معلّنةً إسلامها مع سليمانَ لله ربِّ العالمين^(١) : ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل : ٤٤] ، وقد جاء النصُّ القرآنيُّ يبيّنُ سلامةَ فطرتها من خلالِ قصتها ، معللاً كفرها ؛ لنشأتها بين قومٍ كافرين ، وحينما جاءتِ الدعواتُ وقد لَمَسَتْ شَغافَ قلبها وسارعت إلى الإيمانِ برَبِّها .

تأملات في اعتذار بلقيسَ لله :

❁ ذكاءُ سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** في تعريفِ بلقيسَ بالله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** وعظيمِ قدرته وصدقِ رسالاته سبحانه ، قادها إلى التوبةِ وحسنِ الاعتذار ، فبادرت إلى الإيمانِ بالله من غيرِ حِوَارٍ أو جدالٍ ؛ لأنها عَرَفَتْ أن سليمانَ على الحقِّ ، ومع الحقِّ ، وفي هذا إشارةٌ إلى أن الحكمةَ في التعريفِ بالأخطاءِ تقودُ إلى حسنِ الاعتذار .

(١) ينظر : «معالم التنزيل» للبغوي (٥٠٧/٣) و«تفسير المراغي» (١٩/١٤٤) و«تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (٦٠٦) و«في ظلال القرآن» لقطب (٢٦٤٣/٥) و«التحرير والتنوير» لابن عاشور (٢٧٦/١٩) .

❁ حُسِنَتْ تَوْبَةُ مَلِكَةٍ سَبِيًّا ، فَأَسْلَمَتْ إِسْلَامًا كَامِلًا ؛ إِذْ أَقَرَّتْ بِالْوَهِيَةِ اللَّهِ بِقَوْلِهَا : ﴿لِلَّهِ﴾ ، وَبِرُبُوبِيَّتِهِ الشَّامِلَةِ الْمَطْلُوقَةِ بِقَوْلِهَا : ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، فَهُوَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ لِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ ؛ الَّتِي مِنْ جُمْلَتِهَا الشَّمْسُ الَّتِي كَانَتْ تَعْبُدُهَا مِنْ قَبْلُ .

❁ إِنْ الْمَعَاصِي ظَلَمٌ لِلنَّفْسِ ، وَإِنْ الْإِنْسَانُ مُؤْتَمِنٌ عَلَى نَفْسِهِ ، لِذَلِكَ اعْتَذَرَتْ بَلْقِيسُ مِنْ ظَلَمِهَا لِنَفْسِهَا .

❁ سَلَكَتْ بَلْقِيسُ فِي اعْتِذَارِهَا دَرَجَةَ التَّخْلِيَةِ ثُمَّ التَّحْلِيَةِ ، فَلَمَّا رَأَتْ آيَاتِ عِلْمَتْ أَنَّ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَادِقٌ فِيمَا دَعَاها إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُ مُؤَيَّدٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَاعْتَرَفَتْ بِظُلْمِهَا لِنَفْسِهَا بِاتِّبَاعِ الضَّلَالِ وَعِبَادَةِ الشَّمْسِ ، وَهَذِهِ دَرَجَةُ التَّخْلِيَةِ ، ثُمَّ صَعِدَتْ إِلَى دَرَجَةِ التَّحْلِيَةِ ، وَهِيَ التَّحَلِّيُ بِالْإِيمَانِ ، فَأَسْلَمَتْ لِلَّهِ وَاعْتَرَفَتْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ رَبُّ الْمَوْجُودَاتِ جَمِيعِهَا ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ فِي هَذَا الْوُجُودِ .

❁ حِينَما اعْتَذَرَتْ بَلْقِيسُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَكَرَتْ مَعِيَّتِهَا مَعَ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَادَهَا وَأَرْشَدَهَا ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الشُّكْرِ ، كَمَا قَالَ السَّحَرَةُ لِفِرْعَوْنَ : ﴿إِنَّمَا رَبُّنَا هَارُونُ وَمُوسَى﴾ [طه : ٧٠] ، وَهَذَا يَقُودُنَا إِلَى شُكْرِ مَنْ كَانَ سَبَبًا فِي الْاعْتِذَارِ .

❁ ظَهَرَتْ فَضِيلَةُ بَلْقِيسَ فِي مَسَارِعَتِهَا إِلَى التَّوْبَةِ عِنْدَ ظُهُورِ الْحَقِّ لَدَيْهَا ، وَهَذَا شَأْنُ الْمُنْصِيفِ الْعَاقِلِ ، فَلَمْ يَمْنَعْهَا عُلُوُّ شَأْنِهَا ، وَعَظَمَةُ سُلْطَانِهَا ، مِنَ النَّظَرِ فِي صَدَقِ الدَّلَائِلِ ، وَالْاعْتِرَافِ بِظُلْمِهَا لِنَفْسِهَا ، وَهَذَا يُعَلِّمُنَا أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اقْتَرَفَ الذَّنْبَ وَعَلِمَ بِذَلِكَ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَعْتَرِفَ وَيُؤَدِّرَ بِالْاعْتِذَارِ مَهْمَا بَلَغَ مِنْ عُلُوِّ الْمُنْصِيبِ أَوْ الْجَاهِ ، فَلَا يَمْنَعُهُ الْكِبَرُ مِنْ ذَلِكَ .

❁ ما أجمل ما جاء في القرآن من الاعتذار من تأخر إسلام بلقيس إلى لقاء سليمان **عليه السلام** : ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣] ، أي : لتأثرها بالبيئة وعقيدة أهل المملكة ، فقد منعتها عن عبادة الله ما كانت تعبد من الشمس والقمر ، وكانت من قوم كافرين غير مؤمنين بالله ووحانيته .



المبحث السادس

اعتذار فرعون

بعد أن يئس موسى عليه السلام من فرعون وملائته أن يكونَ فيهم خيرٌ، أتجه إلى ربّه يدعو عليهم بأن يدمّر أموالهم، ويشدّ على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذابَ الأليم، ومن حقّه أن يدعو عليهم؛ فقد طغوا وبغوا واستكبروا، وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه، فأمر الله عزّ وجلّ موسى عليه السلام أن يخرجَ بقومه من بني إسرائيلَ ليلاً من مصرَ، ولَمَّا علمَ فرعونُ غاظه ذلك، وجمعَ جنوده من مختلفِ البلادِ، وسار بهم لحاقاً بموسى وقومه، فأدركوهم وقتَ شروقِ الشمسِ على ساحلِ البحرِ، فخاف أصحابُ موسى عليه السلام، ولكنَّ موسى عليه السلام الواثقُ من وعدِ ربّه طمأنهم، فأوحى اللهُ إلى موسى أنِ اضربْ بعصاك البحرَ، فانفلق طريقاً في البحرِ ييساً، وعبرَ موسى عليه السلام ومَن معه، وتبعهم فرعونُ وقومه غاضبينَ سادرينَ في غيهم يريدونَ إهلاكَ موسى وقومه، ولكنَّ الله يُريدُ غيرَ ما يريدونَ، فقد كان دخولهم للبحرِ نهايتهم وهلاكهم، فبمجردِ دخولهم البحرَ عادتِ المياهُ وتراكمت فوقهم الأمواجُ، وأحاط بهم الموتُ، وأدرك فرعونُ أن هذه نهايته؛ حينما قهره الماءُ وأحاط به الموتُ من كلِّ مكانٍ، ونادى فرعونُ ربّه وتاب وآمن: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَاكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ

بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿يونس: ٩٠﴾، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُدَّتْ اللَّهُ أَلْتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤ - ٨٥]، وكرّر فرعون قبول ما كان يُدعى إليه فيأباه استكباراً: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، فأجابه الله موبخاً: الْآنَ تُقِرُّ لِلَّهِ بِالْعِبَادِيَّةِ، وَتَسْتَسْلِمُ لَهُ بِالذِّلَّةِ، وَتُخْلِصُ لَهُ الْأُلُوهِيَّةَ، وَقَدْ عَصَيْتَهُ قَبْلَ نَزُولِ نَقْمَتِهِ بِكَ، فَأَسْحَطْتَهُ عَلَى نَفْسِكَ، وَكُنْتَ مِنَ الْمَفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، الصَّادِّينَ عَنْ سَبِيلِهِ؟ فَهَلَّا وَأَنْتَ فِي مَهَلٍ، وَبَابُ التَّوْبَةِ لَكَ مُنْفَتِحٌ، أَقَرَرْتَ بِمَا أَنْتَ بِهِ الْآنَ مُقِرٌّ؟^(١).

تأملات في اعتذار فرعون لله :

❁ رَدَّ اللَّهُ تَوْبَةَ فِرْعَوْنَ مُسْتَنْكِراً مُسْتَقْبِحاً لِأَفْعَالِهِ ؛ فَقَالَ : ﴿ءَاَلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١] ، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « وهذا استفهام إنكار بين به أن هذه التوبة ليست هي التوبة المقبولة المأمور بها ؛ فإن استفهام الإنكار إما بمعنى النفي إذا قابل الإخبار ، وإما بمعنى الذم والنهي إذا قابل الإنشاء ، وهذا من هذا »^(٢) .

❁ لم تُقبل توبة من عاين العذاب وأيقن الهلاك ، لأنها توبة يائس مضطر

(١) ينظر : « جامع البيان » للطبري (١٥/١٩٤) و« تفسير المنار » لرشيد رضا (١١/٣٨٨) و« تيسير الكريم الرحمن » للسعدي (١٧١) و« أضواء البيان » للشنقيطي (٥/٢٥٧) .

(٢) « مجموع الفتاوى » (١٨/١٩٠) .

من غير اختيار؛ ولذا فعلى الإنسان البدأ بالتوبة والاعتذار لله وقت السعة والرخاء، وقبل الإحاطة بالعذاب، ومن رحمة الرحيم التواب أن جعل باب التوبة مفتوحاً ليل نهار، وفي هذا إهابةً بالمكذّبين والعاصين أن يتعلّقوا بخيوط النجاة الأخيرة.

❁ الرصيد السابق سبب لقبول التوبة والاعتذار، ففرعون حينما قدّم توبته لله وبّخه سبحانه بعضيانه السابق وإفساده في الأرض؛ فقال: ﴿ءَأَلَكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، وفي المقابل كان سبب قبول توبة يونس عليه السلام كثرة عمله السابق: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤]، وقد أثنى عليه سبحانه في ذلك، وقد بيّناه في اعتذار يونس عليه السلام.

❁ ما جاء من ردّ توبة فرعون واعتذاره لله، عبرة لأولي الألباب، وتحذير من العصيان والابتعاد عن دين الله، والاستكبار والعلو في أرضه، كما جاء التعقيب القرآني بعد قصته: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفُلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

❁ التوبة والاعتذار لله نوعان:

- التوبة في حال السعة والرخاء وقبل ورود حياض الموت، لتدارك الهفوات والزلات والعثرات، وهذه نعمة من الله يوفق من شاء إليها بحكمته وعدله، وهي توبة اختيار.

- التوبةُ حين معاينةِ الموتِ والهلاكِ ، وهي انفعالٌ لصاحبِها لا فعلٌ له ،
وحينها لا يُقبَلُ من العاصين توبةٌ ولا من الكفار رجوعٌ ، وهي توبةٌ اضطرار ،
وهذا ما حَدَثَ من فرعون حين أعلن توبته ، وجملَةُ القول في حاله كما قال
الشاعرُ :

أنت وحياض الموتِ بيني وبينها وجادتْ بوصل حين لا ينفعُ الوصلُ^(١)



(١) ينظر : « تفسير المنار » (١١ / ٣٨٨) وهذا البيت أصله لامرئ القيس بن عابس الكندي ،
ونصه :

دنت وظلالُ الموتِ بيني وبينها وأدلتْ بوصل حين لا ينفعُ الوصلُ

و« تاريخ دمشق » لابن عساكر (٩ / ٢٥٣) .

الفصل الثالث

الاعتذار للأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

وفيه سبعة مباحث :

المبحث الأول : اعتذار إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : اعتذار إخوة يوسف ليعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ حينما زعموا أنه أكله الذئب .

المطلب الثاني : اعتذار إخوة يوسف ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ .

المطلب الثالث : اعتذار إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيهم حينما ظهر أمرهم .

المبحث الثاني : اعتذار امرأة العزيز .

المبحث الثالث : اعتذار هارون لموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ .

المبحث الرابع : اعتذار الهدهد لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ .

المبحث الخامس : اعتذار المستهزئين بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

المبحث السادس : اعتذار أغنياء المنافقين للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

المبحث السابع : اعتذار المعذَّرين من الأعراب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .



المبحث الأول

اعتذار إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : اعتذار إخوة يوسف ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما زعموا أنه أكله الذئب .

المطلب الثاني : اعتذار إخوة يوسف ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ .

المطلب الثالث : اعتذار إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيهم حينما ظهر أمرهم .



المطلب الأول

اعتذار إخوة يوسف ليعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ حينما زعموا أنه أكله الذئب

لقد حظي يوسف بحبٍّ أبويه يعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وغازَ ذلك إخوته ، فأكثوا له في أنفسهم الحقدَ والعداًءَ ، وتسَلَّلَ الشيطانُ إلى ذلك الحقدِ ، فبدؤوا بالكَيْدِ له ، والتخطيطِ ليخلو لهم وجهُ أبيهم ويكونوا من بعده قومًا صالحين .

فَسَجَّجُوا خيوطَ المؤامرة بإقناعِ أبيهم بإرسالِ يوسفَ يمرحُ ويلعبُ وهم له حافظون ، على مَضَضٍ من أبيهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وهنا تتَّمُ المؤامرةُ ويخلو الجوُّ ، فَيُلْقُوا أخاهم في بئرٍ مهجورةٍ لعل بعضَ السيارةِ يلتقطونه ، ولكن ماذا عساهم أن يفعلوا بعد هذه الفَعْلَةِ الشنيعةِ؟! لم يكن أمامهم سوى الاعتذارِ المزيَّفِ المدروس من قبل .

فَرَجَعُوا إلى أبيهم ليلاً يَسْبِقُهُم الصراخُ والبكاءُ : ﴿ وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ ﴾ [يوسف: ١٦] ، ففزع يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وعِلِمَ أَنَّ هناك خطبًا جلالاً ، فبادروه بالاستعطافِ والاعتذارِ : ﴿ يَتَّابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَتَرْكُنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف: ١٧] .

فوصفوا له الحال ، وأبانوا له ما كان ، من أكل الذئب لأخيهم من غير كذبٍ أو إهمال ، وجأؤوا بالأدلة الشاهدة على صدق المقال : ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ﴾ [يوسف : ١٨] ، وأشعروا أباهم بعدم تصديقه لهم حتى مع مجيء الأدلة والبيان ، لفرط حبه ليوسف ، لكن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام أدرك من دلائل الأحوال أنها مكيدةٌ نُسجت ثم أُحكمت بالأدلة الواهية ، فواجههم بأن نفوسهم حسنت لهم أمراً منكراً ، وذلكته ويسرت لهم ارتكابه ، وأنه سيصبر متحملاً متجماً ، لا يفزع ولا يجزع ولا يشكو إلا إلى الله ^(١) : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف : ١٨] .

تأملات في اعتذار يوسف ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَام :

❁ استعطف إخوة يوسف أباهم أولاً بأن أقبلوا عليه وقد علت أصواتهم بالبكاء ، ثم استعطفوه بنداء الأبوة المضاف إليهم ﴿يَا أَبَانَا﴾ ليرحمهم ، فيترك الغضب الداعي إلى تكذيبهم ، فهم يحاولون تلطيف الجؤ الممتلي بالمخاوف بهذا النداء ، ليقدموا بعد ذلك اعتذارهم الكاذب .

❁ يبرز القرآن وقت مجيئهم لما فيه من العبرة : ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ، فقد رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ؛ ليكونوا في الظلمة أجراً على الاعتذار والكذب ، وقد قيل : لا تطلب الحاجة في الليل ؛ فإن الحياء

(١) ينظر : « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (١٤٥ / ٩) و « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (٣٩٤ / ٤) و « السراج المنير » للزحيلي (٧٧ / ٢) و « إرشاد العقل السليم » لأبي السعود (٢٥٩ / ٤) و « تيسير الكريم الرحمن » للسعدي (٣٩٤ / ١) .

في العينين ، ولا تعتذر في النهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار ، وتلك أول أمارات الاعتذار الكاذب ، لما توحى به قسّمات الوجه ولمحاته من صدق الاعتذار وكذبه ، وقد يفهم ذلك من العيون خاصّة ، كما يقال ^(١) :

والعين تعرف من عيني محدّثها إن كان من حزبها أو من أعاديها

❁ كاد المريب يقول خذوني ، وهذا ظاهر في اتهامهم لأنفسهم قبل أن يقول به أحد ، نتيجة لما يشعرون به في قرارة أنفسهم من أنهم جاؤوا بالكذب والبهتان ، وتلك من علامات الاعتذار الكاذب .

❁ المبالغة في إخفاء الحقيقة بالأقوال الكاذبة والصّور المضلّة تجعلها محلاً للشك ، وتدفع إلى بذل الجهد لكشفها ورفع الغطاء عن أстарها .

❁ الاعتذار الكاذب يقدح في المروءة ؛ فإن المعتذر الكاذب يستغل الظروف ويستجيش العواطف ، ويستخدم الأساليب الكاذبة حتى ينجح في الخروج من خطيئته .

❁ الاعتذار يُرد إن وُجدت القرائن الدالة على الكذب فيه ؛ فإن يعقوب عليه السلام حينما رأى الحال ، وأحسّ بكذب الأبناء قال : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ .

❁ الاعتذار الجاهز المدبّر بليّ لا يُقبل ، فهو تسويغٌ مأكّر .

(١) البيت مجهول القائل ، ينظر : « الزهرة » لابن داود (ص ٧٦٦) و « غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة لابن برهان الدين (٥٨)

❁ يظهر سُمُو خلقِ يعقوب **عَلَيْهِ السَّلَامُ** في ردِّ اعتذارِ بنيه ، فمع صُدُورِهِ من قلبِ أبٍ محروقِ الفؤادِ ، إلا أننا نجدُهُ أهونَ كلامٍ ، وأعفَّ كلامٍ ، يمكن أن يُنتظرَ من شخصٍ في هذه الحال ؛ فلم يصرِّحْ بكذبهم ، بل عبَّرَ لهم عن ذلك بأوجزِ عبارةٍ وأطهرِها ، ثم خاطبَ نفسه بالصبرِ الجميلِ على ما حلَّ به ، ثم توجَّهَ إلى الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** في طلبِ العونِ على ما حدث ، وإظهارِ كذبِ بنيه ، فقد كان واثقًا **عَلَيْهِ السَّلَامُ** من كذبهم ، مُدْرِكًا ذلك من دلائلِ الحال ، فما أحوَجنا إلى هذه الحكمةِ والسموِّ في ردِّ الاعتذارِ .

❁ لقد كان ردُّ يعقوب **عَلَيْهِ السَّلَامُ** موجزًا بليغًا ، تمثلت به الصِّدِّيقَةُ بنتُ الصِّدِّيقِ في جوابِها في حادثةِ الإفك حينما قالت : « إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ ، وَوَقَرْتُ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ لَا تَصَدَّقُونِي بِذَلِكَ ، وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتَصَدَّقَنِي ، وَاللَّهُ مَا أَجْدُ لِي وَلَكُمْ مِثْلًا ، إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ : ﴿ فَصَبَّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ أَلْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ » ^(١) .

❁ تحقَّقَ الكذبُ وظهرَ في اعتذارِ إخوةِ يوسف **عَلَيْهِ السَّلَامُ** ، وذلك أنَّه بعدما سمِعوا كلامَ أبيهم بشأنِ ما ادَّعوه في يوسف تفرَّقوا وهم سكوتُ صامتون ، فتحقَّقَ أنهم غيرُ صادقين في نبئهم .



المطلب الثاني

اعتذار إخوة يوسف ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ

بعد أن تولَّى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ خزانَ مصرَ في سنوات الجَدْب والقَحْط ، استطاع بالتخطيط والتدبير كما أوضحت الآيات في السورة ، وسيأتي بيان ذلك في اعتذار إخوة يوسف لأصحاب العير أن يضمَّ إليه أخاه الصغير في مصر ، حينها عظم الخطبُ على يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وأثار الحزنُ الجديدُ -أي: فقداه لابنه الصغير الحزنَ القديمَ ، وعلم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أن نهايةَ البلاء قد دنت ، فأمر بنيه بأن يتحسَّسوا من يوسف وأخيه ، وألَّا يئسوا من رَوْحِ الله ، ففرجُه دائماً منظورٌ ، والمؤمنون الموصولَةُ قلوبُهم بالله لا يئسون من رَوْحِه ، ولو أحاطت بهم الكروبُ ، وبعد هذا الأمل الذي بثَّ يعقوبُ في بنيه خرجوا لطلب الرزق ، وتنفيذ ما كلفهم به أبوهم : ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف : ٨٧] .

فدخلوا على عزيز مصر بنفوسٍ منكسرةٍ : ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَاةٍ قَاوِفْ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف : ٨٨] ، فلما انتهى بهم الأمرُ إلى هذا ، رَقَّ لهم يوسف رقةً شديدةً ، وأفضى لهم بالحقيقة ، إذ سألهم : ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف : ٨٩] ، سؤال

العارف المتجاهل ، يُريد به عِتَابًا لا لَوْمًا ، واستثناسًا لا استيحاشًا ، واعتذارًا لهم قبل أن يعتذروا ، إذ أضاف ما فعلوه إلى ما كان منهم من جهل ، ولو علموا ما وقعوا فيما فعلوا ، فهم معذورون إذ كانوا جاهلين ، ثم زادهم على ذلك فقال : ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف : ٩٢] ، وهكذا بسط لهم جناح الاعتذار والصَّفْح ، قبل أن يُبادِلوه الكلام ، فبادره إخوته بالاعتذار : ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف : ٩١] ، ويجيبهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَام بما هو معهود من خُلُقهِ الكريم : ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف : ٩٢] ، ما أعظمه من عَفْوٍ خالٍ من التعيير والتأنيب ، ذهب أريجُه عطرًا مدى الأيام والسنين^(١) .

تأملات في اعتذار إخوة يوسف لأخيهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَام :

❁ يظهر واضحًا عظيم خلق يوسف عَلَيْهِ السَّلَام في إظهار العذر لإخوته عند إبلاغهم بخطيئهم ، وفي هذا يقول ابنُ جُزَي : « ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ اعتذارٌ عنهم ، فيُحتمل أن يريد الجَهْل بقبح ما فعلوه أو جهل الشباب^(٢) .

ويقول السعدي : « وهذا نوعُ اعتذارٍ لهم بجهلهم^(٣) ، وهذا النوعُ من الاعتذار نادرٌ وعزيزٌ .

(١) ينظر : « جامع البيان » للطبري (٢٤٧/١٦) و« تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (٤٠٨/٤) و« بصائر ذوي التمييز » للفيروزآبادي (٣٤٨/٢) و« نظم الدرر » للبقاعي (٢١٥/١٠) « في ظلال القرآن » لقطب (٢٠٢٧/٤) « البداية والنهاية » لابن كثير (٢١٦/١) .

(٢) « التسهيل لعلوم التنزيل » (٣٩٥/١) .

(٣) « تيسير الكريم الرحمن » (٤٠٤) .

❁ مبادرة إخوة يوسف بالاعتراف والاعتذار: ﴿تَاللّٰهِ لَقَدْ ءَاثَرَكُمُ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ﴾ ، وفي ذلك يقول البقاعي: «إن» خففوها من الثقل تأكيداً للإيجاز للدلالة على الاهتمام بالإبلاغ في الاعتذار في أسرع وقت^(١).

❁ اعترافهم بتعمدهم للخطأ في قولهم: «خاطئين» أي: عريقين في الخطأ متعمدين له، يقول السعدي: «وهذا غاية الاعتراف منهم بالجُرم الحاصل منهم على يوسف»^(٢).

❁ تقديمهم للثناء عليه قبل الاعتراف، تهيةً للنفس في قبول العذر: ﴿تَاللّٰهِ لَقَدْ ءَاثَرَكُمُ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ﴾ ، وذلك بعدما جحدوا فضله في قولهم: ﴿يُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨].

❁ تسامي يوسف عَلَيْهِ السَّلَام فوق قبول العذر بالصَّفح الجميل، الخالي من التعبير والتأنيب، ولسان حاله يقول:

يا مَنْ عَدَى ثم اعتدى ثم اقترف
ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترف
أبشِرْ بقولِ الله في آياته
«إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ»^(٣)

(١) «نظم الدرر» (١٠/٢١٠).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٠٤).

(٣) البيتان لأبي منصور عبد القاهر البغدادي التميمي الأسفراييني، من كبار علماء الشافعية، ينظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (١٣٩/٥)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢٢٣/١٣).

❁ سَمَحَ لَهُمْ يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَمَاحًا تَامًا مِنْ غَيْرِ تَعْيِيرٍ ، وَالْأَعْجَبُ أَنَّهُ عِنْدَمَا أَسْقَطَ حَقَّهُ عَنْهُمْ ، دَعَا اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يُسْقِطَ الذَّنْبَ عَنْهُمْ ، فَأَيُّ خُلُقٍ هَذَا؟ لَقَدْ بَلَغَ بِهَذَا نَهَايَةَ الْإِحْسَانِ ، الَّذِي لَا يَتَأَتَّى إِلَّا مِنْ خَوَاصِّ الْخَلْقِ وَخِيَارِ الْمَصْطَفِينَ .

❁ لَقَدْ أَثَرِ يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْعَفْوَ الَّذِي هُوَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ الْإِنْتِقَامِ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ ؛ وَهُوَ مَرَارَةٌ سَاعَةً ، ثُمَّ السَّعَادَةُ إِلَى الْأَبَدِ ، وَالْعُدُولُ عَنِ الْإِنْتِقَامِ إِلَى الْغَفْرِ ، وَلَا غَرَابَةَ ؛ فَكُلُّ مَوَاقِفِهِ يُتَوَجَّهْهَا الصَّفْحُ الْكَرِيمُ ، وَالْعَفْوُ الَّذِي لَا يُبَارَى .

قال شاه الكرمانى^(١) : « مَنْ نَظَرَ إِلَى الْخَلْقِ بِعَيْنِ الْحَقِّ لَمْ يَعْأُ بِمُخَالَفَتِهِمْ ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِهِ أَفْنَى أَيَّامِهِ بِمُخَاصَمَتِهِمْ ، أَلَا تَرَى يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا عَلِمَ مُجَارِي الْقَضَاءِ كَيْفَ عَذَّرَ إِخْوَتَهُ »^(٢) .

❁ مَا أَقْرَبَ مَا وَقَعَ مِنْ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالْكَافِرِينَ الْغَائِظِينَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

(١) الكرمانى : شَاهُ بْنُ شُجَاعٍ الْكَرْمَانِي ، يُكْنَى أَبُو الْفَوَارِسِ ، كَانَ مِنْ أَوْلَادِ الْمُلُوكِ فَتَزَهَّدَ ، كَانَ ظَرِيفًا فِي الْفَتْوَى عَرِيفًا فِي الْمَرْوَةِ ، صَحَبَ أَبَا تَرَابِ النَّخْشِي وَأَبَا عُبَيْدِ الْبَسْرِيِّ وَغَيْرَهُمَا ، وَلَا نَعْلَمُهُ أَسْنَدَ حَدِيثًا ، وَحَكَى السَّلْمِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الرَّازِيِّ قَالَ : أَظُنُّهُ مَاتَ بَعْدَ سَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . ينظر : « حَلِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ » لِأَبِي نَعِيمٍ (٢٣٧ / ١٠) وَ« صِفَةُ الصَّفْوَةِ » لِابْنِ الْجَوْزِيِّ (٢ / ٢٧٤)

(٢) نَقْلُهُ الْأَلُوسِيُّ فِي : « رُوحُ الْمَعَانِي » (٧٧ / ٧) .

❁ لقد نسج يوسفٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ نموذجًا في الاعتذارِ ، لو تأملناه لرسمنا القواعدَ المثلى والأولى في الاعتذارِ وقَبُولِهِ ؛ ففي اعتذاره عن إخوته المُعتَدِينَ في حقِّه درسٌ فريدٌ ، وفي قَبُولِهِ للاعتذارِ من غيرِ تَثريبٍ ، ودَعَائِهِ لِإِخْوَتِهِ بِالْعَفْوِ والغفرانِ دروسٌ ، وَمَنِ اعتَبَرَ بِذلك حَرِيٌّ أَنْ يُعِزَّهُ اللهُ ، وَيُسَبِّغَ عَلَيْهِ نِعَمَهُ وَخَيْرَاتِهِ في الدنيا والآخرة .



المطلب الثالث

اعتذار إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيهم حينما ظهر أمرهم

بعد أن انكشف الغطاء بين يوسف وإخوته ، وتم الاعتذار واللقاء ، سارع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مَنْ ابْيَضَّتْ عيناه من الحزن فهو كظيمٌ ، وأرسل مع إخوته بالقميص لكشف ما غطى قلبه من حزن ، فلمَّا خرجت العير من مصر ورجع الإخوة يحملون القميص ، قال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْنِي دُونَ ﴾ [يوسف : ٩٤] ، فوقع ما ظنَّه يعقوبُ بمن حوله : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : ٩٥] ، أي : ما زلت تائهاً في بحر الحبِّ ليوسف لا تدري ما تقول .

لا يعرفُ الشوقَ إلا مَنْ يُكابِدُه ولا الصبابةَ إلا مَنْ يُعَانِيهَا^(١)
لا تعذِّلُ المشتاقَ في أشواقه حتى يكونَ حشاك في أحشائه^(٢)

(١) البيت للأبلة بن بختيار الشاعر ، الأبلة : أبو عبد الله محمد بن بختيار بن عبد الله البغدادي ، المعروف بالأبلة ؛ لقوة ذكائه ، شاعر مشهور أحد المتأخرين المجيدين ، شاب ظريف ، رقيق أسلوب الشعر ، مات في جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وخمسائة ، لم يبلغ الستين . ينظر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان (٤ / ٤٦٣) و « سير أعلام النبلاء » للذهبي (٣٣٥ / ١٥) .

(٢) البيت للمتنبي كما في « ديوانه » (٣٤٣)

فلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ وَأَلْقَى الْقَمِيصَ عَلَى يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ارْتَدَّ بَصِيرًا، وَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦]، ويعتذرُ الأبناءُ إلى أبيهم: ﴿يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧]، ويَعِدُّهُمْ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الاستغفارَ لهم^(١): ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨].

تأملات في اعتذار إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيهم عَلَيْهِ السَّلَامُ :

❁ لقد أحسَّ إخوةُ يوسفَ بِعَظَمِ الذَّنْبِ، فسارعوا إلى الاعتذارِ، واستهَلُّوا اعتذارَهم بِنِداءِ الأبوةِ؛ لتقديمِ الشفقةِ على ما سَبَقَ منهم من الخطيئةِ.

❁ اعتذرَ إخوةُ يوسفَ إلى أبيهم بصيغةِ التأكيدِ تحقيقًا لصدقِ اعتذارهم: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾، كما أن قولهم «خاطئين» يدلُّ على تعمُّدهم للخطأ^(٢).

❁ لما سألَ أبناءُ يعقوبَ أباهم الاستغفارَ علَّلوا سؤالهم بالاعتراف؛ لأنَّ الاعترافَ نصفُ الاعتذارِ، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»^(٣).

❁ اقتصرَ إخوةُ يوسفَ في اعتذارهم على طلبِ الاستغفارِ، وفي ذلك يقولُ الألويسيُّ: «وَكأنَّهُمْ كَانُوا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ عَفْوِهِ، وَلِذَلِكَ اقْتَصَرُوا عَلَى طَلْبِ

(١) ينظر: «جامع البيان» للطبري (٢٤٧/١٦) و«لطائف الإشارات» للقيصري (٢٠٧/٢) و«محاسن التأويل» للقاظمي (٢١٤/٦) و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٢٦٢/٩).

(٢) سبق أن بُيِّنَ هذا المعنى في ()

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٦١)

الاستغفار ، وأدركوا ذلك في الاستغفار»^(١) .

❁ قد يلزم عند الاعتذار إلى البشر اقترانه بطلب العفو من الله ، كما كان من أبناء يعقوب مع أبيهم ، وذلك لعظم ما اقترفوه في حق أبيهم ، وما نالهم من المآثم من جرّاء ذلك .

❁ وقف إخوة يوسف بين يدي أبيهم موقفاً يماثل الذي وقفوه بين يدي يوسف عليه السلام ، ولقد لقيهم يوسف بالصفح والمغفرة ، من غير مهل ولا إبطاء ، أما أبوهم يعقوب ، فإنه لم يلقهم بهذا الصبح وتلك المغفرة من فوره ، بل جعل ذلك وعداً مستقبلاً ، يجيء على تراخٍ من الزمن .



(١) «روح المعاني» (٧/٥٣) .



المبحث الثاني

اعتذار امرأة العزيز

بعد أن كان ما كان من إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كما بيَّناه في المطلب الأول من المبحث السابق شاء الله أن يُتِمَّ أمره ويجتبي عبده ويُعَلِّي مَقَامَهُ .

فقد ذهب إخوة يوسف بعد أن أَلْقَوْا أَخَاهُمْ فِي ظِلْمَةِ الْجُبِّ ، ولكنَّ رعاية الله لم تذهب عنه ؛ إذ أرسل إليه سبحانه المارة ليُخْرِجوه ، وَيَبْعُوهُ إِلَى عَزِيزِ مِصْرَ ، فيخرج من محنة إخوته ، ويدخل في بيت العزيز ، فيستبشر به ويأمر زوجته بإكرامه : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [يوسف : ٢١] ، فتكرمه تلك المرأة الجريئة ولكن على طريقتها الخاصة ، القائمة على الفتنة والمرادة ، فيأبى يوسف ذلك الإكرام المزعوم ، ويستعصم بعفته وطهارته مستعيناً بالله : ﴿ وَرَاودَتْهُ أَلْفَى هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف : ٢٣] ، ولكنها تُصِرُّ على ذلك : ﴿ وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمُرُّهُ لَيْسَجَنَ وَلَيُكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴾ [يوسف : ٣٢] ، فيؤثر يوسف السجن على أن يأتي ما حرم الله : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣٣] ، فيلقى في السجن مع ظهور نزاهته : ﴿ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجَنُهُ وَهِيَ تَحِينَ ﴾ [يوسف : ٣٥] ، لحكمة أرادها الله .

وتتوالى السَّنُونَ والأَيَّامُ ، وتندثرُ قضيتُهُ ، ويضمحلُّ ذكرُهُ ، حتى يشاء الله أن يُخْرِجَهُ ، فيَحْظَى بتفسير رؤيا الملك بعد إعراض حاشيته عن ذلك ، ويُعَجَّبُ الملكُ بذلك التأويلِ ويأمرُ بإخراجه ، ولكنَّ النفسَ العزيزةَ تأبى أن تكونَ طليقةَ الملكِ من غيرِ أن يَتَحَقَّقَ عذرُها وتظهرَ براءتُها ، فيرفضُ يوسفُ الخروجَ حتى ينظرَ الملكُ في قضيتِهِ ، ويأمرُ الرسولَ بالرجوعِ إلى الملكِ وإخبارِهِ بذلك : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤَنِّئُ بِهِ فَلَما جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَعَلَهُ مَا بَالُ اللَّسَوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف : ٥٠] .

وهنا يعيدُ الملكُ النظرَ في القضيةِ ويسألُ النساءَ ، فيُجِبْنَ مُجْمَعَاتٍ : ﴿حَشَ لِّلَّهِ﴾ : ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَشَ لِّلَّهِ مَا عَلَمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف : ٥١] ، تلك الكلمةُ التي قُلْنَاهَا يَوْمَ أُعْجِبْنَ بِجمالِهِ وبهاءِ طلعَتِهِ : ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَشَ لِّلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف : ٣١] ، لكنهنَّ اليومَ يقلنَّها إعجابًا بالجانبِ الخُلُقِيِّ ، وتتفرَّدُ امرأةُ العزيزِ بالاعترافِ ، وتتقدَّمُ أمامَ الملكِ والمَلَأَ : ﴿الَّذِينَ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف : ٥١] .

اعترفتُ أَنَّ الحقَّ ظهرَ وَأَنَّ رَغْوَةَ الباطلِ تَبَدَّدَتْ ، وَصَرَّحتُ بالحقيقةِ وَتَحَمَّلْتُ المسؤوليةَ : ﴿أَنَا رَاودْتُهُ﴾ ، ولم تكتفِ بذلك ، بل أَتَبَعَتْ اعترافَها الشَّناءَ على يوسفَ والشَّهادةَ له بالصدقِ والنزاهةِ والطهارةِ عَمَّا دَنَسَتْ بِهِ عَرْضَهُ من قَبْلُ ، وهذا اعترافٌ منها بالحقِّ وإقرارٌ به ، فالاعترافُ نصفُ الاعتذارِ ، ثم أَتَبَعَتْ اعترافَها صريحَ اعتذارِها ليوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ

بِالْغَيْبِ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ [يوسف: ٥٢] ، فهي تُقرُّ بنزاهته أمامَ الملكِ مع غيابه عَلى ذلك يكفِّرُ خطيئتها ، والله لا يهدي كيدَ الخائنين ، فإنها قد خانته من قبلُ وأودعته السجنَ ، وهي تعتذرُ اليومَ عمَّا جرى ، وعن تسويلِ نفسِها لها ، وتتوجَّه إلى الله بالاستغفارِ وتطمع في مغفرته ورحمته ^(١) : ﴿وَمَا أَكْبَرُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣] .

وبهذا تنتهي مرحلة المحنة والبلاء في حياة يوسف **عليه السلام** ، وتبدأ مرحلة العزِّ والتمكين بتقريب الملك له وتوليته على خزائن مصر ، وهذا الاعتذارُ أولُ اعتذارٍ يُلقي على يوسف في هذه السُّورة .

تأملات في اعتذار امرأة العزيز :

❁ يظهرُ الوضوحُ في الاعتراف في قولها : ﴿أَنَا زَوَدْتُهُ﴾ ، فهي تصرِّحُ بفعل المرادة وتَقصُرُها على نفسها ، وتُثبت براءة يوسف التامة .

❁ إتباعُها الاعترافَ بصريح الاعتذار : ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ ، وهذا ما يَحْتَاجُ إليه كثيرٌ من اعتذاراتنا ، فغالبًا ما يأتي الاعتذارُ غامضًا غير صريح ، استجابةً وإذعانًا لحظوظِ النفسِ التي يُنهكُها التصريحُ بالاعتذار والأخطاء .

❁ الشجاعةُ في التقدُّمِ والاعتذارِ أمامَ الملكِ والملا ، والتصريحُ بجرمِها مع صعوبة الموقف ، وما قد يَحْمِلُهُ هذا الاعترافُ من تبعاتٍ على حياتها وعلى

(١) ينظر : « جامع البيان » للطبري (١٤٠ / ١٦) « النكت والعيون » للماوردي (٤٧ / ٣) و « مفاتيح الغيب » للرازي (٤٦٦ / ١٨) و « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (٢٠٨ / ٩) .

مَقَامِهَا فِي ظِلِّ دَائِرَةِ الْمَلِكِ ، فَجُرِّمًا أَلْبَسْنَاهُ بَرِيئًا عَلَى مَلَأٍ لَا بَدَّ أَنْ نَنْزِعَهُ مِنْهُ عَلَى مَلَأٍ ، وَفِي هَذَا يَقُولُ ابْنُ عَاشُورَ : « وَفِي اعْتِرَافِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ بِحَضْرَةِ الْمَلِكِ عِبْرَةٌ بِفَضِيلَةِ الْاعْتِرَافِ بِالْحَقِّ ، وَتَبَرُّثِ الْبَرِيِّ مِمَّا أُصِيقَ بِهِ »^(١) .

❁ تَظْهَرُ لَهْجَةُ الصَّدَقِ وَالنَّدَمِ فِي اعْتِذَارِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ ؛ فَهِيَ تَعْتَرِفُ بِالْمَرَاوِدَةِ ثُمَّ تَشْهَدُ لِيُوسُفَ بِالصَّدَقِ وَالنِّزَاهَةِ ، ثُمَّ تَعْتَذِرُ لَهُ عَمَّا بَدَّرَ مِنْهَا ، وَتَبَيَّنُ الْأَسْبَابَ الَّتِي أَوْقَعَتْهَا فِي الْجُرْمِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ابْنُ الْقِيَمِ : « هَذَا مِنْ تَمَامِ الْاعْتِذَارِ ؛ قَرَنْتِ الْاعْتِذَارَ بِالْاعْتِرَافِ ، فَقَالَتْ : « ذَلِكَ » أَيِ : قَوْلِي هَذَا وَإِقْرَارِي بِبِرَائَتِهِ ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْهُهُ﴾ بِالْكَذِبِ عَلَيْهِ فِي غَيْبَتِهِ ، وَإِنْ خُتِّتْهُ فِي وَجْهِهِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ، فَالآنَ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَخْهَنْهُ فِي غَيْبَتِهِ ، ثُمَّ اعْتَذَرْتُ عَنْ نَفْسِهَا بِقَوْلِهَا : ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ ثُمَّ ذَكَرَتْ السَّبَبَ الَّذِي لِأَجْلِهِ لَمْ تُبْرِئْ نَفْسَهَا ، وَهِيَ أَنَّ النَّفْسَ أَمَارَةٌ بِالسُّوءِ . فَتَأَمَّلْ مَا أَعْجَبَ أَمْرَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ ؛ أَقَرَّتْ بِالْحَقِّ وَاعْتَذَرَتْ عَنْ مَحْبُوبِهَا ، ثُمَّ اعْتَذَرَتْ عَنْ نَفْسِهَا ، ثُمَّ ذَكَرَتْ السَّبَبَ الْحَامِلَ لَهَا عَلَى مَا فَعَلَتْ ، ثُمَّ خَتَمَتْ ذَلِكَ بِالطَّمَعِ فِي مَغْفِرَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَرْحَمْ عَبْدَهُ فَهُوَ عُرْضَةٌ لِلشَّرِّ »^(٢) .

❁ جَمِيلٌ أَنْ نُلْحِقَ اعْتِذَارَنَا بِالشَّهَادَةِ لِلْمَعْتَذِرِ إِلَيْهِ بِالنِّزَاهَةِ وَالصَّدَقِ ، فَتِلْكَ الْمَعَانِي كَفِيلَةٌ بِأَنْ تَمْحُو مَا قَدْ يَبْقَى فِي النَّفْسِ بَعْدَ الْاعْتِذَارِ ، فَالْاعْتِذَارُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَتَنَزَّعُ الْمَسْمَارَ مِنْ لَوْحٍ خَشْبِيٍّ ، وَتِلْكَ الْمَعَانِي بِمَنْزِلَةِ الطَّلَاءِ الَّذِي يُزِيلُ

(١) « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٦/١٣) .

(٢) ينظر : « تفسير القرآن الكريم » لابن القيم (٣٣١) .

تلك الآثار ، حتى تعود النفس صافية خالية من العتب ، كما كان من امرأة العزيز حينما وصفت يوسف بأنه من الصادقين ، أي : العريقين في هذا الوصف ؛ في نسبة المراودة إلي ، وتبرئة نفسه .

❀ كان اعتذار امرأة العزيز بعد طلب يوسف من الملك أن ينظر في أمره قبل خروجه من السجن ، وفي ذلك إشارة إلى أن الإنسان يطلب ظهور عذره إن لم يظهر ، ردًا للاعتبار وتبرئة لساحته عما يُقال .

❀ وفي رد يوسف عَلَيْهِ السَّلَام حينما طلب النظر في القضية ، إذ لم يصرح بذكر امرأة العزيز ، وإنما قال : ﴿ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَدِّهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ ، ولا عجب ؛ فهو الحليم ابن الحليم عَلَيْهِمَا السَّلَام ، وهذه لفظة إلى مراعاة الأدب في طلب الاعتذار ، ولا سيما أن ذلك سترك أثره في المعتذر فيبادر بجميل الاعتذار ؛ كما كان من امرأة العزيز .

❀ من كمال الاعتذار أن يُقرن الاعتذار إلى المخلوقين بطلب العفو من الله فيما بدر في حق غيره ، كما ختمت امرأة العزيز اعتذارها بذلك : ﴿ وَمَا أَكْبَرُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .





المبحث الثالث

اعتذار هارون لموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

حينما كان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بين يدي ربه ، أنباه سبحانه بارتكاسه قومه من بعده ، باتخاذهم العجل إلهاً يُعبد ، فعاد إليهم غضبان أسفاً ، يبدو انفعاله في قوله وفعله ، فعاتبهم على فعلهم أشد العتاب ، وألقى ما في يده من ألواح غضباً لله ، وأخذ برأس أخيه هارون يجُرُّه إليه ، وهو في ثورة الغضب ، يُعَاتِبُهُ على ما كان ، فاستجاش هارون في نفس موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عاطفة الأخوة الرحيمة ، لِيُسْكِنَ غضبه ، فيستطيع بعدها أن يقدم اعتذاره ويبيِّن له طبيعة موقفه ، وأنه لم يأل جهداً في هداية القوم ونصيحتهم ، فقال في سورة طه : ﴿يَبْنُوهُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَاقِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه : ٩٤] ، وقال في سورة الأعراف : ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا فَلَا تُشْمِتُ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف : ١٥٠] .

فاستعطفه بنداء الأمومة كي يُرْعِي له سمعه ، ثم أبان له عذره وعدم تقصيره في نصحه وإرشاده لقومه ؛ يقول : قد نصحتهم حتى كادوا يقتلونني ، فلا تفعل بي من المعاتبة والإهانة ما يُشْمِتُ بي الأعداء ، ولا تجعلني مع القوم الظالمين لأنفسهم بعبادة العجل ؛ بأن تلزني بهم في قرنٍ من الغضب والمؤاخذه ، فلست منهم في شيء ، وإنِّي خَشِيتُ أَنْ أَعْتَزِلَهُمْ أَنَا وَمَنْ كَانَ مَعِيَ مِمَّنْ لَمْ يَرْضَ مَا

فعله القوم ، فتقول لي : إنك فرقت بين بني إسرائيل ، ولم تتبع ما قلت لك حين دعوتك إلي أن تخلفني فيهم ، وأن تصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ، فرأيت أن أدع الأمر على ما هو عليه ، بعد أن نصحت واجتهدت في النصح ، حتى تأتي وتعالج هذا الأمر بما ترى ، أو بما يُريك الله .

حينها يهدأ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** ويدعو لأخيه بالعفو والغفران والرحمة^(١) : ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف : ١٥١] .

تأملات في اعتذار هارون لموسى **عَلَيْهِمَا السَّلَامُ**:

❁ مع شدة موسى على هارون **عَلَيْهِمَا السَّلَامُ** ، وما نال موسى من الغضب ، إلا أن حسن اعتذار هارون امتص غضب موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** .

❁ حينما غضب موسى على هارون **عَلَيْهِمَا السَّلَامُ** ، لم يلقه هارون بالشدة التي لقيه هو بها ، وإنما عرف لأخيه قدره ومقامه ، وأنه وزيره ، فقال بأدب ولطف : ﴿إِبْنُ أُمٍّ﴾ ، فأخذ في استعطافه ليطلق سراجه فيبين له اعتذاره ، وفي هذا تظهر الباقة في الاعتذار لأهل الفضل والمقام .

❁ نادى هارون شقيقه موسى **عَلَيْهِمَا السَّلَامُ** : ﴿يَبْنَورُ﴾ ، إشارة إلى أنهما من بطن واحد ، وذلك أدعى إلى العطف والرقّة ، وأعظم للحق الواجب ، ولأن الأم قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها .

(١) ينظر : « جامع البيان » للطبري (١٣ / ١٢٨) و « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (٣ / ٤٧٧) و « الكشف والبيان » للثعلبي (٤ / ٢٨٦) و « أضواء البيان » للشنقيطي (٨ / ٧٨) .

❁ نَلَحَظُ أَنَّ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَكَّدَ كَلَامَهُ بِ«إِنَّ»، لِأَنَّ التَّأَكُّدَ يَسْتَدْعِي قَبُولَ الْخَبَرِ، وَإِنْ كَانَ الْمُخْبِرُ لَا يُظَنُّ بِهِ الْكَذِبُ، أَوْ لَوْلَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ تَوَهَّمَ ذَلِكَ مِنْ حَالِ قَوْمِهِ، وَكَانَتْ حَالُهُمْ دُونَ ذَلِكَ، فَأَكَّدَ الْاعْتِذَارَ لِتَحْقِيقِهِ لَدَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١).

❁ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ أُمَّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا﴾، إِزَاحَةٌ لِتَوَهُّمِ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّهِ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، طَلَبُ الْحَقِّ بِاعْتِذَارِهِ لِتَعَلُّقِهِ بِهِ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ طَلَبِ الْعَفْوِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْعِقَابِ، وَإِزَاحَةٌ مَا يُوهِّمُ الْأَعْدَاءَ بضعفه وعدم رضا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عليه.

❁ أَمَامَ هَذِهِ الْوَدَاعَةِ وَالْبَيَانِ فِي الْاعْتِذَارِ، هَدَأَتْ نَائِرَةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاعْتَذَرَ لِأَخِيهِ بِالْإِعْذَارِ لَهُ، وَهَذَا تَظْهَرُ دِمَائُهُ خَلَقَ الْأَنْبِيَاءَ حِينَمَا يَعْتَذِرُ النَّبِيُّ لِلنَّبِيِّ، فَيَبَادِرُهُ بِالْاعْتِذَارِ أَيْضًا حِينَمَا يَظْهَرُ الْحَقُّ لَدَيْهِ، فَالْأَنْفُسُ الْكَبِيرَةُ لَا يَمْنَعُهَا عُلُوُّ الْمَقَامِ مِنْ تَقْدِيمِ الْاعْتِذَارِ، وَقَدْ رَأَيْنَا ذَلِكَ أَيْضًا فِي اعْتِذَارِ الْخَضِرِ لِمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي آخِرِ الْمَطَافِ.

❁ قَوْلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، أَيُّ: اغْفِرْ لِي مَا أَغْلَظْتُ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ، وَاغْفِرْ لَهُ مَا عَسَاهُ قَصَّرَ فِيهِ مِنْ مَوَازِيءِ الْقَوْمِ؛ لِمَا تَوَقَّعَهُ مِنَ الْإِيذَاءِ حَتَّى الْقَتْلِ، وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ الَّتِي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ بِجَعْلِهَا شَامِلَةً لَنَا مَغْمُورِينَ فِيهَا، وَهُوَ أَبْلَغُ

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» لابن عاشور (١١٧/٩).

من « واربحننا » ، وقوله : ﴿وَأَنْتَ أَزْهَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ثناءً يدلُّ على مزيدِ الثقة في الرجاء ، والدعاء في جملته من أقوى وسائل الاعتذار ، قال الزمخشري في تعليقه : « ليرضي أخاه ويُظهر لأهل السماوية رضاه عنه ، فلا تتم لهم شماتتهم ، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ، ولأخيه أن عسى فرط في حسن الخلافة ، وطلب ألا يتفرقا عن رحمته ، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة »^(١) .

❁ من بديع الاعتذار إضافة الألفاظ والمعاني الجميلة ، غير تلك التي تتعلق بمحو الخطأ ، فالاعتذار يمحو ما في النفس ، والمعاني الأخرى تُزيل تلك الندبات التي أحدثها الخطأ في النفس ، كما في دعاء موسى لهارون **عَلَيْهِمَا السَّلَامُ** .

❁ في اعتذار هارون لموسى **عَلَيْهِمَا السَّلَامُ** قال : ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ ، قال ابنُ عاشور : « وهذا اجتهاذ منه في سياسة الأمة ؛ إذ تعارضت عنده مصلحتان : مصلحة حفظ العقيدة ومصلحة حفظ الجامعة من الهرج ، وفي أثنائها حفظ الأنفس والأموال والأخوة بين الأمة ، فرجح الثانية ، وإنما رجحها لأنه رآها أدوم ؛ فإن مصلحة حفظ العقيدة يُستدرك فواتها الوقتي برجوع موسى وإبطاله عبادة العجل حيث جعلوا غاية عكوفهم على العجل برجوع موسى ، بخلاف مصلحة حفظ الأنفس والأموال واجتماع الكلمة إذا انشلت عسر تداركها »^(٢) .

(١) « الكشاف » (١٦٢/٢) .

(٢) « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٢٩٣/١٦) والأولى والله أعلم أن الحفاظ على العقيدة أولى من الحفاظ على الاجتماع والكلمة ، ويظهر ذلك جلياً في تتبع دعوة الرسل لأقوامهم ،

في اعتذار هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ ، باستضعاف بني إسرائيل له وخوفه على نفسه من القتل ، دليل على جواز الاعتذار من الأمر بالمعروف على تلك الأحوال ، قال الجُشَمِيُّ^(١) : « تدلُّ الآيةُ على أن الأمر بالمعروف قد يسقط في حال الخوف على النفس ، وفي الحال الذي يُعلم أنه لا ينفع ، لذلك قال هارون : استضعفوني »^(٢) .



فقد قدّموا العقيدة على كل مصلحة ، وقد تعقب ابن عاشور الاجتهاد السابق بقوله : « وكان اجتهاده ذلك مرجوحاً ؛ لأن حفظ الأصل الأصيل للشرعية أهم من حفظ الأصول المتفرعة عليه ؛ لأن مصلحة صلاح الاعتقاد هي أم المصالح التي بها صلاح الاجتماع ، كما بيناه في كتاب « أصول نظام الاجتماع الإسلامي » . « التحرير والتنوير » لابن عاشور (١٦ / ٢٩٤) .

(١) الجُشَمِيُّ : المحسّن بن محمد بن كرامة الجشمي البيهقي ، المعروف بـ « الحاكم الجشمي » مفسر ، عالم بالأصول والكلام ، حنفي ثم معتزلي فريدي ، وهو شيخ الزمخشري ، قرأ بنيسابور وغيرها ، واشتهر بصنعاء (اليمن) وتوفي شهيداً (٤٩٤هـ) انظر : « الأعلام » للزركلي (٢ / ١٢٠) (٥ / ٢٨٩) .

(٢) « تفسير الجشمي » عن « محاسن التأويل » للقاسمي (٥ / ١٨٨) .



المبحث الرابع

اعتذار الهدد لسليمان عَلَيْهِ السَّلَام

تحدّث سورة النمل عن مُلْكٍ شاهقٍ شائقٍ، بُني على محاسنِ الشِّيم والأخلاقِ، مُلْكٍ سليمان عَلَيْهِ السَّلَام، الذي تتنوّع فيه الشخصياتُ والقيمُ، لأخذِ الفائدة والاعتبارِ، نفقُ هنا على شخصية الهددِ مُستلهمين منه جميل الاعتذار .

فلقد حُشِر لسليمان عَلَيْهِ السَّلَام يوماً جنوده من الجن والإنس والطير، وسار بهم جميعاً على تعدّد أجناسهم، في موقفٍ مهيبٍ وتنظيمٍ دقيقٍ، وبعد حينٍ من المسير أخذ النبيّ العادل الحازمُ يتفقّد رعيته، فلاحظَ غيابَ الهددِ: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠-٢١] .

واشتدَّ غضبُ سليمان عَلَيْهِ السَّلَام وتوعّد الهددَ بتعذيبه أو قتله إلا إذا أتى بعذرٍ واضحٍ مبينٍ، لكن لم يطلِ الوقتُ حتّى جاء الهددُ معتذراً: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] ، وقدّم الهددُ بين يدي اعتذاره قوله: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ استماله لقلبِ سليمان عَلَيْهِ السَّلَام في الإصغاء إليه، فإنَّ النفسَ للاعتذارِ المُنبئِ عن أمرٍ بديعٍ أقبلَ، وإلى تلقّي ما لا تعلمه أميلُ، ثم سرّد نبأه،

وعظيم ما وجده من خبر بلقيس ، وعبادتها وعبادة قومها للشمس من دون الله : ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٢٣ ، ٢٤] .

وهنا أراد سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أن يتحقق من هذا النبأ الخطير ، الذي اهتزت له مشاعره ، فكيف يكون في زمانه من يعبد غير الله؟! وهو الذي بُعث بدعوة التوحيد والإيمان ، فكتب كتاباً وأرسله مع الهدهد ، ليرى صدق ما أُخبر به ، وقد تحقق من ذلك بما أوضحته الآيات بعدها في سورة النمل ^(١) .

تأملات في اعتذار الهدهد إلى سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** :

❁ مع غيظ سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** ، وتهديده الشديد ، إلا أنه لم يغلق الباب أمام عذر مقبول مُقنع يقدمه الهدهد بعد غيبته ، فكم نحن بحاجة إلى التريث في الحكم على من أخطأ في حقنا ، وفتح باب الاعتذار أمامه .

❁ تظهر مبادرة الهدهد بالاعتذار ، ويدل على ذلك سياق الآية في قوله تعالى : ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ۖ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ ، حيث كان اعتذاره عند مجيئه ؛ لاقتران القول بالفاء الدالة على التعقيب والترتيب .

(١) ينظر : « جامع البيان » للطبري (٤٥٠ / ١٩) و« إرشاد العقل السليم » لأبي السعود (٢٨٠ / ٦) و« فتح البيان » للقنوجي (٣١ / ١٠) و« محاسن التأويل » للقاسمي (٤٩٥ / ٧) و« أضواء البيان » للشنقيطي (٨ / ٨) .

❁ يتجلّى ما في اعتذار الهدد من جمال فيما يلي :

- تقديمه لاعتذاره بمقدمة تستميل قلب سليمان **عليه السلام** ، وتضمن إصغاءه له ، وفي ذلك يقول ابن القيم : « فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ ، استفرغت قلب المخبر لتلقي الخبر ، وأوجبت له التشوّف التام إلى سماعه ومعرفته ، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهيج ^(١) ، والتهيج : من أنواع الخطاب في القرآن ^(٢) .

- في قوله : ﴿بَبَا يَقِين﴾ رفع توهم الكذب عنه ، وطمأنة المخاطب بصدق اعتذاره .

- لطافته في الاعتذار ، يقول ابن عثيمين : « لم يقل : أنت جاهل ، ولا تعرف ، بل قال : ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِط بِهِ﴾ ^(٣) .

❁ قبول العذر وامتحنائه قبل قبوله ، يقول القاسمي : « إن في قوله تعالى : ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ قبول الوالي عذر رعيته ، ودرء العقوبة عنهم ، وامتحنان صدقهم فيما اعتذروا به ^(٤) ، فالآية دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته ، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أحوالهم ؛ لأن سليمان لم يعاقب الهدد حين اعتذر إليه ، ولكنه لم يتسرع في قبول كلامه حتى امتحنه .

(١) « شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل » لابن القيم (٧١)

(٢) « معترك الأقران » للسيوطي (١٧٨ / ١) .

(٣) « تفسير القرآن الكريم » (١٠٣ / ٦) .

(٤) « محاسن التأويل » (٤٩٥ / ٧) .

❁ مع علم الهدد بحزم سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** وشدته إلا أن اعتذاره كان يُوحى بالعزة والجرأة ، وربما كان ذلك لعلمه بعدل سليمان وحكمته ، أو لأنَّ عُدْرَه كان مما يَمَسُّ الدين والعقيدة ، بل إنَّ عبادة قوم بلقيس للشمس يُنافي الأصل الذي خُلِقَ الإنسان من أجله ، ويناقضه أشدَّ المناقضة ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وهو الأصل الذي أُرْسِلَ به جميع الرسل ، وفي هذا إشارة إلى أنَّ المعتذر لا بد أن يراعي ما يناسب عُدْرَه من الخطاب ؛ كأن يقدمه بأسلوب تغلبه القوة والعزة ؛ لاقتترانه بعظيم الأمور كما كان من الهدد ، أو يقدمه بأسلوب يغلب عليه الاستعطاف ؛ لتعمد الخطأ والاقتراف ؛ كما كان من إخوة يوسف **عَلَيْهِ السَّلَامُ** حينما قدّموا اعتذارهم لأبيهم ، وقد بيّنا ذلك في اعتذار إخوة يوسف لأبيهم .

❁ ضَرَبَ اللهُ قصة الهدد لتتعلّم منه بديع الاعتذار ، كما تعلّمنا من الغراب دفن الأموات ، وهكذا قِصَصُ القرآن ؛ تُساق وتتعَدَّد فيها العبر والأهداف ، وإن في ذلك لعبرة لأولي الألباب .

❁ سلك الهدد مع سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** مسلك الاعتذار المُقْنِع ؛ فأخبره أولاً باطلاعه على ما لم يطلع عليه سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** ، ثم أخبره أنه نبأ يقين لا شك ، وكانت تلك الإخبارات بمنزلة التوطئة للعدر الذي سيذكره ، حينها تشوّف سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** إلى معرفة النبأ ، فأخبره بالملك الذي أوتيته امرأة ، ثم أخبره بما يهزه ؛ وهو عبادتهم للشمس وإشراكهم بالله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** ؛ فقد ضلّوا السبيل القويم ، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصرفهم عن الهداية ، فكانت هذه

الإخباراتُ من الهدهدِ عذرًا واضحًا مُقنِعًا أزالَ عنه العقوبةَ التي كان سليمانُ قد
توعَّده بها ، وقام ذلك الاعتذارُ مقامَ السلطانِ المُبين ؛ إذ كان في غيبته مصلحةٌ
لإعلامِ سليمانَ بما كان خافيًا عنه .





المبحث الخامس

اعتذار المستهزئين بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لقد جاء اعتذارُ المستهزئين بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سورة التوبة، التي تُعدُّ أكثر سور القرآن الكريم تسميةً؛ حسب ما تنهاى إلينا من كلام الصحابة والتابعين وتابعيهم، وأساطين علماء التفسير وعلوم القرآن، ومما جاء في ذلك: البُحُوثُ، الفاضحة، المبعثرة، المثيرة، الحافرة، المُقَشَّقِشَةُ^(١)، وغيرها، وعلى وجه العموم فإنَّ معظم هذه الأسماء تدلُّ على فُضْحِ أمرِ المنافقين وما انطوت عليه نفوسهم من الخسَّة والنذالة، فما زالت آيات سورة التوبة تُعدَّد وتُفَضِّحُ: ومنهم، ومنهم، ومنهم، حتى حفرت الآيات عن قلوبهم، ونقرت عمَّا في أفئدتهم، وبيَّنت حقيقة استهزائهم بالدين، وبثَّهم رُوحَ الفشل بين المؤمنين، وتثيبتهم عن الجهاد، قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجُ مَا

(١) البُحُوثُ؛ لأنها بحثت عن سرائر المنافقين، قاله المقداد بن الأسود. **الْفَاضِحَةُ**؛ لأنها فضحت المنافقين، قاله ابن عباس. **المُبْعَثَةُ**؛ لأنها بعثت أخبارهم وكشفت عن سرائرهم، قاله الحارث بن يزيد وابن إسحاق. **المُثِيرَةُ**؛ لأنها أثارت مخازي المنافقين ومثالبهم، قاله قتادة. **الحَافِرَةُ**؛ لأنها حفرت عن قلوب المنافقين، قاله الزجاج. **المُقَشَّقِشَةُ**؛ تقشش من النفاق أي تبرئ منه.

ينظر: «درج الدرر في تفسير الآي والصور» للجرجاني (٢/ ٨٥٧) و«الكشاف» للزمخشري (٢/ ٢٤١) و«زاد المسير» لابن الجوزي (٢/ ٢٣٠).

تَحْذَرُونَ ﴿ [التوبة: ٦٤] ، وهذا الحذر طبيعي ؛ لِمَا في قلوبهم من الشكِّ والارتياب ، وحذرهم من تنزيلِ السورةِ ليس من هذا الاستهزاء ، بل من خوفِ عاقبته ، فلَمَّا أُنْزِلَتِ السورةُ وظهر أمرهم بادروا بالوجه الآخر من النفاق الذي يظهرُ به المنافقون في الناس ، إذا وجدهم القرآن متلبسين بجريمةٍ من جرائمهم المنكرة ، أو لامهم لائمٌ على ما انكشفَ من مستور تدبيرهم السيئ ، وما جرى على ألسنتهم من سخريّة برسولِ الله وبالمؤمنين بالله ، قالوا معذرين : ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥] ، أي لم نكن جادّين فيما كنا فيه ، وإنما هو لعبٌ وعبثٌ ، ومفاكهة!

وهكذا المنافق لا يجد ما يسترُّ به نفاقه إلا الاعتذارَ الكاذبَ ، فهو كذبٌ يسترُّ كذبًا ، ونفاقٌ يداري نفاقًا ، حينها وبّخهم سبحانه على هذه الجرأة في الاستهزاء بالدين : ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة: ٦٥] ، ونهاهم عن هذا الاعتذار : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعُفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٦] ، يقول أبو السعود : « قل ، غير ملتفتٍ إلى اعتذارهم ، ناعيًا عليهم جنائتهم ، منزلاً لهم منزلةَ المعترفِ بوقوعِ الاستهزاء ، موبّخًا لهم على أخطائهم »^(١) ، فاعتذارهم إقرارٌ بذنبهم ، وهو مردودٌ عليهم ؛ لأنَّ الاعتذارَ الصادقَ المقبولَ محوٌ وإزالةٌ لأثر الذنب ، لا تغطيته وتغليفه بالكذب والاحتيال ؛ ولذلك أمر الله نبيّه بالإعراض عن اعتذارهم

(١) « إرشاد العقل السليم » (٨٠ / ٤) .

الكاذب ، وأَوْصَدَ أَمَامَهُمُ الْبَابَ ، ثم فتح أَمَامَهُمُ بَابَ التَّوْبَةِ والاعتذارِ الصادقِ
 لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فما أعْظَمَ رَحْمَتَهُ سُبْحَانَهُ ، فقد فَتَحَ بَابَ التَّوْبَةِ أَمَامَهُمُ ، بعد أن
 كَشَفَ ما في نفوسهم ، فالطائفةُ التي ستَتُوبُ توبةً صادقةً سَيَغْفِرُ لَهُمُ اللهُ ، أَمَّا
 الذين بَقُوا على نفاقهم وإِجرامهم ، فسوف يَعَذِّبُهُمُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ ^(١) ، ﴿إِنْ تَعَفُّ
 عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبِ طَائِفَةً يَأْتِيهِمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ .

تأملات في اعتذار المستهزئين بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

❁ اعتذارُ المنافقين يُدُلُّ على فسادِ قلوبهم ؛ فالدينُ ليس مجالاً للخوضِ
 واللعبِ ؛ لأنَّ أصلَ الدينِ مبنيٌّ على تعظيمِ الله وتعظيمِ دينِهِ ورسولِهِ ، واللعبُ
 والخوضُ في شيءٍ من ذلك مُنافٍ لهذا الأصلِ ومُنَاقِضٌ له أَشَدَّ المناقضةِ .

❁ استعمالُ المنافقين للفظِ « الخَوْضُ » في الاعتذارِ يُنبِئُ عن كذبِهِم
 وعيْثِهِم بالدينِ ، فهو اعتذارٌ مردودٌ من أصلِهِ ؛ لأنَّ الخَوْضَ مأخوذٌ من خَاضَ
 في الماءِ ، والخَوْضُ من الكلامِ ما فيه الكذبُ ، وجاء استعمالُهُ في القرآنِ بمعنىِ
 الباطلِ ^(٢) ؛ قال تعالى : ﴿ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام : ٩١] ، أي : دَعَهُمْ يا
 مُحَمَّدُ يَخوضون في باطلِهِم وكفرِهِم باللهِ وآيَاتِهِ .

(١) ينظر : « نظم الدرر » للبقاعي (٥١٧ / ٨) و « الدر المثور في التفسير بالمأثور »
 للسيوطي (٤٢٧ / ٤) و « روح المعاني » للآلوسي (٣٢٠ / ٥) و « تفسير المنار » لرشيد رضا
 (٤٥٥ / ١٠) و « في ظلال القرآن » لقطب (١٦٧٢ / ٣) .

(٢) ينظر : « المخصص » لابن جني (٢٩٥ / ١) و « أساس البلاغة » للزمخشري (٢٧٠ / ١) .

❁ تبريعُ الله لهم وتوبيخُهم في قوله : ﴿قُلْ أَيَاللّٰهَ وَعَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ ، ثم نهيمُهم عن الاعتذار في قوله : ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ، ارتقاءً في مراتبِ توبيخهم .

يقولُ ابنُ عاشور : « فجملةُ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ من جملةِ القولِ الذي أمرُ الرسولُ أن يقولهُ ، وهي ارتقاءً في توبيخهم ، فهي مُتضمنةٌ توكيداً لمضمونِ جملةِ : ﴿أَيَاللّٰهَ وَعَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ ، مع زيادةِ ارتقاءٍ في التوبيخ ، وارتقاءٍ في مثالبهم بأنهم تلبَّسوا بما هو أشدُّ ؛ وهو الكفرُ »^(١) .

❁ اعتذارُ المنافقين اعترافٌ منهم بأفحشِ ذنوبهم ، يقولُ محمد رشيد رضا : « اعتذاركم إقرارٌ بذنوبكم ، وإنما الاعتذارُ الإدلاءُ بالعدر ، وهو بالضم ما يُرادُ به محوُ الذنبِ وتركُ المؤاخذهِ عليه ، وأنتم قد جئتم بما يُثبتُ الذنبَ ويقتضي العقابَ ، أو هو كما قيل : « عذرٌ أقبحُ من الذنب »^(٢) ، فاللعبُ والهزلُ في الدين غيرُ مغفور .

يقولُ ابنُ القيم : « والهزلُ غيرُ مأذونٍ له في الهزلِ بكلمةِ الكفرِ ... ؛ فهو متكلِّمٌ باللفظِ مُريدٌ له ، ولم يصرفهُ عن معناه إكراهٌ ولا خطأٌ ولا نسيانٌ ولا جهلٌ ، والهزلُ لم يجعلهُ الله ورسولُهُ عذراً صارفاً ، بل صاحبه أحقُّ بالعقوبة »^(٣) .

(١) « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٢٥١ / ١٠) .

(٢) « تفسير المنار » (٤٥٧ / ١٠) .

(٣) « إعلام الموقعين عن رب العالمين » لابن القيم (٥٦ / ٣) .

❁ أمر الله نبيه أن يقطع على المنافقين اعتذارهم ، ويجيبهم إجابة الموقن بفساد اعتذارهم : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ ؛ لأن الاستهزاء بالدين كفر .

يقول الرازي في ذلك : « العقل يقتضي أن الإقدام على الكفر لأجل اللعب غير جائز ، فثبت أن قولهم ما كان عذراً حقيقياً في الإقدام على ذلك الاستهزاء ، فلما لم يكن ذلك عذراً في نفسه نهاهم الله عن أن يعتذروا به ؛ لأن المنع عن الكلام الباطل واجب »^(١) ، وهذا يستلزم الشدة في القطع والرفض لاعتذار من يهزأ بالدين وأهله .

يقول ابن عثيمين في هذا : « استعمال الغلظة في محلها ، وإلا فالأصل أن من جاء يعتذر يُرحم ، لكنه هنا ليس أهلاً للرحمة »^(٢) .

❁ الهزل واللعب بما يمس الدين لا يُقبله الاعتذار إلى الناس ، بل يستلزم التوبة والاعتذار الصادق إلى الله ؛ لاتصاله بحقه سبحانه ؛ لذلك جاء التعبير عن استهزائهم بالكفر .

❁ ساء الرسول أو المستهزئ به كافر ، فإن تاب قبلنا توبته لكننا لا نرفع عنه القتل ، بل نقتله أخذاً بحق رسول الله ﷺ ، وإذا قتلناه بعد توبته النصوص الصادقة صلينا عليه كسائر المسلمين الذين يتوبون من الكفر أو من المعاصي ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « من سب النبي ﷺ من

(١) « مفاتيح الغيب » (١ / ٢٢٥٣) .

(٢) « القول المفيد على كتاب التوحيد » لابن عثيمين (٢ / ٢٧٢) .

مسلمٍ أو كافرٍ فإنه يجبُ قتله ، هذا مذهبٌ عليه عامةُ أهلِ العلمِ ؛ قال ابنُ المنذر : « أجمع عوالمُ أهلِ العلمِ على أنَّ حدَّ مَنْ سَبَّ النبيَّ ﷺ القتلُ »^(١) ، وقال أيضًا : « يُقتلُ مَنْ سَبَّه وإن تاب وعاد إلى الإسلام »^(٢) .

❁ جاء فتحُ بابِ التوبةِ والاعتذارِ لله عزَّ وجلَّ ، متناسبًا مع عِظَمِ جُرْمِ المنافقين ؛ فقد جاءتِ البشارةُ لهم بفتحِ بابِ التوبةِ مخلوطةً ببقيةِ النَّذارةِ ، فأنبأهم سبحانه أن طائفةً منهم قد يُعْفَى عنها بالتوبةِ الصادقة وإخلاصِ الإيمان ،

(١) « الصارم المسلول على شاتم الرسول » لابن تيمية (٣ / ١) .

(٢) « الصارم المسلول » (٣ / ١ ، ١١٨)

وقال الشيخ ابن عثيمين : « العلماء اختلفوا فيمن سَبَّ الله أو رسوله أو كتابه : هل تقبل توبته؟ على قولين : القول الأول : أنها لا تقبل ، وهو المشهور عند الحنابلة ، بل يقتل كافرا ، ولا يصلي عليه ، ولا يدعى له بالرحمة ، ويدفن في محل بعيد عن قبور المسلمين ، ولو قال : إنه تاب أو إنه أخطأ ؛ لأنهم يقولون : إن هذه الردة أمرها عظيم ، وكبير ، لا تنفع فيها التوبة . وقال بعض أهل العلم : إنها تقبل ؛ إذا علمنا صدق توبته إلى الله ، وأقر على نفسه بالخطأ ، ووصف الله تعالى بما يستحق من صفات التعظيم ؛ وذلك لعموم الأدلة الدالة على قبول التوبة ؛ كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٥٣] ، ومن الكفار من يسبون الله ، ومع ذلك تقبل توبتهم . وهذا هو الصحيح ، إلا أن سَابَّ الرسول ﷺ تقبل توبته ويجب قتله ، بخلاف من سب الله ؛ فإنها تقبل توبته ولا يقتل ، لا لأن حق الله دون حق الرسول ﷺ ، بخلاف بل لأن الله أخبرنا بعفوه عن حقه إذا تاب العبد إليه ؛ بأنه يغفر الذنوب جميعا ، أما سَابَّ الرسول ﷺ فإنه يتعلق به أمران :

الأول : أمر شرعي لكونه رسول الله ﷺ ، ومن هذا الوجه تقبل توبته إذا تاب .
الثاني : أمر شخصي ؛ لكونه من المرسلين ، ومن هذا الوجه يجب قتله لحقه ﷺ ، ويقتل بعد توبته على أنه مسلم ، فإذا قتل ؛ غسلناه ، وكفناه ، وصلينا عليه ، ودفناه مع المسلمين . وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية . « القول المفيد على كتاب التوحيد » (٢ / ٢٦٨) .

وطائفةٌ أُخرى تُصِرُّ على النفاق والإجرام وتستمرُّ عليه ، فيعذِّبها الحقُّ سبحانه : ﴿إِنْ تَعَفَّ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ، والآيات الواردة بعد هذه الآية تدلُّ على ذلك : ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة : ٦٧] .

❁ عَفُوُّ الله منوطٌ بالتوبة ، والتوبة مقبولةٌ من كل ذنبٍ وإن كان عظيمًا ، فالتوبة تجبُ ما قبلها .

❁ الاعتذارُ الكاذبُ صفةٌ سائدةٌ في المنافقين ، يتوارون به خلفَ نفاقهم ؛ فقد ظهرَ ذلك منهم زمنَ النبي ﷺ ، وما زلنا نسمعُ ونرى هذا في زماننا ، فبينَ فينةٍ وأخرى يظهرُ مَنْ يستهزئُ بالإسلام ورسوله ، ثم ما يلبثُ أن يمسحَ جُرمه بالاعتذارِ الباهتِ الكاذبِ ، نسألُ الله العافية والسلامة .

❁ مع تعدُّد أسماءِ السورةِ الذي يُوحى بفضحِ المنافقين وهتكِ أسرارهم ، إلا أن اسمَ « التوبة » هو أشهرُ الأسماءِ التي يُترجم بها للسورة في كلامِ السلفِ ؛ فقد جاء من حديثِ زيد بن ثابتٍ : « فتتبعْتُ القرآنَ أجمعه من الرقاعِ ، والأكتافِ ، والعُصْبِ وصدورِ الرجالِ ، حتى وجدتُ من سورةِ التوبةِ آيتينِ مع خزيمةِ الأنصاريِّ ، لم أجدهما مع أحدٍ غيره ، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخرهما »^(١) ، وفي ذلك دعوةٌ إلى التوبةِ مهما بلغَ الإنسانُ من الذنبِ والعصيانِ ، وإشارةٌ إلى سبيلِ النجاةِ ، ومما يحسُنُ الإشارةُ إليه أن سورةَ التوبةِ من أواخرِ السورِ نزولاً في القرآنِ الكريمِ ، ولعلَّ الحكمةَ من ذلك أن يكونَ ختامُ الوحيِ بفتحِ بابِ التوبةِ .

(١) أخرجه البخاري (٤٦٧٩)



المبحث السادس

اعتذار أغنياء المنافقين للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

جاء خطابُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لعباده المؤمنين في سورة التوبة ، أمرًا بالجهاد في سبيله ، محدِّدًا إياهم التباطؤ في النفير ، وموبِّخًا مَنْ تخلف منهم ، منبِّهاً سبحانه على مخاطر القعود عن الجهاد في سبيله ، لكنْ مع كُلِّ هذا ظهَرَ المخلفون المتثاقلون ، وركنوا إلى الدنيا وشهواتها ، وكرهوا مشاقَّ السفر ومتاعبه ، وتقاعسوا عن النفير ، فحصلَ لبعضٍ منهم ثقُلٌ ، وآخرون تخلفوا كسلًا وعجزًا ، مؤثرين راحة الدنيا على نعيم الآخرة ، وما ذلك إلا ليميز الله الخبيث من الطيب .

فكان لبعضهم عذرٌ ، وكثيرٌ منهم لا عذرَ له ، إنما هو تخاذُلٌ وتسويفٌ وصدودٌ عن طاعة الله ورسوله ، وقد ذكر المولى سبحانه حيلهم وأعدارهم ؛ ففضحهم ، وبعثر مكنون نفوسهم وأسقط أعدارهم مباشرةً ، فمنهم مَنْ تعلَّلَ بشدة الحر : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة : ٨١] ، فأسقط المولى عذرهم وحكم بقله فقههم ؛ لأنَّ مَنْ فرَّ من حرِّ ساعةٍ فوقع في حرِّ الأبد كان أجهل الجُهل ، ومنهم مَنْ اعتذر بخوفِ الفتنةِ على نفسه ، فتنة النساءِ لجمالِ نساءِ الروم : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذَن لِي

وَلَا تَقْنَتِي ﴿ [التوبة: ٤٩] ، فَيَبِّنُ المولى سبحانه أن هذا الاعتذار التافه الذي لا يدلُّ إلا على عجزٍ حقيقي هو الفتنة في ذاته : ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩] ، أي : في الفتنة الكبيرة سقطوا ، فتنة الكفر والنفاق ، وبعد أن بيّن سبحانه أن المنافقين عملوا الحيل ، والتمسوا المعاذير للتخلف عن رسول الله ﷺ والقعود عن الغزو ، قفى على ذلك بأن أبان أنه إذا أنزلت سورة فيها أمرٌ بالإيمان والجهاد مع الرسول استأذن أولو الطول منهم في التخلف عن الغزو ، وقالوا لرسول الله ﷺ : دعنا نكن مع الضعفاء والزمنى العاجزين عن القتال : ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةً أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٨٦] ، فقد جاء أولو الطول^(١) منهم ، لا ليتقدموا الصفوف كما تقتضي المقدرة التي وهبها الله لهم ، وشكرُ النعمة التي أعطها الله إياهم ، ولكن ليتخاذلوا ويعتذروا ويطلبوا أن يقعدوا مع النساء ؛ لا يذودون عن حرمة ولا يدفعون عن سكن ، دون أن يستشعروا ما في هذه القعدة الذليلة من صغار وهوان ، مادام فيها السلامة ، وطُلبُ السلامة لا يُحسُن العار ، ولذلك خصَّ الله تبارك وتعالى اعتذارهم بالذكر ؛ لأنهم الملمومون بما أعطاهم الله من السعة والقدرة المالية والبدنية ، فعاقبهم الله بفضح سريرتهم وردَّ اعتذارهم : ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧] ، فقد

(١) ألو الطول : أي : ذوو الفضل والسعة والقدرة على الجهاد بدناً ومالاً . « جامع البيان » للطبري

(٤١١ / ١٤) و« إرشاد العقل السليم » لأبي السعود (٩٠ / ٤) .

تعجَّب المولى سبَّحانه من اعتذارهم ورضاهم لأنفسهم أن يكونوا مع النساء والصبيان والعاجزين من الرجال ، ثم طبع الله على قلوبهم ؛ فلا تعي الخير ، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير ، لقلة فقههم لما فيه صلاح دينهم ودنياهم^(١) .

تأملات في اعتذار أغنياء المنافقين إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

❁ بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أحوال المخلفين ونماذج من اعتذاراتهم ، بدأ بتقسيم فرقهم وطوائفهم مُبتدئاً بأولي الطول منهم ، يقول المولى سبَّحانه : ﴿ وَإِذَا أَنْزَلْنَا سُورَةً أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجْهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْأَلْنَاكَ أُولَئِ الطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾ وَقَالُوا ذَرَانَا نَكُنْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ❁ ، وفي ذلك يقول ابنُ عاشور : « هذا عطفُ غرضٍ على غرضٍ ، فُصِّد به الانتقالُ إلى تقسيم فرقِ المتخلفين عن الجهاد من المنافقين وغيرهم ، وأنواعٍ معاذيرهم ومراتبها في القبول^(٢) » ، ومما تجدرُّ الإشارةُ إليه : تخصيصُ الله لاعتذار أولي الطول منهم ، والبدءُ باعتذارهم دون غيرهم ؛ وذلك لكون الملامة في حقهم أشدَّ ، فقد جمع الله لهم بين القوة المالية والبدنية .

❁ أشارت الآياتُ إلى أنَّ الاعتذارَ الكاذبَ ، والتعللاتِ الباهتة ؛ هي ديدنُ أولي الطول من المنافقين وحالهم .

(١) ينظر : « جامع البيان » للطبري (٤١١ / ١٤) « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (٢٢٣ / ٨) « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (١٧٢ / ٤) و « نظم الدرر » للبقاعي (٥٧٠ / ٨) و « إرشاد العقل السليم » لأبي السعود (٩٠ / ٤) و « تفسير المراغي » (١٥٠ / ١٠) و « زهرة التفاسير » لأبي زهرة (٣٤١٨ / ٧) و « السيرة النبوية » لابن هشام (٥١٧ / ٢) و « تاريخ الرسل والملوك » للطبري (١٠٢ / ٣) .

(٢) « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٢٨٧ / ١٠) .

يقول الرازي: «واعلم أنه تعالى بين في الآيات المتقدمة أن المنافقين احتالوا في رخصة التخلّف عن رسول الله ﷺ والقعود عن الغزو، وفي هذه الآية زاد دقيقة أخرى؛ وهي أنه متى نزلت آية مشتملة على الأمر بالإيمان وعلى الأمر بالجهاد مع الرسول، استأذن أولو الثروة والقدرة منهم في التخلّف عن الغزو، وقالوا الرسول الله: ذرنا نكن مع القاعدين؛ أي: مع الضعفاء من الناس والساكنين في البلد»^(١).

❁ كان اعتذار أولي الطول من غير ذكر عذر، إنما هو رغبة في التخلّف عن المؤمنين، وإيثار للراحة والسلامة، يقول ابن عاشور: «وفي نظمه إيذان بتلفيق معذرتهم، وأن الحقيقة هي رغبتهم في القعود، ولذلك حكى قولهم بأن ابتدئ بـ»ذرنا«المقتضي الرغبة في تركهم بالمدينة، وبأن يكونوا تبعاً للقاعدين الذين فيهم العجز والضعفاء والجناء؛ لما تؤذن به كلمة «مع» من الإلحاق والتبعية»^(٢).

❁ ردّ المولى سبحانه على اعتذارهم، متعجباً من دناءة نفوسهم، بأنهم رَضُوا لأنفسهم بأن يكونوا تبعاً للنساء والعاجزين، وذلك ما يُوحى به فعل «رَضُوا»؛ إذ تلبّسوا بما من شأنه أن يتردّد العاقل في قبوله، ثم عاتبهم بتسميتهم بالخوالف^(٣).

(١) «مفاتيح الغيب» (١٦/١١٨).

(٢) «التحرير والتنوير» لابن عاشور (١٠/٢٨٩).

(٣) الخوالف: جمع خالفة؛ أي: مع النساء والصبيان وأصحاب الأعذار من الرجال، وقد يقال للرجل: خالفة وخالف أيضاً إذا كان غير نجيب، على ما تقدم؛ يقال: فلان خالفة أهله إذا كان

يقول الرازيُّ: « وكان يصعبُ على المنافقين تشبيهُهم بالخوالف »^(١)،
وعاقبهم بالطَّبع على قلوبهم لقلَّةِ فقههم ، فلو كانوا يفقهون لأدركوا ما في
الجهاد من قوَّةٍ وكرامةٍ وبقاءٍ كريم ، وما في التخلُّف من ضعفٍ ومهانةٍ .



دونهم . « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (٨ / ٢٢٣) .

(١) « مفاتيح الغيب » (١٦ / ١١٩) .



المبحث السابع

اعتذار المعذرين من الأعراب

إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بعد بيان اعتذار أولي الطول والسعة من المنافقين كما سبق في المبحث الذي قبل هذا شرعت الآيات في بيان اعتذار الأعراب^(١) : ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة : ٩٠] ، وقد اختلف المفسرون في اعتذار الأعراب ؛ هل كانوا صادقين في اعتذارهم معذورين في تخلفهم؟ أو كانوا كاذبين محتالين كمن سبقهم من المنافقين؟ ومدار الاختلاف في ذلك على اختلافهم في القراءات ؛ فهناك من قرأ بالتشديد « المعذرون » ، وآخرون بالتخفيف « المُعذرون » ، والمشددة لها تفسيران : أحدهما : من « عذّر في الأمر » إذا قصّر فيه وتوانى ، فتكلّف العذر ، فعذره باطل ، والثاني : من « اعتذر » ، وهو محتمل لأن يكون عذره باطلاً وحقاً ، وأمّا التخفيف فهو من « أَعذَرَ » إذا كان له عذر ، وهم صادقون على هذا ، وهي قراءة ابن عباس ، وهناك من المفسرين

(١) الْأَعْرَابُ : اسم جنس ، والنسبة إليه أَعْرَابِيٌّ ، والأعراب : سكان البادية ، وجمع الأعرابيِّ أَعْرَابٌ وَأَعْرَابِيٌّ ، وأول من تكلم بالعربية يعرب بن قحطان . ومن طريف ما ذكر القرطبي : أن الأعرابي إذا قيل له : يا عربي ، فرح ، والعربي إذا قيل له : يا أعرابي ، غضب ، والمهاجرون والأنصار عرب لا أعراب ؛ وسميت العرب عرباً لأن ولد إسماعيل نشؤوا من عَرَبِيَّةٍ ، فنسبوا إليها ، وهي قرب مكة . « الجامع لأحكام القرآن » (١ / ٢٨٣) .

مَنْ رَجَّحَ قِرَاءَةَ التَّخْفِيفِ ؛ مِنْهُمْ الطَّبْرِيُّ وَابْنُ كَثِيرٍ .

يقول الطبري : « وإنما صفتهم أنهم كانوا قد اجتهدوا في طلب ما ينهضون به مع رسول الله ﷺ إلى عدوهم ، وحرصوا على ذلك ، فلم يجدوا إليه السبيل ، فهم بأن يوصفوا بأنهم : « قد أعذروا » ، أولى وأحق منهم بأن يوصفوا بأنهم « عذروا » ، وإذا وُصفوا بذلك فالصواب في ذلك من القراءة ما قرأه ابن عباس ^(١) .

ويقول ابن كثير : « قال الضحاك ، عن ابن عباس : أنه كان يقرأ : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ ﴾ بالتخفيف ، ويقول : هم أهل العذر ، وكذا روى ابن عيينة ، عن حميد ، عن مجاهد ، سواء ، وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية ؛ لأنه قال بعد هذا : ﴿ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي : وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار ، ثم أوعدهم بالعذاب الأليم ، فقال : ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ^(٢) ، وهناك من المفسرين من يرى أن الاختلاف في المعاني من إعجاز القرآن وبلاغته ، ففي اختلاف الصيغتين بيان لاختلاف أحوال أولئك الأعراب في أعتذارهم ، فمنهم من له عذر صحيح هو موقن به ، ومنهم من له عذر صوري لا حقيقي وهو يؤهم أنه حقيقي عالماً بأنه مخادع ، ومنهم من لا عذر له في الواقع ؛ فهو كاذب في انتحاله ، وهذا من إيجاز القرآن العجيب بالإتيان بلفظ مفرد يتناول هذه الأقسام كلها ، وهكذا تكشف معادن

(١) « جامع البيان » للطبري (٤١٦ / ١٤) .

(٢) « تفسير القرآن العظيم » (١٩٨ / ٤) .

الناس في غزوة تبوك^(١)، وانجلي أمر المنافقين، وتبعثر مكنون نفوسهم، بعد أن كانوا على باطن لا يدري إلا الله ما ينطوي عليه.

وبعد أن بين الله تعالى اعتذار المنافقين من أهل السعة واليسار، واعتذار الأعراب، بين سبحانه بعد ذلك أهل الأعدار الذين لا حرج عليهم في الاعتذار من ترك القتال، فذكر منهم من يكون عذره لازماً للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاء في الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يثبطوهم، ومنهم من يكون عذره عارضاً بسبب فقره؛ كالذين جاؤوا إلى النبي ﷺ يطلبون ما يحملهم عليه، لكنهم لم يجدوا ذلك، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع أسفاً على عدم قدرتهم على تلبية نداء الله في الجهاد^(٢).

تأملات في اعتذار المعذرين من الأعراب :

❁ يظهر والله أعلم أن المراد بالمعذرين هم أهل الأعدار الصادقة، كما ذهب إلى ذلك الطبري وابن كثير، كما وضحناء، والمتأمل في الآية يجد أن آية المعذرين عطف على آية أولي الطول، والعطف يقتضي المغايرة، لذلك تميل النفس إلى أنهم أهل الأعدار الصادقون، كما أن مقابلة المعذرين بالذين كذبوا

(١) تبوك : سبق التعريف بها في ()

(٢) ينظر : « جامع البيان » للطبري (٤١٦ / ١٤) و « مفاتيح الغيب » للرازي (١٢٠ / ١٦)

و « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (٢٢٤ / ٨) و « محاسن التأويل » للقاسمي (٤٧٦ / ٥)

« تفسير المنار » لرشيد رضا (٥٠٤ / ١٠) .

الله ورسوله يدُلُّ على ذلك ، وقد ذكر ذلك ابنُ كثير ، ولا مانع أن يكون ذلك من إيجازِ القرآن وبلاغته ، فيراد به أهل الأعدار الصادقين والكاذبين .

يقول ابنُ عاشور : « ويجوزُ أن يكون اختيارُ صيغةِ المعذرين من لطائفِ القرآن ؛ لتشملَ الذين صدَّقوا في العذر والذين كَذَّبوا فيه »^(١) .

❁ نلاحظُ من خلالِ مباحثِ اعتذارِ المنافقين على القولِ بأن المرادَ من المعذرين أهلُ الأعدارِ الكاذبة أن الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** حدَّد منافقي الأعرابِ بالذكرِ ؛ لأن الأعرابَ أشدُّ كفرًا ونفاقًا ، نظرًا لجفاءِ طَبْعِهِمْ وقسوةِ قلوبِهِمْ .

❁ أهلُ الأعدارِ الصادقةِ يرتسمُ على مُحيَّاهم أثرُ صدقِهِمْ ؛ فالأقوالُ الصادقةُ لها مشاعرُها وانفعالاتُها الصادقةُ ، والعكس بالعكس ، فهؤلاء النَّفَرُ الذين لم يجدِ النبيُّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ما يحملُهُمْ عليه ، تولَّوا وأعينُهُمْ تفيضُ من الدمعِ حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون ، حتى لقد جاء تسميتُهُمْ بالبكَّائين^(٢) .

❁ كما نلاحظُ ورودَ الاعتذارِ في سورةِ التوبةِ في حالِ الحربِ ، وقد وردَ في سورٍ أخرى في حالِ السَّلمِ والاستقرارِ ، إشارةً إلى ملازمةِ الاعتذارِ للإنسانِ على غالبِ أحوالِ حياته .



(١) « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٢٩٢/١٠) .

(٢) البكَّاءون ، كانوا سبعة من الأنصار وغيرهم . « جامع البيان » للطبري (٤٢٣/١٤) .

الفصل الرابع

الاعتذار لغير الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للخضر .

المبحث الثاني : اعتذار إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ
لأصحاب العير .

المبحث الثالث : اعتذار المنافقين للمؤمنين .





المبحث الأول

اعتذار موسى للخضر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

سَبَقَ أَنْ جَاءَ الْإِيضَاحُ وَالْبَيَانُ فِي رَحْلَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ فَتَاهُ طَلَبًا لِلْخَضِرِ ، تَعْطُشًا وَشَوْقًا لِلْعِلْمِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ ، وَقَدْ شَاءَ اللَّهُ ذَلِكَ وَتَمَّ اللِّقَاءُ ، وَهَذَا مَا سَيَكُونُ عَلَيْهِ الْبَيَانُ فِي هَذَا الْعِذَارِ .

فَحِينَمَا التَقَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْخَضِرِ ، وَتَمَّ التَّعَارُفُ بَيْنَهُمَا ، سَأَلَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَوَالَ تَلَطُّفٍ وَامْتِنَانٍ أَنْ يَتَّبِعَهُ ؛ لِيَعْلَمَهُ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ رَشْدًا ، فَاعْتَذَرَ الْخَضِرُ لِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مُتَابَعَتُهُ مِنْ صَبْرٍ وَأَنَاقَةٍ ، فِي السَّيْرِ مَعَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْغُرَائِبِ وَالْمَفَاجِآتِ ، لَكِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَصْرَّ عَلَى مُتَابَعَتِهِ مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَمُؤْمَلًا أَنْ يُلْهِمَهُ الصَّبْرَ وَالثَبَاتَ ، فَاشْتَرَطَ عَلَيْهِ الْخَضِرُ قَائِلًا : ﴿فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠] ، فَلَا يَسْأَلُ مُوسَى الْخَضِرَ عَنْ شَيْءٍ حَتَّى يَكُونَ الْخَضِرُ هُوَ الْمُبَيِّنُ لَهُ .

﴿فَانْطَلَقَا﴾ ؛ وَتَبَدُّ هَذِهِ الرِّحْلَةُ وَالْأَحْدَاثُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الْمَعْبُورَةِ عَنِ السَّيْرِ لِلْهَدَفِ : ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكَبَا فِي الْسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتُهَا لِيُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١] ، وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ كُلِّ مِنْهُمَا ؛ فَقَدْ كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَرَقَّبُ مَا الَّذِي يَتَعَلَّمُهُ مِنَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ ، وَالْعَبْدِ الصَّالِحِ يَتَرَقَّبُ مَا الَّذِي سَيَكُونُ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَيَنْطَلِقَانِ جَمِيعًا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ

ينتظرانِ مركبًا ، فتمرُّ سفينةٌ ، فتعرفُ الخضرَ ، فيركبونهما من غيرِ أجرٍ ، إجلالًا وإكرامًا للخضرِ ، وهذا فيه دلالةٌ على أنَّ عبادَ الله الصالحين يُسخرُ الله لهم مَنْ يُحبُّهم ويُعطيهم ويمنحهم فضلًا من الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** عليهم ، وفجأةً إذا بالخضرِ يخرقُ السفينةَ ، فاشتاطَ موسى غضبًا ، وقال منكراً : ﴿أَخْرِقَهَا لِنُتْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف : ٧١] ، ويُذكِّرُ العبدَ الصالحُ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** بالاتفاقِ بينهما عندَ اللقاءِ ، فيعتذرُ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** : ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف : ٧٣] ، فيعفو عنه الخضرُ ويصْفَحُ ، ويعاودانِ السيرَ ، لكن في البرِّ لا في البحرِ ، حتى إذا لقيَا غلامًا يلعبُ مع أقرانه ، فأخذه الخضرُ من بينهم وقتله ، وهنا غضبَ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أشدَّ الغضبِ ، وحزنَ على موتِ هذا الغلامِ ، فقال منكراً على الخضرِ : ﴿أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف : ٧٤] ، ولئن أنكرَ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** من قبلَ على فعلِ الخضرِ بقوله : ﴿إِمْرًا﴾ ، فإنه يُنكرُ الآنَ بقوله : ﴿نُكْرًا﴾ ؛ لفظاعة الأمرِ ؛ فالقتلُ لا يُمكنُ تداركه ، بخلافِ نزعِ اللوحِ من السفينةِ ؛ فإنه يُمكنُ إرجاعه تداركه .

فيُعاتبه الخضرُ بنبراتٍ أقوى ممَّا قبلها : ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف : ٧٥] ، فيبادرُ موسى بالاعتذار : ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَدِّقْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف : ٧٦] ، ويعيده بأن تكونَ هذه المرةَ الأخيرةَ في الاعتراضِ ، وإن يكنْ شيءٌ فلتكنِ النهايةُ ، ويقبلُ الخضرُ اعتذاره ويمضيانِ جميعاً مرةً أخرى ، حتى إذا جاء أهلُ قريةٍ طلبًا من أهلها طعامًا ، فامتنع أهلُ القريةِ من ذلك ، فوجد الخضرُ في القريةِ حائطًا مائلاً قاربَ الهدمِ ، فسوّاه الخضرُ حتى

استقام ، فقال موسى للخضر : ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف : ٧٧] ،
 فحينئذ لم يف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بما قال ، واستعذر الخضر منه : ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي
 وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف : ٧٨] ، وكانت المكاشفة
 لِمَا كان قبل المفارقة ، وهذا ما أوضحته باقي الآيات في سورة الكهف ^(١) .

تأملات في اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الخضر :

❁ في أول مرة اعترض فيها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على الخضر اعترف بخطئه
 ونسيانه ، وكان قد نسي التزامه لِمَا عَشِيَ ذهنه من مشاهدة ما يُنكره ، وهكذا قد
 ينسى الإنسان خيرا لانشغاله بخير .

❁ الناسي معذور ؛ إذ لا حيلة له في النسيان ، فالإنسان غير معصوم ، ومن
 النسيان غير معدوم .

❁ استعمل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ النهي عن المؤاخذه بالنسيان في قوله : ﴿لَا
 تُؤَاخِذْنِي﴾ استعطافاً للخضر ؛ لأنه قد يؤاخذه على النسيان مؤاخذه من لا يصلح
 للمصاحبة .

❁ بنى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ اعتذاره على المؤاخذه بالنسيان ، ولم يبينه على
 الاعتذار بالنسيان ؛ لسوء ضجة من يطراً عليه النسيان .

(١) ينظر : «جامع البيان» للطبري (٣٣٩/١٥) «لطائف الإشارات» للقرطبي (٤١٠/٢) و«الكشاف» (٧٣٥/٢) و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٨/١١) و«تفسير المرافي» (٤/١٦) و«التحرير والتنوير» لابن عاشور (٣٧٦/١٥) و«البداية والنهاية» لابن كثير (٢٩٥/١) .

❁ قَبِلَ الْخَضِرَ اعْتَذَارَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالنِّسيانِ ، فَمِنْ جَمِيلِ خُلُقِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْفُوَ عَنِ الزَّلَّاتِ وَيَقِيلَ الْعَثَرَاتِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ الْعِذَارَ مِنَ الزَّلَّةِ يُوجِبُ تَسْكِينَ الْغَضَبِ عَنْهَا .

❁ حِينَما خَالَفَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْوَعْدَ وَنَسِيَ مَا تَعَهَّدَ بِهِ مَرَّتَيْنِ ، قَطَعَ عَلَى نَفْسِهِ الطَّرِيقَ وَجَعَلَهَا آخِرَ فُرْصَةٍ أَمَامَهُ ، فَاعْتَرَفَ بِخَطِيئِهِ وَتَحَمَّلَ تَبْعَاتِهِ بِحِرْمَانِ نَفْسِهِ مِنَ الصَّحْبَةِ إِنْ أَعَادَ الْكَرَّةَ ، فَكَانَ ذَلِكَ شَافِعًا لَهُ فِي قَبُولِ اعْتِذَارِهِ .

❁ يَظْهَرُ فِي قَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّجْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ۖ ﴾ ، الْحِكْمَةُ وَالسَّمُوُ الْخَلْقِيَّ ، كَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ الْكَلِيمُ ، فَقَدْ جَعَلَ لِصَاحِبِهِ الْعَذَرَ فِي تَرْكِ الْمَصَاحِبَةِ فِي الثَّالِثَةِ ، إِنْ تَعَرَّضَ لِلْإِعْتِرَاضِ ، تَجَنُّبًا لِلْإِحْرَاجِ ، وَسُلُوكًا لِسَبِيلِ الْإِنْصَافِ .

❁ ذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ الْعَذَرَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى يُقْبَلُ ، وَفِي الثَّانِيَةِ يُنْظَرُ فِيهِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ : « وَفِيهِ قِيَامُ الْعَذْرِ بِالْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِالثَّانِيَةِ » (١) .

❁ مِنْ جَمِيلِ صَحْبَةِ الْأُسْتَاذِ قَبُولُ الْعَذْرِ مِنَ الطُّلَابِ ، حَتَّى مَعَ تَكَرُّرِ الْخَطَأِ ، وَهَذَا مَا كَانَ مِنَ الْخَضِرِ مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

❁ نَلْحَظُ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَعْتَذِرْ بِالنِّسيانِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ابْنُ عَاشُورٍ : « لَمْ يَعْتَذِرْ مُوسَى بِالنِّسيانِ ؛ إِمَّا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَسِيًّا ، وَلَكِنَّهُ

(١) « فتح الباري » (٨/ ٤٢٢) .

رَجَّحَ تَغْيِيرَ الْمُنْكَرِ الْعَظِيمِ وَهُوَ قَتْلُ النَّفْسِ بِدُونِ مُوَجِّبٍ عَلَى وَاجِبِ الْوَفَاءِ بِاللِّتِّزَامِ ، وَإِمَّا لِأَنَّهُ نَسِيَ وَأَعْرَضَ عَنِ الْاِعْتِذَارِ بِالنِّسْيَانِ لِسَمَاجَةٍ تَكَرَّرَ الْاِعْتِذَارُ بِهِ «^(١)» ، وَعَلَى كِلْتَا الْحَالَيْنِ فَقَدْ أَعَادَ إِلَى نَفْسِ الْخَضِرِ الْاِطْمِئْنَانَ ، بِوَعْدِهِ بِالْاِفْتِرَاقِ فِي حِينَ إِعَادَةِ السُّؤَالِ ، فَلَمْ يَبْقَ لِلْعَذْرِ مَجَالٌ .

❁ فِي تَجَنُّبِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْاِعْتِذَارِ فِي الْمَرَّةِ الثَّلَاثَةِ إِشَارَةً إِلَى الْحَرَصِ عَلَى عَدَمِ تَكَرُّرِ الْاِعْتِذَارِ إِلَّا فِيمَا تَدْعُو إِلَيْهِ الضَّرُورَةُ ، كَمَا يَنْبَغِي التَّنَبُّهُ لِلْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي تَجُزُّ الْإِنْسَانَ إِلَى الْاِعْتِذَارِ ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْأَثَرِ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : « جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَوْصِنِي وَأَوْجِزْ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : عَلَيْكَ بِالْإِيَّاسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعُ ؛ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ ، وَصَلَّ صَلَاتَكَ وَأَنْتَ مُودَّعٌ ، وَإِيَّاكَ وَمَا تَعْتَذِرُ مِنْهُ »^(٢) ، فَكَثْرَةُ الْاِعْتِذَارِ تُفْقِدُهُ أَهْمِيَّتَهُ ، وَتُبَلِّدُ إِحْسَاسَ الْمَعْتَذِرِ تَجَاهَ أَفْعَالِهِ وَأَخْطَائِهِ .

❁ فِي قَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَدِّقْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ ، مَدْحٌ لِلْخَضِرِ بِتَحَمُّلِهِ مَرَّتَيْنِ ؛ لِذَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُتَّقِنَ فنَّ الْاِعْتِذَارِ ، وَيَبِينَ فَضْلَ مَنْ جَادَ عَلَيْهِ بِالْصَّفْحِ وَالْغَفْرَانِ .

❁ مِنْ حَقِّ الصَّحْبَةِ أَلَّا يُفَارِقَ الرَّجُلُ أَخَاهُ إِلَّا بَعْدَ الْاِسْتِعْتَابِ وَالْاِعْتِذَارِ ،

(١) « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٦/١٦) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرک » (٧٩٢٨) وقال : « حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وأقره الذهبي ، وحسنه الألباني ، في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » (٤٠٠) .

يظهر ذلك في مبادرة العبد الصالح بالاعتذار عندما أراد الفراق : ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ، وفي ذلك يقول السعدي : « إنه ينبغي للصاحب ألا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال ، ويترك صحبته ، حتى يعتبه ، ويُعذر منه ، كما فعل الخضر مع موسى ^(١) ، فما أحوَجنا إلى تلك المعاني ، فقد جاء الاعتذار من العالم إلى المتعلم ، حتى لا يفترقا إلا وقد زال ما في النفوس ، وتحقق المطلوب .

❁ القصص القرآني وإن كان يُبرز حدثًا معينًا ، إلا أن فيه كثيرًا من الجزئيات التي لها ثمرَةٌ ومَغزًى ، وهذا يظهر في تكرّر الاعتذار في قصص القرآن ؛ ففي قصة موسى والخضر فقط نجد اعتذارين لموسى عَلَيْهِ السَّلَام ، ومن ثم نجد قبول العذر من الخضر لموسى عَلَيْهِ السَّلَام في كلتا الحالتين ، وتُختم القصة باعتذار الخضر إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَام .

❁ من أعظم أنواع الاعتذار حُصوله من الأعلى إلى الأدنى ؛ من العالم إلى المتعلم ، من الرئيس إلى المرؤوس ، من الأب إلى أبنائه ، وهكذا ، ولا يخفى ما في ذلك من الأثر في تربية النفوس .



(١) « تيسير الكريم الرحمن » (٤٨٢) .

المبحث الثاني

اعتذار إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام لأصحاب العير

حينما تولَّى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ خزائن الأرض في مصر، أَحَسَّنَ التدبيرَ، فزَرَعَ زُرُوعًا هائلةً، واتَّخَذَ لها المحلَّات الكبارَ، وَضَبَطَهَا ضَبْطًا تامًّا، فَلَمَّا دخلت سِنُونُ القحطِ وَسَرَى الجَدْبُ حتَّى وَصَلَ فِلَسْطِينَ، أَرْسَلَ يَعْقُوبُ بنيه لأجل المِيرة من مصرَ، فدخل أبناءُ يَعْقُوبَ عَلَى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يطلبون الرِّزْقَ، فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ، فَجَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِأَخِيهِمْ مِنْ أَبِيهِمْ بَعْدَ أَنْ أَخْبَرُوهُ أَنَّ لَهُمْ أَخًا مِنْ أَبِيهِمْ ثُمَّ هَدَّاهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَأْتُوا بِهِ فَلَا كَيْلَ لَهُمْ، وَذَلِكَ لَعَلِمِهِ بِاضْطِرَارِهِمْ إِلَى الْإِثْنَانِ بِهِ، ﴿قَالُوا سُرُّودُ عَنَّا أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ [يوسف: ٦١]، فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ أَخْبَرُوهُ أَنَّهُ قَدْ مُنِعَ مِنْهُمْ الْكَيْلَ حتَّى يَأْتُوا بِأَخِيهِمْ مِنْ أَبِيهِمْ، وَلَمَّا فَتَحُوا بِضَاعَتَهُمْ وَجَدُوهَا رُدَّتْ إِلَيْهِمْ، ﴿مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ﴾ [يوسف: ٦٥]، فوافق يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُرْسِلَ أَخَاهُمْ مَعَهُمْ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَهُمْ بِحَادِثَةِ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمَوَاقِفَ، فَخَرَجُوا مَعَ أَخِيهِمْ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يوسف آوَى إِلَيْهِ شَقِيقَهُ الَّذِي أَمَرَهُم بِالْإِثْنَانِ بِهِ، وَضَمَّهُ إِلَيْهِ، وَأَخْبَرَهُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩]؛ أَي: لَا تَحْزَنْ؛ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ خَيْرٌ لَنَا، فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ مِكْيَالَ الْمَلِكِ الَّذِي يَكِيلُ بِهِ لِلْمُتَارِينِ

في رَحْلِ أَخِيهِ الشَّقِيقِ دُونَ عِلْمِهِمْ ؛ تَوَصَّلًا إِلَى إِبْقَائِهِ مَعَهُ ، فَلَمَّا ارْتَحَلُوا عَائِدِينَ نَادَى مُنَادٍ : ﴿أَيَّتَهَا الْغَيْرُ إِنَّا كُمْ لَسَرَفُونَ﴾ [يوسف : ٧٠] ، فَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ لِإِبْعَادِ التُّهْمَةِ ؛ فَإِنَّ السَّارِقَ لَيْسَ لَهُ هَمٌّ إِلَّا الْبَعْدُ وَالْإِنْطِلَاقُ عَمَّنْ سَرَقَ مِنْهُ ، لَتَسَلَّمَ لَهُ سَرَقَتُهُ ، وَهَؤُلَاءِ جَاؤُوا مُقْبِلِينَ إِلَيْهِمْ ، لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا إِزَالَةُ التُّهْمَةِ الَّتِي رُمُوا بِهَا عَنْهُمْ : مَاذَا تَفْقَدُونَ ؟ ﴿ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلَعِنَ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ [يوسف : ٧٢] ، فَقَالُوا فِي رَدِّ التُّهْمَةِ : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يوسف : ٧٣] ، بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْمَعَاصِي ، ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ [يوسف : ٧٣] ؛ فَإِنَّ السَّرَقَةَ مِنْ أَكْبَرِ أَنْوَاعِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا : فَمَا جَزَاءُ مَنْ سَرَقَ عِنْدَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ فِي دَعْوَاكُمْ الْبَرَاءَةَ مِنَ السَّرَقَةِ ؟ قَالُوا : جَزَاءُ السَّارِقِ أَنْ يُسَلَّمَ رَقَبَتَهُ لِلْمَسْرُوقِ مِنْهُ لِيَسْتَرِقَّهُ ، فَبَدَأَ الْبَحْثُ فِي مَتَاعِهِمْ ، وَاسْتَخْرَجَهُ مِنْ وَعَاءِ بَنِيَامِينَ ، حِينَئِذٍ تَمَّ لِيُوسُفَ مَا أَرَادَ مِنْ بَقَاءِ أَخِيهِ عِنْدَهُ ، عَلَى وَجْهِ لَا يَشْعُرُ بِهِ إِخْوَتُهُ^(١) ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [يوسف : ٧٦] ؛ أَي : يَسِّرْنَا لَهُ هَذَا الْكَيْدَ^(٢) ، الَّذِي تَوَصَّلَ بِهِ إِلَى أَمْرِ غَيْرِ مَذْمُومٍ ، ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ

(١) ذهب أكثر المفسرين إلى أن جعل السقاية في رحل أخيه كان عن علم أخيه ، وذهب قلة منهم إلى خلاف ذلك ، والذي يظهر والله أعلم أن ذلك كان عن علم من أخيه (بنيامين) وفي ذلك يقول ابن القيم راداً على من قال : إن بنيامين لم يكن يعلم بوضع السقاية في رحله : « القرآن يدل على خلاف هذا ، والعدل يرده ، وأكثر أهل التفسير على خلافه » . « إغاثة اللهفان » (١٠٩ / ٢) ويقول ابن كثير : « تواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقية عنده ، معزراً مكرماً معظماً » . « تفسير القرآن العظيم » (٤٠٠ / ٤) .

(٢) ذهب أكثر المفسرين إلى أن الحيلة التي سلكها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت وحياً من الله ، وذهب بعضهم إلى أن ذلك لم يكن وحياً ، والراجح القول الأول ، فهو الذي ينسجم مع النص

الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۖ ؛ لأنه ليس من دينه أن يُتَمَلَّك السارق ، وإنما له عندهم الضرب والتغريم ، فلو رُدَّت الحكومةُ إلى دين الملك ، لَمَا تَمَكَّن يوسفُ من إبقاء أخيه عنده ، ولكنه جعل الحكمَ منهم ، ليتَمَّ له ما أراد .

ولما تمَّ ذلك ، كان انتزاعُ أخيهام منهم بعد ما أعطوا أباهم الموائيق ؛ داهيةً تطيشُ لها الحلومُ ، فما كان منهم إلا أن قدَّموا اعتذارهم إلى يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف : ٧٧] ، دفعًا للعارِ عنهم ، وتبرئةً لأنفسهم^(١) ، ومقدمةً لطلبِ أخيهام : ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف : ٧٧] ، أسرَ ذلك يوسفُ في نفسه ، ولم يُبْدِها لهم ، بل كظم الغيظَ ، وأتمَّ الأمرَ ، ثم سلكوا معه مسلكَ التملُّقِ ، لعلَّه يسمحُ لهم بأخيهام^(٢) : ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۚ إِنَّا نَنْزِلُكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف : ٧٨] ، فردَّ

القرآني وأخلاق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ، يقول الطبري : « فكاد الله ليوسف كما وصف لنا حتى أخذ أخاه منهم ، فصار عنده بحكمهم » . « جامع البيان » للطبري (١٨٧ / ١٦) .

(١) للمفسرين أقوالٌ كثيرةٌ في سرقة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ، والذي يظهر أنها كلها لا تستند إلى حق ، وإنما هي أكاذيبُ هو منها براء ، يقول الشوكاني في الرد على افتراءهم على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ : « فما هذه الكذبة بأول كذباتهم » . « فتح القدير » (٥٤ / ٣) ويقول سيد قطب : « وتنطلق الروايات والتفاسير تبحث عن مصداق قولهم هذا في تعلات وحكايات وأساطير ، كأنهم لم يكذبوا قبل ذلك على أبيهم في يوسف ، وكأنهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز مصر دفعًا للتهمة التي تخرجهم » . « في ظلال القرآن » (٢٠٢٢ / ٤) .

(٢) ينظر : « النكت والعيون » للماوردي (٦٤ / ٣) و« الكشف » للزمخشري (٤٩٢ / ٢) « نظم الدرر » للبقاعي (١٧٨ / ١٠) و« البحر المديد » لابن عجيبة (٦١٦ / ٢) و« تيسير الكريم الرحمن » للسعدي (٤٠٢) .

يوسفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ طلبهم : ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَلَعًا عِنْدَهُ إِنَّنَا إِذَا لَطَلِمُونَ﴾ [يوسف : ٧٩] .

تأملات في اعتذار إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أصحاب العير :

❁ كان اعتذارُ إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لنفي المعرفة عن أنفسهم ، لا لمحو ذنب أخيه ، يقول ابنُ عاشور : « لَمَّا بُهِتُوا بِوُجُودِ الصُّوَاعِ فِي رَحْلِ أَخِيهِمْ اعْتَرَاهُمْ مَا يَعْتَرِي الْمَبْهُوتَ ، فاعْتَذَرُوا عَنْ دَعْوَاهُمْ تَنْزُهُهُمْ عَنِ السَّرِقَةِ ، إِذْ قَالُوا : ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ؛ عُذْرًا بِأَنْ أَخَاهُمْ قَدْ تَسَرَّبتَ إِلَيْهِ خَصْلَةُ السَّرِقَةِ مِنْ غَيْرِ جَانِبِ أَبِيهِمْ »^(١) ، فهم يَخْرُجُونَ مِنَ التُّهْمَةِ ، وَيُعَرِّضُونَ فِي اعْتِذَارِهِمْ بِأَمْ أَخَوِيهِمْ ، وَيُلْمِحُونَ أَنَّهَا خَصْلَةٌ سَرَتْ فِيهِمْ مِنْ جَانِبِ أُمَّهُمْ .

❁ تلبَّس إخوة يوسف باعتذارهم ذنبًا يحتاج إلى اعتذارٍ آخر ، فقد افتروا على يوسف ذنبًا هو منه بريء .

❁ تظهرُ حكمةُ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في عدم الردِّ عليهم ، وفضحِ اعتذارهم الكاذب ، لَمَّا كَانَ يَرْجُوهُ مِنَ الْخَيْرِ فِيمَا بَعْدُ .

يقول ابنُ القيم : « وَقَدْ حَكَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ يَوْسُفَ الصَّدِيقِ أَنَّهُ قَالَ لِأَخَوْتِهِ : ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ، لَمَّا قَالُوا : ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ ؛ ذَلِكَ لِلْمَصْلَحَةِ

(١) « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٣٤ / ١٣) .

التي اقتَضَتْ كتمانَ الحال»^(١) ، وفي هذا درسٌ يُفادُ ؛ وهو الصمتُ وتركُ الردِّ في مقابلةِ الاعتذاراتِ الكاذبةِ ؛ إن كان يُرجى في ذلك مصلحةٌ .

❁ لم يتغير موقفُ أولادِ يعقوبَ في حالِ الصغرِ والكبرِ معاً ، فقد تسلَّحوا بالاعتذارِ الكاذبِ حينما ألقوا يوسفَ في البئرِ ، وجاؤوا أباهم بيبكون : ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّبُّ^ط وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف : ١٧] ، وها هم أولاءِ اليومَ يسلكونه مرةً أخرى للخروج من مأزقِ سرقةِ أخيهـم : ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ .





المبحث الثالث

اعتذار المنافقين للمؤمنين

أخبر المولى سبحانه عن اعتذارات المنافقين اللاحقة التي كانوا يحاولون بها تغطية اعتذاراتهم السابقة كما قد بينّا في اعتذار أولي الطول ، وذلك بعد رجوع المؤمنين منتصرين في غزوة تبوك ، إذ إنهم لم يتوقعوا ذلك النصر ، فقد كانوا يقولون في مجالسهم : إن الرومان سيكبلون العرب ، والمنافق مُسرفٌ في القول دائماً ، وحينما رأوهم منتصرين راعهم ذلك ، فبدؤوا يعتذرون إلى النبي ﷺ وللمؤمنين كاذبين ، كما اعتذروا للنبي ﷺ في التخلي عن الجهاد كاذبين ؛ ولذا قال تعالى : ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٩٤] ، أي : سالمين أقوياء ، بالاعتذارات الكاذبة ؛ كقولهم : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ، فيأمر الله تعالى نبيه بقوله تعالت كلماته : ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا﴾ [التوبة: ٩٤] ، وقد خص النبي ﷺ بالرد عليهم ؛ لأنه رأسهم والمتولي لما يرد عليهم ، وكان النهي عن الاعتذار لأنه كذب ؛ ولذا قال تعالى على لسان نبيه : ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤] ، أي : نبأنا الله تعالى ببعض أخباركم ، وبالأفعال التي تقصدون بها إفساد عزائم المؤمنين ، وتخذيّلهم عن الجهاد ، وبحقيقة ما تقصدون باعتذاراتكم ، ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلَاقِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤] ، أي : هل ستوبون

فَيَقْبَلُ تَوْبَتَكُمْ؟ أَوْ تَسْتَمِرُّونَ عَلَى نِفَاقِكُمْ؟ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى اللَّهِ الَّذِي يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، فَيُخَبِّرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، وَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ، وَكَعَادَةِ الْمُنَافِقِينَ يُقَابِلُونَ ذَلِكَ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ تَأْكِيدًا لاعتذاراتهم الباطلة، وليستهيي المؤمنون عن لومهم وتوبيخهم ويُعْرِضُوا عَنْهُمْ، فَيَأْمُرُهُمُ الْمَوْلَى سُبْحَانَهُ أَنْ يَتْرَكُوهُمْ تَرَكَ سَاخِطٍ وَيَهْجُرُوهُمْ؛ فَهُمْ رِجْسٌ لَا يَطْهَرُهُمْ لَوْمٌ وَلَا عِتَابٌ، وَمُسْتَقَرُّهُمْ الَّذِينَ يَأْوُونَ إِلَيْهِ هُوَ جَهَنَّمُ، جَزَاءٌ لَهُمْ عَلَى مَا يَكْسِبُونَهُ مِنَ النِّفَاقِ وَالْآثَامِ^(١)؛ ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَاؤَلَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٩٥]، وهذه هي الأيمان الكاذبة منهم؛ لتأكيد اعتذارهم، ولنيل رضا الناس لا لنيل رضا الله؛ لذا حَذَّرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَرْضَوْا عَمَّنْ لَا يَرْضَى اللَّهُ عَنْهُ: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

مَا أَعْظَمَ الْقُرْآنَ كَاشِفًا لِحَقِيقَةِ الْمُنَافِقِينَ؛ فَإِنَّ الْمَتَدَبِّرَ فِيهِ، لَيَتَلَوُ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُبَارَكَةَ، فَيَشْعُرُ أَنَّهَا مَا تَنَزَّلَتْ إِلَّا فِي هَذَا الزَّمَنِ، فَهَمَّ يَسْتَخْفُونَ خَلْفَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُضْمِرُونَ السُّوءَ، وَيَخْذُلُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَحْلَاكِ الظُّرُوفِ، فَإِذَا افْتَضَحَ سُوءُ صَنِيعِهِمْ، تَتَرَسَّوْا بِالْإِيمَانِ الْكَاذِبَةِ وَالتَّسْوِيعَاتِ الْبَاهِتَةِ، بَأَنَّ الْقَصْدَ كَانَ مِنْهُمْ حَسَنًا، وَأَنَّ السُّوءَ غَيْرُ مُقْصُودٍ، ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَنًا

(١) ينظر: «جامع البيان» للطبري (٤١١/١٤) و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٢٢٣/٨)

و«تفسير المراغي» (١٥٠/١٠) و«زهرة التفاسير» لأبي زهرة (٣٤١٨/٧) و«سيرة ابن

هشام» (٥١٧/٢) و«تاريخ الرسل والملوك» للطبري (١٠٢/٣).

وَتَوَفِّيقًا ﴿ [النساء: ٦٢] ، وهو أسلوبٌ رخيصٌ قديمٌ جديد ، سلكه المنافقون في عهد الرسالة ، ونَهَجَه منافقو عصرنا ، فيما تفلَّت من بين ألسنتهم وأقلامهم ، ويبدو أن هذا الأسلوب لا يتركه المنافقون في الدنيا ولا في الآخرة ، فهم جُبْناء يَحْتَمُونَ بالتسويعات الباطلة والأيمان الكاذبة ، وَيَحْسِبُونَ أنهم يُخَادِعُونَ الله بها ؛ ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [المجادلة: ١٨] ، وسيأتي بيان ذلك في فصل الاعتذار في اليوم الآخر .

تأملات في اعتذار المنافقين إلى المؤمنين :

❁ فَضَحَ اللهُ اعتذاراتِ المنافقين الكاذبةَ قَبْلَ أن يتفَوَّهوا بها للمؤمنين ، بياناَ لسوءِ سريرَتهم ، وتحذيراً من تصديقهم .

❁ أمر الله نبيه ﷺ بنهي المنافقين عن الاعتذار ، وعَلَّلَ ذلك بعدم التصديق ؛ لِمَا انطوت عليه أَعذارُهم من المكرِ والتحايلِ على الإسلام والمسلمين ، ولأنَّ غرضَ المعتذرِ أن يُصَدِّقَ فيما يَعْتَذِرُ به .

يقول أبو حيان : « لن نؤمنَ لكم : علةٌ للنهي عن الاعتذار ؛ لأنَّ غرضَ المعتذر أن يُصَدِّقَ فيما يَعْتَذِرُ به ، فإذا عَلِمَ أنه مُكذَّبٌ في اعتذاره كَفَّ عنه »^(١) .

❁ وَبَخَّ اللهُ المنافقين بظهورِ أمرهم في الدنيا ، وعقابِ الله لهم في الآخرة ، إن لم يتداركوا أمرهم ، ويثوبوا إلى رشدهم ؛ ففي قوله تعالى : ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ ﴾

(١) « البحر المحيط » (٩٣ / ٥) .

تصريحٌ بالتوبيخ والعقابِ على أعمالهم .

يقولُ الزحيلي : « وهذا يتضمَّن ضرورةً تجنُّبِ المعاذيرِ الكاذبةِ ، وتحاشي كلِّ ما يُعتدَّرُ منه من السيئاتِ »^(١) .

❁ في ختام الآية : ﴿ تُوْرَدُوْنَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ ❁ ، زيادةً تحذيرٍ لهم بأنَّ الله مطلعٌ على ضمائرهم ، كما هو مطلعٌ على ظواهرهم .

❁ كان غرضُ المنافقين في اعتذاراتهم السابقة إلى النبي ﷺ كما بيَّنا في الفصل السابق التخاذلُ عن نُصرةِ الإسلامِ والمسلمين ، مع ما يرافقُ ذلك من الاستجابة لحظوظِ النفسِ في طلبِ الدَّعةِ والسلامةِ ، أمَّا اعتذارُهم إلى المؤمنين في هذا المبحثِ فقد جاء حِفاظًا على مكانتهم ومكاسبهم الاجتماعيةِ ، وهكذا المنافقون يَرْمُونَ في اعتذاراتهم إلى مقاصدِهم الشخصية بعيدًا عن إرضاءِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

❁ في الآياتِ عبرةٌ للمنافقين في زماننا ، وفي كل زمانٍ ، في افتضاحِ أمرهم ، وبيانِ مكرهم ، وكشفِ سُبلهم ؛ من الأحاديثِ المنمَّقة ، والاعتذاراتِ الباطلةِ المؤكَّدة بالأيمانِ المزوَّرة .

❁ في الآياتِ إشارةٌ إلى سعيِ المنافقين باعتذاراتهم الساقطةِ وأيمانهم الكاذبةِ ، لنيلِ رضا الناسِ دون رضا الله ، فهم يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ بامتهانِ اسمِ الله بالحلفِ الكاذبِ ؛ لَسْتَرِ نِفَاقِهِمْ وإخفائهم ، يؤيِّدون الباطلَ بالباطلِ ، ويدعَمون

(١) « التفسير المنير » (١١ / ٩) .

الإِجْرَامَ بِالْإِجْرَامِ ؛ ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ .

❁ يُلاحظ كثرة الحلف في اعتذارات المنافقين ، وقد صرح المولى سبحانه بأن هذه الوسيلة عندهم قد اتخذوها قاعدة عامة : ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [المجادلة : ١٦] ، أي تُرسًا ووقايةً يَسْتَحِثُّونَ بها ، فيتفوهون بالعبارات المناقضة للشريعة ، ويأتون الأعمال السيئة ، ويخذلون المسلمين في أشد الأوقات ، فإذا ظهر أمرهم حلفوا وأنكروا وجحدوا!

❁ أمر الله عباده المؤمنين بالألّا يستجيبوا لاعتذار المنافقين ، وأن يُعرضوا عنهم وعن أيمانهم ؛ لأنهم رجس لا يُطهّرهم لوّم ولا عتابٌ ، كالشيء الذي يكون نجس العين كالخزير ، لا يطهره الماء ، بل الماء ينجس به ، وكثرة القول معهم في أنجاسهم يُشيع قول السوء في الذين آمنوا^(١)



(١) ينظر : « زهرة التفاسير » لأبي زهرة (٣٤١٨ / ٧) .



الفصل الخامس الاعتذار في الحياة الآخرة

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : اعتذار الظالمين والمفرطين حين تتوفاهم الملائكة .

المبحث الثاني : اعتذار المشركين والظالمين والمفرطين يوم القيامة ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : اعتذارهم في عرصات يوم القيامة .

المطلب الثاني : اعتذارهم في النار .

المبحث الثالث : اعتذار إبليس .





المبحث الأول

اعتذار الظالمين والمفّرطين حين تتوفاهم الملائكة

إن لحظات الاحتضار في حقيقتها هي اختصارٌ لحياة الإنسان كلها ؛ فمن الثابت المشاهد أن العبد يموت على ما عاش عليه ، ولهذا اختلفت أحوال المحتضرين ؛ من مؤمن يفرح بقاء الله ، والانتقال إلى الدار التي عمل لها ؛ ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] ، ومن ظالم يعلن التوبة والاعتذار حين يدرك حقيقة الموت ، ويقع في الحسرة على ما فرط في جنب الله ، ويسأل ربه الرجعة ليصلح ما فات ؛ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۗ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠] ، ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾^(١) ؛ أي : إلى

(١) وقد جاء الخطاب بصيغة الجمع : ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ؛ فيجوز أن يكون الجمع لله تعالى وللملائكة للتعظيم ؛ على العادة في مخاطبات الأكابر ولا سيما الملوك ، أو لقصد تكرير الفعل للتأكيد ، يقول الشنقيطي في هذه المسألة : « ويُنَبِّأُ أَنَّهُ يَجَابُ عَنْهُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ : الأول : وهو أظهرها : أن صيغة الجمع في قوله : ارجعون ، لتعظيم المخاطب ؛ وذلك النادم السائل الرجعة ، يظهر في ذلك الوقت تعظيمه ربه ، ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر حسان بن ثابت :

ألا فارحموني يا إله محمد فإن لم أكن أهلاً فأنت له أهل

الوجه الثاني : قوله : رب : استغاثة به تعالى ، وقوله : ارجعون : خطاب للملائكة .
الوجه الثالث : أنه جمع الضمير ليدل على التكرار ؛ فكأنه قال : رب ارجعني ارجعني ارجعني ،
والعلم عند الله تعالى » . « دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب » (١٦٤)

الدنيا دارِ العمل ، ولَمَّا كان الله قد قضى بأنه لا يرجع ، ولو رجع لَمَّا عمل ؛ قال رَدْعًا له وردًا لكلامه : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٠] ، أي : مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿ كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ أي : مجرد قولٍ باللسان ، لا يُفيدُ صاحبه إلا الحسرة والندم ، وهو أيضًا غير صادق في ذلك ؛ فإنه لو رُدَّ لعاد لِمَا نُهي عنه ، ولَمَّا كانت الخاتمة عامة في كل ظالم ومفرطٍ عطَفَ على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ، جامعًا معه كلَّ مَنْ ماثله ، وفي هذا تبيُّسٌ لهم من الرجوع أبدًا ؛ لأنهم إذا لم يرجعوا قبل يوم القيامة ، فهم بعدها لا يرجعون أبدًا من باب أولى ؛ لِمَا عِلِمَ أنه لا رجعة بعد البعث إلا إلى الآخرة .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ ﴾ [المنافقون : ١٠] ؛ أي : فيقول متحسرًا على ما فرط في وقت الإمكان ، سائلًا الرجعة التي هي مُحالٌ : ﴿ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [المنافقون : ١٠] أي : لأتدارك ما فرطت فيه ، فأخرج من مالي^(١) ما به أنجو من العذاب ، وأستحقُّ به جزيل الثواب ، وألحق

(١) قال ابن العربي : « أخذ ابن عباس بعموم الآية في الإنفاق الواجب خاصة دون النفل ، وهو

الصحيح ؛ لأن الوعيد إنما يتعلق بالواجب دون النفل » . « أحكام القرآن » (٢٥٩ / ٤)

والظاهر والله أعلم أن فعل (أنفقوا) مستعمل في الطلب الشامل للواجب والمستحب ، يقول ابن عاشور : « فإن مدلول صيغة : افعل ، مطلق الطلب ، وهو القدر المشترك بين الوجوب والندب ، وفي قوله : (من ما رزقناكم) إشارة إلى أن الإنفاق المأمور به شكر لله على ما رزق المنفق ، فإن الشكر صرف العبد ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله ، ويعرف ذلك من تلقاء الشريعة ... ومنه ما وكل للناس تعيينه مما ليس بواجب من الإنفاق ، فذلك موكول إلى

بِرَكْبِ الصالحين بأداءِ المأموراتِ كُلِّها ، واجتنابِ المنهيات ، وهذا الاعتذارُ والتمنيُّ قد فات وقته ، ولا يمكن تدارك الأمرِ فيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون : ١١] ، أي : المحتوم لها ، ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون : ١١] ، أي : من خيرٍ وشرٍّ ، فيجازيكم على ما عملتم .

وقد صَوَّرَ القرآنُ مشهدَ احتضارِ الظالمين لأنفسِهِم ، الذين أَسْبَوْهَا غَضَبَ اللَّهِ وسخطَه عند مجيءِ الملائكةِ لقبضِ أرواحِهِم ؛ فقال : ﴿ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ ﴾ [النحل : ٢٨] ، ذلك بأنهم تركوا استكبارَهُم وإنكارَهُم ، وأسرعوا إلى الاعترافِ والخضوعِ لَمَّا ذاقوا عذابَ انتزاعِ أرواحِهِم ؛ لَأَنَّ إلقاءَ السَّلَامِ أَوَّلُ مظاهرِهِ القولُ الدالُّ على الخضوعِ ، يقولون ذلك للملائكةِ الذين يَنْتَزِعُونَ أرواحَهُم ؛ لِيَكْفُوا عَنْهُمْ تعذيبَ الانتزاعِ ، فيقولون مستسلمين : ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ [النحل : ٢٨] ، وهو مشهدٌ مُخْزٍ وموقفٌ مُهينٌ ! فيجيئُهُم الجوابُ من العليمِ بما كان منهم : ﴿ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٢٨] ، فلا سبيلَ إلى الكذبِ والاعتذارِ والتمويه ، ثم يجيئُهُم الجزاءُ إتماماً لردِّ الاعتذارِ : ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مِنْكُمْ مَخْرَجٌ ﴾ [النحل : ٢٩] .

ثم يَصَوِّرُ لنا القرآنُ اعتذارَ المتقاعسين عن الهجرة^(١) لحفظِ دينِهِم ، عندما

رغبات الناس في نوال الثواب ؛ فإن ذلك باب عظيم من القربى من رضا الله تعالى » . « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٢٨ / ٢٥٢) .

(١) قال الطبري : « ذكر أن هاتين الآيتين (يعني الآية التي معنا والتي بعدها) والتي بعدهما ، نزلت في أقوام من أهل مكة كانوا قد أسلموا وآمنوا بالله وبرسوله ، وتخلَّفوا عن الهجرة مع رسول

تَقْبِضُ الْمَلَائِكَةُ أَرْوَاحَهُمْ فيقولُ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النساء : ٩٧] ، أي : تقول لهم الملائكة : في أي شيء كنتم من دينكم ؟ ، وذلك توبيخ لهم ؛ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين ، إذ قدروا على الهجرة ولم يُهاجروا ، فقالوا : كنا مُسْتَضْعَفِينَ ؛ اعتذاراً مما وُبِّخُوا به واعتلالاً بالاستضعاف ، وأنهم لم يتمكنوا من الهجرة حتى يكونوا في شيء ، فبكتتهم الملائكة لضعف حجبتهم : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النساء : ٩٧] ، أرادوا : إنكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد التي لا تُمنعون فيها من إظهار دينكم ^(١) .

الله ﷺ حين هاجر ، وعُرض بعضهم على الفتنة فافْتَنَ ، وشهد مع المشركين حرب المسلمين ، فأبى الله قبول معذرتهم التي اعتذروا بها ، التي بيّنها في قوله خبراً عنهم : ﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ . « جامع البيان » للطبري (١٠٢ / ٩) .

وهذا دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب ، لبعض الأسباب والعوائق التي لا تنحصر ، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة ؛ حَقَّتْ عليه المهاجرة ، قال الإمام الموفق رحمته الله : « الهجرة : هي الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام ، وحكم الهجرة باق ، لا ينقطع إلى يوم القيامة ، في قول عامة أهل العلم ، وقال قوم : قد انقطعت الهجرة ، لأن النبي ﷺ قال : « لا هجرة بعد الفتح » أخرجه البخاري (٢٧٨٣) ومسلم (١٨٦٤)

وروي أن معاوية قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » رواه أبو داود (٢٤٧٩)

وأما الحديث الأول ، فأراد به : لا هجرة بعد الفتح من بلد قد فتح ؛ لأن الهجرة الخروج من بلد الكفار ، فإذا فتح لم يبق بلداً لكفار ، فلا تبقى منه هجرة . « المغني » لابن قدامة (٢٩٤ / ٩)

(١) ينظر : « تفسير مقاتل بن سليمان » (١٦٥ / ٣) و« تفسير يحيى بن سلام » (٤١٥ / ١) و« الكشف » للزمخشري (٥٥٥ / ١) و« الدرر المصون في علوم الكتاب المكنون » للسمين الحلبي (٢٩٦ / ١) و« تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (٤٩٣ / ٥) و« نظم الدرر » للبقاعي

وهكذا يأتي ردُّ اعتذارِ المفرطين والظالمين والكافرين في ساعات الاحتضار، حينما تُوفى كلُّ نفسٍ أجلها ورزقها وعملها، وقد أمر الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** نبيه بتقرير ذلك حتى لا يَغْتَرَّ المغترُّون: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعَ الرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، فهذه سنة الله في خلقه إذا غرغرت الروح وانتهى الأجل، في أمة محمد وفي الأمم من قبل؛ كما حكى القرآن مقولتهم: ﴿رَأَوْا بِأَسَنَّا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسَنَّا سَلَّتْ آلَهُ الْقِيَامُ قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادَتِهِ وَخَيْرَ هَذَا الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤ - ٨٥]، أي: لا تبدل لها ولا تعديل، لله الأمر من قبل ومن بعد، إلا ما جاء في قوم يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]، فهم مُسْتَشْنُونَ من العموم السابق.

يقول السعدي: «ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة، لم تصل إلينا، ولم تدركها أفهامنا، ولعل الحكمة في ذلك أن غيرهم من المهلكين لو ردُّوا لعادوا لِمَا نُهوا عنه، وأمَّا قوم يونس فإنَّ الله علِمَ أن إيمانهم سيستمر، بل قد استمرَّ فعلاً وثبتوا عليه، والله أعلم»^(١).

تأملات في اعتذار الظالمين والمفترطين حين تتوافهم الملائكة :

❁ في هذه الآيات إشارة إلى أن مَنْ أدركه الأجل وهو في أسْرِ نفسه وفي رِقِّ شَهَوَاتِهِ ، فليس له فُسْحَةٌ في الاعتذار ؛ فقد انتهى العمل وحضر الجزاء والأجل ، وفي هذا موعظة لكل مُعْتَبِرٍ ، يقول ابن كثير : « كان العلاء بن زياد يقول : لِيُنْزِلْ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنَّهُ قَدْ حَضَرَ الْمَوْتَ ، فَاسْتَقَالَ رَبَّهُ ، فَأَقَالَه ؛ فَلْيَعْمَلْ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى »^(١) .

❁ يتعلّق الظالمون والمفترطون بالكفّار بالاعتذار في ساعات الاحتضار ، كما يتعلّق الغريق بمتلاطم الأمواج ، فالموت حين يحضر الإنسان يرُدُّه إلى صوابه ، ويوقّظُه من غفلته ، ولكن ذلك يكون بعد فوات الأوان ، وقد بلغت الروح الحلقوم ، فلا يجد هذا الإنسان بين يديه إلا الأمانى ، فيقول : ﴿ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، ذلك هو أقصى أمانيه ، وهو غاية مطلوبه ؛ ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

❁ رَدَّ اللَّهُ الاعتذار بقوله : « كَلَّا » في الآية الأولى ، وهي كلمة رَدْع وزجر ؛ لأنه اعتذار قولٍ فحسب ، ولا عمل معه ، فهو كاذب .

يقول السعدي : « والحكمة في هذا ظاهرة ؛ فإن الإيمان الاضطراري ليس بإيمان حقيقة ، ولو صُرف عنه العذاب والأمر الذي اضطرَّه إلى الإيمان لرجع إلى الكفران »^(٢) .

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٥ / ٤٣٠) .

(٢) « تيسير الكريم الرحمن » للسعدي (٣٧٤) .

❁ اعتذار المحتضر بقوله: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ اعتذارٌ مُّوجَزٌ يجمع بين التكليف الماليّ والبدنيّ .

يقول ابنُ عاشور: « وهو من بدائع الاستعمال القرآنيّ ؛ لقصد الإيجاز وتوفير المعاني »^(١) .

❁ ذكرُ الصدقة في الاعتذار في قوله: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ، تذكيرٌ للمؤمنين بما في الإنفاق من الخير ، لعلهم يُكثِّرون منه ما داموا مُقتدرين قبل الفوات ، أي قبل تعذُّر الإنفاق ، وذلك حين يُحسُّ المرء بحالة تُوذِن بِقُرْبِ الموت ، ويُغلبُ على قُواه ، فيسأل الله أن يؤخّر موته ؛ ليأتي بكثير ممّا فرط فيه من النفقات ، و« لولا » حرفٌ تحضيض ، والتحضيضُ : الطلبُ الحثيثُ ، وحقُّ الفعل بعدها أن يكون مضارعاً ، وإنما جاء ماضياً هنا لتأكيد إيقاعه في دعاء الداعي ، حتى كأنّه قد تحقّق ، وقرينة ذلك ترتيبُ فعلَي ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ و﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ عليه ، فيسأل المؤمنُ ربّه سؤالاً حثيثاً أن يحقق تأخير موته إلى أجلٍ يستدرك فيه ما اشتغل عنه من إنفاق وعملٍ صالح^(٢) .

❁ يُصوِّر القرآن مشهدَ الاحتضار ، وإعلان التوبة عند مواجهة الموت ، لتدارك ما فات ، وكأنّما المشهدُ معروضٌ للحظةٍ للأنظار ، مشهودٌ كالعيان! ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٦﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا

(١) « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٢٨/ ٢٥٤) .

(٢) ينظر: « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٢٨/ ٢٥٣) .

تَرَكْتُ» ، ويأتي الردُّ على هذا الاعتذار المتأخّر ، فلا يُوجَّهُ إلى صاحبه ، إنما يُعلنُ على رؤوس الأشهاد : ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ، ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ : أي كلمة لا معنى لها ، ولا ينبغي العناية بها أو بقائلها ، إنها كلمة الموقف الرهيب ، لا كلمة المخلص المنيب ، وقد جاء هذا التصوير للعظة والاعتبار قبل فوات الأوان ، ثم جاء الردُّ بصيغة الجمع موجَّهاً إلى كل ظالم ومفرط ؛ لتقرير هذه الخاتمة لدى الجميع : ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ .

❁ ذكرت هذه الآية : ﴿الَّذِينَ تَوْفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ﴾ لفظ « الوفاة » التي هي بين حالي الدنيا والآخرة ، وهي حال تعرض للجميع ، وفي هذا دليل على أن كل من توفّي فقد استكمل واستوفى ما قدّر له من الرزق والأجل والعمل ، ولا مجال للتوبة والاعتذار ، وذلك مأخوذ من لفظ « التّوفّي » ؛ فإنه يدلُّ على ذلك ؛ لأنه لو بقي له شيء من ذلك لم يكن مُتوفّياً^(١) .

❁ في التعبير بقوله : ﴿فَأَلْقَوْا السَّلَامَ﴾ دلالة على الخضوع والاستكانة والندم ، والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع ، وأصل الإلقاء في الأجسام ، فاستعمل في إظهار الانقياد ، إشعاراً بغاية خضوعهم واستكانتهم^(٢) .

❁ في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوْفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ ، عظة قرآنية للإنسان ، فيها تصوير مشهد الاحتضار يظهر فيه الملائكة ؛ لتتحفّز النفس

(١) ينظر : « تهذيب اللغة » للأزهري (٤١٩/١٥) مادة : (و ف ا)

(٢) ينظر : « محاسن التأويل » للقاسمي (٣٦٤/٦) .

لتقديم التوبة قبل فوات الأوان، إذ يكفي أن يتصور المرء نفسه، والملائكة تتوفاه، وهو ظالم لنفسه، وليس أمامه من فرصة أخرى لإنصاف نفسه، فهذه هي اللحظة الأخيرة.

❁ جاء تصويرُ اعتذارِ الظالمين لأنفسهم بتركِ الهجرة، عند الاحتضارِ على وجهِ الخصوص؛ لما يترتبُ على ذلك من ضعفِ الدين، بل ربما يؤدي إلى الخروجِ عن الملةِ بالكلية، وهذا كفيلاً باستنهاضِ كلِّ مُستضعفٍ في دينه أن يفرَّ بدينه وعقيدته، وبمصيره عند ربِّه من هذا الموقف؛ ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيْلَى فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].





المبحث الثاني اعتذار المشركين والظالمين والمفّرطين يوم القيامة

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : اعتذارهم في عرصات يوم القيامة .

المطلب الثاني : اعتذارهم في النار .



المطلب الأول

اعتذارهم في عرصات يوم القيامة

نَقِفُ في هذا المطلبِ على الاعتذارِ بعدَ البعثِ والنشورِ والخروجِ من القبورِ ، في يومٍ تنقطعُ فيه الأنسابُ والأسبابُ للانشغالِ بالأهوالِ العظامِ ؛ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] ، فهو يومٌ تقشعرُّ منه الأبدانُ ، وتشيبُ من هولِهِ الولدانُ ، موقفٌ مهيبٌ خيمَ عليه الصمتُ ؛ فالسؤالُ همسٌ ، والكلامُ تخافتٌ ؛ ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَسْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] ، يُحشَرُ فيه العبادُ كما خلُقوا أولَ مرةٍ ، حفاةً غيرَ مُنتعلين ، عراةً غيرَ مُكْتَسِينَ ، غُرلاً غيرَ مُحْتَسِنِينَ ، يشتدُّ فيه الكربُ ، وتُنصبُ فيه الموازين ، وتتطايرُ فيه الصُّحفُ ، فَمَنْ أُوتِيَ كتابَهُ يمينه فسوفَ يُحاسبُ حساباً يسيراً ، وَمَنْ أُوتِيَ كتابَهُ بشماله فسوفَ يدعو ثُبوراً ، وَيَصْلَى سَعيراً ، يَطَّلِعُ فيه العبادُ على أعمالهم ، ويقرؤونُ صُحفَهم .

وهذا من تمامِ عدلِ الله وكرمِهِ وفضلِهِ ، وإلا فالْمَوْلَى لا يَخْفَى عليه عملُ أحدٍ من عبِيدِهِ ، حينها يحاولُ العبدُ الظالمُ لنفسه أن يُدافعَ عنها ويخرجَها من سخطِ ربهِ ؛ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَدِلٍ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] ، يومٌ يأتي كلُّ إنسانٍ يجادلُ عن ذاته لا يُهمُّه شأنُ غيره ؛ كُلُّ يَقُولُ : نفسي نفسي ، ومعنى المجادلةِ عنها : الاعتذارُ ؛ ﴿وَتُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١] ، أي : تُعطى جزاءَ عملِها وافيًا ؛ ﴿وَهُمْ

لَا يُظْلَمُونَ ﴿١﴾ ، فَعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ دَفْعًا بِغَيْرِ الْعِذَارِ ، وَأَنَّهُ غَيْرُ نَافِعِهِمْ ، وَاعْتَذَرُوا فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ يَخْتَلِفُ وَيَتَبَايَنُ ، فَتَارَةً يَتَحَسَّرُونَ عَلَى مَا صَدَرَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَمَا كَانَ مِنْ سُوءِ أَعْمَالِهِمْ ؛ ﴿٢﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحَسَّرَتْنِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٣﴾ [الزُّمَرُ: ٥٦] ، أَيْ : يَا حَسْرَتَا عَلَى تَقْصِيرِي فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، وَسَخِرَتْنِي وَاسْتَهْزَأَنِي بِدِينِ اللَّهِ وَكِتَابِهِ ، وَبِرَسُولِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ، وَتَارَةً يُظْهِرُونَ النَّدَمَ ، وَيَتَمَنُّونَ الْعُودَةَ لِلْعَمَلِ ؛ تَكْفِيرًا لِمَا صَدَرَ مِنْهُمْ : ﴿٤﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥﴾ [الشُّعَرَاءُ: ١٠٢] ، أَيْ : كَرَّةً إِلَى الدُّنْيَا فَتُحْسِنَ ، وَهَذَا اعْتِرَافٌ بِأَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُسِيئِينَ ، وَطَائِفَةٌ أُخْرَى تَعْتَذِرُ بِالْقَدْرِ : ﴿٦﴾ إِنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ [الزُّمَرُ: ٥٧] ، يَقُولُونَهُ لِقَصْدِ الْعِذَارِ وَالتَّنْصُلِ ، وَتُعِيدُ أَذْهَانَهُمْ مَا اعْتَادُوا الْعِذَارَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدُّنْيَا ، كَمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ : ﴿٨﴾ لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴿٩﴾ [الزُّخْرُفُ: ٢٠] ؛ إِذْ كَانُوا يَقُولُونَهُ لِقَصْدِ إِفْحَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَمَا كَانَ يَدْعُوهُمْ ، فَبَقِيَ ذَلِكَ التَّفَكِيرُ عَالِقًا بِعَقُولِهِمْ حِينَمَا حَضَرُوا الْحِسَابَ ، وَحَالَهُمْ هَذِهِ كَحَالِ الْمُنَافِقِينَ حِينَمَا يَحْلِفُونَ فِي الْآخِرَةِ ؛ ﴿١٠﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ [الْمَجَادِلَةُ: ١٨] ، اعْتَذَارًا مِنْهُمْ ، عَلَى الْعِلْمِ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ مُبْطِلُونَ فِي جِدَالِهِمْ ، وَطَائِفَةٌ أُخْرَى تَعْتَذِرُ بِالْكَذِبِ : ﴿١٢﴾ وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿١٣﴾ [الْأَنْعَامُ: ٢٣] ، وَذَلِكَ حِينَمَا يَحْشُرُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، وَيَسْأَلُ الْمُشْرِكِينَ عَنْ شُرَكَائِهِمْ : ﴿١٤﴾ أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٥﴾ [الْأَنْعَامُ: ٢٢] ، فَلَمْ يَكُنْ أَمَامَهُمْ سِوَى الْعِذَارِ بِالْكَذِبِ ، وَتَارَةً يَقْرَنُونَ اعْتَذَارَهُمْ بِطَلَبِ وَتَمَنِّي الشَّفْعَاءِ بَحْثًا عَنْ طَرِيقِ النِّجَاةِ : ﴿١٦﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ

يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿ [الأعراف: ٥٣] ، أي : ما ينتظرُ الذين لم يؤمنوا بهذا الكتابِ العظيمِ إلا وقوعُ ما يؤوُلُ إليه الأمرُ مما أخبرَ به القرآنُ من أمرِ الآخرةِ ، في ذلك الموقفِ يُقَرُّونَ بما أخبرت به الرسلُ متندِّمين متأسِّفين على ما مضى منهم ، متشفِّعين في مغفرةِ ذنوبهم ، يودُّون الرجوعَ إلى الدنيا لأجل أن يكونوا أهلاً لمرضاةِ تعالى ، لكن فاة الوقتُ ، وقُضِيَ الأمرُ^(١) ؛ ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ .

وقد وُردَ في القرآنِ عدَّةُ مشاهدٍ في اعتذارِ الظالمين والمكذبين ، تصفُ وتُصوِّرُ حالهم يومَ القيامةِ ؛ ليكونَ ذلكَ أشدَّ في مُلامسةِ القلوبِ :

يَصِفُ القرآنُ مشهدَ فزعهم وخوفهم يومَ القيامةِ كأنَّه معروضٌ للأنظارِ : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فزعُوا فلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١] ، أي : لو ترى أيُّها الرسولُ فرعَ هؤلاءِ المكذبين لَمَّا بُعِثُوا وعابنوا العذابَ يومَ القيامةِ ، وحاولوا الإفلاتَ منه؟ ولكن لا مفرَّ لهم منه ، ولا مكانَ يلتجئون إليه ؛ ﴿وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَافُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٢] ، الآنَ بعد فواتِ الأوانِ ، لكن كيف يتناولون الإيمانَ من مكانهم هذا ، ومكان الإيمانِ بعيدَ عنهم؟ فقد كان ذلك في الدنيا ، فضيَّعوه! وانتهى الأمرُ ، ولم يُعد لهم

(١) ينظر : « جامع البيان » للطبري (٤٠٢ / ٢١) و « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٤٧ / ٢٤)

و « أضواء البيان » للشنقيطي (٢٢٣ / ٨) .

أَنْ يَحَاوِلُوهُ الْيَوْمَ! ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ
بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٣] ، ذلك حين أنكروا هذا اليوم ، وهو غيبٌ ، فلم يكن لهم
على إنكاره من دليلٍ ، إنما كانوا يقذفون بالغيب من مكانٍ بعيدٍ ، واليوم
يحاولون تناول الإيمان به من مكانٍ كذلك بعيدٍ! ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا
يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] ، أي : من الإيمان في غير موعده ، والإفلات من العذاب
الذي يشهدونه ، والنجاة من الخطر الذي يواجهونه .

ثم يصف القرآن موقفهم في سورة السجدة : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ
نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا
مُقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] ، حين يقفون بين يدي ربهم مطأطئين رؤوسهم خجلاً ،
وخوفاً وخزيًا ، وذلك في محل المناقشة عند ربهم المحسن إليهم المتوحد
بتدبيرهم ، معتذرين بغاية الذل والخضوع ، قائلين : « ربنا » أي : أيها المحسن
إلينا ، « أَبْصَرْنَا » ما كنا نكذب به ، « وَسَمِعْنَا » منك ومن ملائكتك وغير ذلك ما
كنا نستبعده ، فصرنا على غاية العلم بتمام قدرتك ، وصدق وعودك ، فارجعنا
بما لك من هذه الصفة المقتضية للإحسان ، إلى دار الأعمال نعمل صالحًا ، ثم
أكدوا اعتذارهم بقولهم : ﴿إِنَّا مُقِنُونَ﴾ ؛ لأن حالهم حال المشكوك فيه الذي
يتوقف المخاطب في إيقانه .

ثم يصور القرآن موقفهم إذا عاينوا النار : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا
يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧] ، أي : لو ترى
أيها الرسول ، أو أيها السامع ، بعينيك هؤلاء الضالين المكذبين ، إذ تقفهم

الملائكة على النار، فيُشرفون عليها من أرض الموقف، وهي هاويةٌ سحيقةٌ، أو يقفون فوقها على الصراط، لعلمت ما يحلُّ بهم حينئذٍ، وما يكون من أمرهم، من ندمهم على كفرهم، ومن حسرتهم وتمنيهم ما لا يُنال، وقد ذكر ما يكون من وقفهم على النار وما يترتب عليه من قولهم بصيغة الماضي الواقع في حيز الشرط المستقبل للإعلام بتحقيق وقوعه، على القول المشهور في مثله^(١).

وهكذا يكون هؤلَّ ذلك اليوم العظيم؛ فهو يومٌ يتنفي فيه التستر والاعتذار، ولو ألقى الإنسان فيه معاذيره لشهدت عليه جوارحه؛ ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكْمَلُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

بعد ذلك يستسلمون لله، ويخضعون لحكمه، ويعلمون أنهم مستحقون للعذاب، فيدخلون النار وقد امتلأت قلوبهم من مقت أنفُسهم، وعلموا أنَّ ربهم لم يعاقبهم إلا بما كسبوا.

تأملات في اعتذار المشرِّكين والظالمين والمفرطين في عرصات يوم القيامة:

❁ جاء القرآن رحمةً للعباد؛ يكشف لهم المصير والمآل بعد انتهاء الآجال، فلا حجةَ لأحدٍ ولا عذرَ بعد هذا البيان.

❁ في كلِّ المواقف والمشاهد التي صوّرها القرآن في اعتذار المفرطين والظالمين لأنفسهم يوم القيامة، تجدهم يُعلنون يقينهم بالآخرة ويقينهم بالحقِّ

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» لمكي القيسي (١٢/٧٨٧٢) و«المحرر الوجيز» لابن عطية (٤/٥٣٨) و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٥/٢٧١) و«تنوير المقباس من تفسير ابن عباس» الفيروزآبادي (٣٩٠).

الذي جاءتهم به الدعوة، ويقولون الكلمة التي لو قالوها في الدنيا لفتحت لهم أبواب الجنة، ولكنها في موقفهم ذاك لا تجدي شيئاً ولا تفيد، لعل هذا يُوقظ النفوس الغافلة، ويُصلح النفوس الظالمة.

❀ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف بالفاء مباشرة بعد رؤيتهم للنار؛ وذلك للدلالة على أن أول شيء يقع حينئذ في قلوبهم، ويسبق التعبير عنه إلى ألسنتهم، هو الندم على ما سلف منهم، وتمني الرجوع إلى الدنيا.

يقول الشنقيطي: «فهذا غاية في الاعتذار، ولكنهم نهوا عنه، وذلك يوم القيامة... لأنه لا يَنفَعُهُمْ»^(١).

❀ في اعتذارات ذلك اليوم يُظهر المعتذرون غاية الذلة والخضوع والاستسلام، لعل ذلك يُقيلهم على عادة المترققين في وقت الشدائد، ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

❀ لَمَّا وَصَفَ المولى سبحانه اليوم الآخر بـ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أَتْبَعَهُ بما أَوْضَحَهُ، فقال مُبْدِلاً مما قبله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ وَيَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿[غافر: ٥١ - ٥٢]، وفي ذلك دلالة واضحة على كثرة اعتذارهم في ذلك اليوم، وعلى تعلق الظالمين والمفرطين والكافرين يوم القيامة بمسلك الاعتذار، اعتقاداً منهم أنه طريق النجاة.

(١) «أضواء البيان» للشنقيطي (٢٢٣/٨).

❁ جاء في سورة الزمر اعتذاراتٌ مختلفةٌ ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرَتْنِي عَلَى مَا قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴾ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر : ٥٦-٥٨] كلُّ هذه الاعتذاراتِ جاءت متتاليةً يسبقها إخبارُ الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** بسعةِ كرمِهِ ، وجميلِ عفْوِهِ عن عباده ، ثم يُخبرُهم بالطريقِ الجالبِ لرحمته ، وذلك بولوجِ بابِ التوبةِ والإنابةِ إليه بأعمالِ الجوارحِ والقلوبِ الخالصةِ لوجهِ سبحانه ، والتمسكِ بالحبلِ المتينِ والكتابِ المبينِ ؛ بامثالِ أوامره واجتنابِ نواهيه ، كلُّ هذا جاء في نظمٍ بديعٍ ، ومدارٍ الآياتِ كلَّها على الحثِّ على المبادرةِ إلى التوبةِ لانتهازِ الفرصةِ قبلَ فواتِ الأوانِ .

❁ لم يذكُرْ في اعتذارِ المجرمين في سورة السجدة جوابًا ؛ وذلك لهوانهم ، إذ لم يُجرِّئهم على العصيانِ إلا صفةُ الإحسانِ ، فلا يصلحُ لهم إلا الخزيُّ والهوانُ ، ولأنَّ الإيمانَ لا يصحُّ إلا بالغيبِ قبلَ العيانِ^(١) .

❁ حُكي الاعتذارُ في الآخرةِ في القرآنِ على ترتيبه الطبيعيِّ في جَوَلَانِهِ في الخاطرِ ؛ بالابتداءِ بالتحسُّرِ على ما وقعت فيه النفسُ ، ثم بالاعتذارِ والتنصُّلِ طمعًا أن يُنجيها ذلك ، ثم بتمنِّي أن تعودَ إلى الدنيا لتعملَ الإحسانَ .



(١) ينظر : « نظم الدرر » للبقاعي (٢٥١/١٥) .

المطلب الثاني

اعتذارهم في النار

بعد أن يئس الظالمون من قبولِ اعتذارِهم في عَرَصاتِ القيامةِ وفي الموقفِ العظيمِ بين يَدَيِ رَبِّهِمْ ، عَلِمُوا أن مصيرَهم ومآلَهم إلى النارِ ، فدخلوها وقد امتلأتْ قلوبُهم حَقًّا وبُغْضًا لأنفسِهم التي سَلَكَتْ بِهِمْ سُبُلَ الْغَوَايَةِ وَأَعْرَضَتْ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ ، فَيُنَادُونَ أَنَّ اللَّهَ حَنِقَ عَلَيكُمْ وَأَبْغَضَكُمْ أَكْثَرَ مِنْ بَغْضِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ؛ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ [غافر : ١٠] ، فَيَزِدَادُ عَذَابُهُمُ الْحَسِيَّ بِالْعَذَابِ الْمَعْنَوِيِّ مِنْ بَغْضِ اللَّهِ لَهُمْ وَمَقْتِهِ عَلَيْهِمْ ، بَلْ وَمَقْتِ النَّارِ لَهُمْ غَضَبًا لَخَالِقِهَا ؛ ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴾ [الملك : ٨] ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى الْإِعْتَادِ أَمَلًا فِي الْخُرُوجِ مِنَ النَّارِ ؛ ﴿ رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [غافر : ١١] ، يَتَوَسَّلُونَ بِاللَّهِ وَقَدَرَتِهِ عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ ، أَنْ يُعِيدَهُمْ إِلَى الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا ، وَلَكِنْ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ إِعْتَذَارَهُمْ ، إِذْ لَا فَضْلَ فِي الْإِيمَانِ بَعْدَ الْمَشَاهِدَةِ ؛ ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ [غافر : ١٢] ، يَرُدُّ أَيْضًا عَلَيْهِمْ إِعْتَذَارَهُمْ ، وَيَبَيِّنُ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ تَوْبِيخًا لَهُمْ ؛ لِيَزِدَادُوا حَسْرَةً عَلَى حَسْرَتِهِمْ ، وَيَسْتَمِرُّ إِعْتَذَارُهُمْ وَاسْتِغَاثَتُهُمْ بِاللَّهِ ؛ ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ [فاطر : ٣٧] ، أَيْ :

يَجَارُونَ الْمَأْمَا وَحَسْرَةً وَنَدَمًا وَحَرْقَةً ، وَيَطْلُبُونَ الرِّجُوعَ إِلَى دَارِ الْعَمَلِ لِيَسْتَدْرِكُوا مَا فَاتَهُمْ ، وَيُصْلِحُوا مَا أَفْسَدُوا ، وَأَنِّي لَهُمْ ذَلِكَ وَقَدْ أَمَّهَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَمَدَّ لَهُمْ فِي الْعَمْرِ ، فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا رَجَعُوا إِلَيْهِ ، بَلْ كَذَّبُوا بِالنُّذُرِ وَأَعْرَضُوا عَنْهَا ، ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ، وَهَذَا يَشْمُلُ كُلَّ عُمُرٍ تَمَكَّنَ فِيهِ الْمَكْلَفُ مِنْ إِصْلَاحِ شَأْنِهِ وَتَغْيِيرِ مَسَارِهِ ، إِلَّا أَنَّ ذَنْبَ مَنْ طَالَ عَمْرُهُ أَقْبَحُ وَجُرْمُهُ أَعْظَمُ ؛ فَعَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « أَعَذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ آخَرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَغَهُ سِتِّينَ سَنَةً » ^(١) .

وَلَا يَزَالُ أَهْلُ النَّارِ يَبْحَثُونَ عَنْ عِلَلٍ لِيَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَالْعِقَابِ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَعَلَّلُ بِإِضْلَالِ السَّادَةِ لَهُمْ ؛ ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَا أَطْعَنَا اللَّهُ وَأَطْعَنَا الرَّسُولَ﴾ [الأحزاب : ٦٦] ، نَدَمًا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ يَأْخُذُونَ بِالْإِبْتِهَالِ : ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصْلَحُونَا السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب : ٦٧] ، وَهَذَا التَّنْصُلُ وَالِدَعَاءُ اعْتِذَارٌ مِنْهُمْ لِلَّهِ حِينَمَا حُسِرُوا مَعَ رُؤْسَائِهِمْ فِي النَّارِ ، وَهُوَ اعْتِرَافٌ مِنْهُمْ بِضَلَالِهِمْ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَذِرُ بِالْقَدَرِ : ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقَاقَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون : ١٠٦] ؛ أَيِ : الْكِتَابُ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْنَا .

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٩)

قال ابن بطال : « أي أعذر إليه غاية الإعذار ، الذي لا إعذار بعده ؛ لأن الستين قريب من معترك العباد ، وهو سن الإنابة والخشوع والاستسلام لله تعالى وترقب المنية ولقاء الله تعالى ، فهذا إعذار بعد إعذار في عمر ابن آدم ، لطفًا من الله لعباده حين نقلهم من حالة الجهل إلى حالة العلم ، وأعذر إليهم مرة بعد أخرى ، ولم يعاقبهم إلا بعد الحجج اللائحة المبكته لهم ، وإن كانوا قد فطروهم الله تعالى على حب الدنيا وطول الأمل ، فلم يتركهم مهملين دون إعذار لهم وتنبيه ، وأكبر الإعذار إلى بني آدم بعثة الرسل إليهم » . « شرح صحيح البخاري » (١٠ / ١٥٢) .

يقول الجزائري: « كالمعتذرين بأن شقاءهم كان بقضاء وقدر »^(١)، والاعتذار بالقضاء والقدر باطل منهّي عنه في الدنيا، فكيف الأمر في الآخرة دار الجزاء؟^(٢)، ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، وهم كاذبون في وعدهم هذا؛ فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٨٢] ولم يبق الله لهم حجة، بل قطع أعمارهم، وعمرهم في الدنيا ما يتذكر فيه المتذكر، ويرتدع فيه المجرم، فوقع جواب رغبهم بحسب ما حتمه الله من عذابهم: ﴿أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

قال ابن عباس: « هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه »^(٣)، وقوله: « اخسؤا » زجر يستعمل في إبعاد الكلاب^(٤)، ومنه قول النبي ﷺ لابن صياد: « اخسأ فلن تعدو قدرك »^(٥).

(١) « أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير » (٣/ ٥٤٠)

(٢) يقول ابن القيم: « إن الاحتجاج بالقدر منافٍ للتوبة، وليس هو من الاعتذار في شيء ». « مدارج السالكين » (٢٠٢/١) ويقول أيضًا: « وذنّب إبليس حمله على الاحتجاج بالقدر والإصرار، وذنّب آدم أوجب له إضافته إلى نفسه، والاعتراف به والاستغفار، فأهل الكبر والإصرار، والاحتجاج بالأقدار: مع شيخهم وقائدهم إلى النار إبليس، وأهل الشهوة، المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوب، الذين لا يحتجون عليها بالقدر: مع أبيهم آدم في الجنة ». « مدارج السالكين » (٣١٦/٢).

(٣) « تفسير القرآن العظيم » لابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٠٩).

(٤) ﴿قَالَ أَخْسَوْا فِيهَا﴾: يبدو أن الخاء والسين حرفان يدلان على الذلة والمهانة والمسكنة، فإذا كان فاء الفعل وعينه خاء وسينًا دلًا على ذلك، نحو: خسى، وخسر، وخسف إلخ، الجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي (١٨/ ٢١٦).

(٥) أخرجه البخاري (١٣٥٤) ومسلم (٢٩٢٤)

يقول السعدي : « وهذا القول أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون ؛ في التخييب ، والتوبيخ ، والذل ، والخسار ، والتأيس من كل خير ، والبشرى بكل شر ، وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم ، أشد عليهم وأبلغ في نكائيتهم من عذاب الجحيم »^(١) ، ثم ذكر سبحانه السبب الذي أوصلهم إلى العذاب وقطع عنهم الرحمة ؛ فقال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾^(٢) ، فقد كنتم تهزؤون بعبادي الصالحين وتحقرونهم ، حتى اشتغلتم بذلك السفه عن ذكرى ، وهذا الاستهزاء أوجب عليكم نسيان الذكر ، كما أن نسيان الذكر سبب للاستهزاء بهم ، فكل من الأمرين يمدد الآخر ، فهل فوق هذه الجراءة جراءة؟!

وبعد ذلك ينقطع الدعاء والرجاء منهم ، ويُقبل بعضهم ينبح في وجه بعض ، فيشتد عليهم العناء ؛ لأنهم ما داموا يذكرون الله لم يحصل الفراق بالكلية ، فإذا حيل بينهم وبين ذكره تتم لهم المحنة ، نسأل الله السلامة والعافية^(٣) .

تأملات في اعتذار المشركين والظالمين والمفرتين في النار :

❁ تنقل آيات اعتذار أهل النار الحقيقة بقمة البلاغة القرآنية ، حتى لكأن النفوس تعيش تلك اللحظات ؛ لتستيقظ القلوب قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم .

(١) « تيسير الكريم الرحمن » (٥٦٠) .

(٢)

(٣) ينظر : « جامع البيان » للطبري (١١٩ / ١٧) و « الهداية إلى بلوغ النهاية » لمكي (٥٠٠٦ / ٧) و « المحرر الوجيز » لابن عطية (١٥٧ / ٤) و « الدر المصون » (٢٣٥ / ٩) .

❁ في اعتذار المشركين بقولهم: « سادتنا » يَظْهَرُ قَصْدُ التَّنْصُلِ مِنْ تَبَعَةِ ضَلَالِهِمْ بِأَنَّهُمْ مَغْرُورُونَ مَخْدُوعُونَ بِهِمْ ، وَهُوَ اعْتِذَارٌ مُرَدُّ عَلَيْهِمْ بِمَا أَنْطَقَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْحَقِيقَةِ : « أَطْعَنَا » ، وَفِي قَوْلِهِمْ : « سَادَتْنَا » .

يَقُولُ أَبُو السُّعُودِ : « وَقُرِئَ « سَادَتْنَا » لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْكَثْرَةِ ، وَالتَّعْيِيرِ عَنْهُمْ بِعُنْوَانِ السِّيَادَةِ وَالْكِبَرِ لِتَقْوِيَةِ الْعِزِّ ، وَإِلَّا فَهُمْ فِي مَقَامِ التَّحْقِيرِ وَالْإِهَانَةِ »^(١) .

❁ بعد استعراضنا لآيات الاعتذار في اليوم الآخر ، يَتَبَيَّنُ أَنَّ الظَّالِمِينَ وَالْمُفْرِطِينَ وَالْكَافِرِينَ يَنْدَمُونَ عَلَى التَّفْرِيطِ ، وَيُودُّونَ الْعُودَةَ إِلَى دَارِ الْعَمَلِ ؛ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ ، وَيَوْمَ النُّشُورِ ، وَوَقْتَ الْعَرْضِ عَلَى الْجَبَّارِ ، وَحِينَ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ وَهُمْ فِي غَمَرَاتِ عَذَابِ الْجَحِيمِ ، وَفِي كُلِّ الْأَحْوَالِ لَا يُقْبَلُ لَهُمْ اعْتِذَارٌ .

❁ حِينَمَا رَدَّ اللَّهُ اعْتِذَارَهُمْ عَلَيْهِمْ ، ذَكَرَهُمْ بِالسَّبَبِ ، يَقُولُ الْقَاسِمِيُّ فِي ذَلِكَ : « ثُمَّ أَشَارَ إِلَى عِلَّةِ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ »^(٢) ؛ أَي : فَسَخَّرْتُمْ مِنْهُمْ فِي دَعَائِهِمْ إِيَّايَ وَتَضَرَّعْتُمْ ، وَكُنْتُمْ تَضْحَكُونَ مِنْ صَنِيعِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ ، وَقَدْ خَصَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذَا الذَّنْبَ بِالذِّكْرِ فِي اعْتِذَارِ مَنْ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ ؛ فَقَالَ : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يٰحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنَابِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴾ .

(١) « إرشاد العقل السليم » (١١٧ / ٧) .

(٢) « محاسن التأويل » (٣٠٤ / ٧) .

قال قتادة: فلم يكفِه أن ضيَّع طاعةَ الله حتى جعل يسخرُ بأهل طاعةِ الله^(١).
وقال السُّدِّيُّ: وإن كنتُ لمن المستهزئين بأمرِ الله وكتابه ورسوله
والمؤمنين به^(٢)، كما أشارت آياتُ سورة المطففين إلى الندمِ على هذا الذنبِ؛
قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ
يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٠]؛ أي: يلْمِزونهم استهزاءً بهم، وذلك يدلُّ على
شناعةِ هذا الذنبِ.



(١) «جامع البيان» للطبري (٣١٥/٢١).

(٢) «تفسير ابن فورك» (٣٣٢/٢).

المبحث الثالث

اعتذار إبليس

بعد أن يقضي الله الأمر بالعدل بين الخلائق بتمييز أهل الضلالة وأهل الهداية ، وذلك بتوجيه كل فريق إلى مقره الذي استحقه بعمله ، يقوم فيهم إبليس حينئذ^(١) مصرحاً بالحقيقة ، متنصلاً من ذنبه ؛ قائلاً : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٢٢] ، أي : بأن الله جاءكم بالحق على السنة رسوله ، ووعدكم في اتباعهم بالنجاة والسلامة ، وكان وعداً حقاً ، وخبراً صدقاً ، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : ١٢٠] ، وما كان لي

(١) الله أعلم بكيفية هذا القيام بين إبليس وأهل النار ؛ ومن المفسرين من قال : يقف شفيعاً ، ومنهم من قال : يقف خطيباً ، كما نقله جماعة من المفسرين : كالطبري وابن أبي حاتم والسمرقندي والماوردي وغيرهم مرسلًا عن الحسن **رَحِمَهُ اللَّهُ** لكن لم يرد في ذلك إلا آثارٌ ضعيفة ؛ كحديث عقبة بن عامر : « أن الكافرين يقولون : وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ، فيقولون : ما هو غير إبليس ؛ هو الذي أضلنا فيأتونه فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ، فقم أنت فاشفع لنا ، فإنك أضللتنا ، فيقوم فيثور من مجلسه أثنى ريح شمه أحد ويقول عند ذلك : إن الله قد وعدكم » أخرجه الدارمي (٢٨٤٦) وابن المبارك في « الزهد » (١١١ / ٢) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٧٦ / ١٠) : « رواه الطبراني ، وفيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، وهو ضعيف » ، وقال السيوطي في « الدر المنثور » (١٨ / ٥) : « أخرجه ابن المبارك في الزهد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وابن عساكر بسند ضعيف عن عقبة بن عامر ... » . والذي وصلت إليه الباحثة بعد بحث أنه لم يثبت حديث متصل صحيح صريح في صفة قيام إبليس ، وأما الآثار الواردة عن التابعين كالحسن **رَحِمَهُ اللَّهُ** فلا تقبل ؛ لأن مثل هذه الأخبار الغيبية تحتاج إلى سند متصل إلى النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** كما هو مقرر عند أئمة الحديث ، والله أعلم .

عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به ، وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به ، فخالفتموهم فصرتُم إلى ما أنتم فيه ، فلا تلوموني اليوم ، ولوموا أنفسكم ؛ إذ اغتررتُم بي وأطعتموني إذ دعوتكم من غير حجة ولا دليل .

وهكذا تدرج في حديثه حتى وصل إلى هذه الحقيقة : ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [إبراهيم : ٢٢] ، والصارخ والمُستصرخ : هو الذي يطلب النصرة والمعاونة ، والمُصرخ هو المُغيث^(١) .

قال أمية بن أبي الصلت :

ولا تجزعوا إنني لكم غير مُصرخ وليس لكم عندي غناء ولا نصر^(٢)

فلن أستطيع إنقاذكم ولا نجدتكم ، كما أنكم لا تستطيعون إنقاذي ولا نجدتي ، فنحن اليوم في دركات جهنم وسعيرها ، وليس لأحد منا القدرة على دفع العذاب عن الآخر ، ثم يعترف إبليس بذلة وانكسار^(٣) : ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم : ٢٢] .

(١) « المصباح المنير » للفيومي (٣٣٧ / ١) .

(٢) لم أجده في « ديوان أمية بن أبي الصلت » ، وقد نقله : الماوردي في « النكت والعيون » (١٣١ / ٣) والقرطبي في « الجامع لأحكام القرآن » (٣٥٧ / ٩) وينظر : « شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم » للحميري (٣٧٣١ / ٦) و« البحر المحيط » لأبي حيان (٤٢١ / ٦) و« الدر المصون » للسمين الحلبي (٩٥ / ٧) .

(٣) ينظر : « تأويلات أهل السنة » للماتريدي (١٨٧ / ٨) و« بحر العلوم » للسمرقندي (٢٤٠ / ٢) و« الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (٣٥٦ / ٩) و« الكشف » (٥٥٠ / ٢) و« التحرير والتنوير » لابن عاشور (٢١٨ / ١٣) .

وهذا المقال من إبليس ؛ الذي وسوسَ في الصدورِ ، وأغرى بالعصيانِ ، بما فيه من التنصّلِ والاعترافِ ، من لطفِ الله بعباده ، تحذيرًا لهم من طاعةِ الشيطانِ ، ومداخلِهِ التي يقصِدُ بها إدخالَ الإنسانِ إلى النارِ .

تأملات في اعتذار إبليس :

❁ مع كلِّ ما في شخصيةِ إبليسَ من مراوغةٍ ومغالطةٍ ، واستهتارٍ وتبجّجٍ ومكرٍ ؛ يعترفُ لأتباعِهِ يومَ القيامةِ بأنَّ اللهَ وعدَهُم وعدَ الحقِّ ، وأنه هو وعدَهُم فأخلفَهُم .

قال القاشاني^(١) : « لَمَّا ظَهِرَ سُلْطَانُ الْحَقِّ عَلَى شَيْطَانِ الْوَهْمِ ، وَتَنَوَّرَ بِنُورِهِ ، أَسْلَمَ وَأَطَاعَ ، وَصَارَ مُحَقَّقًا عَالِمًا بِأَنَّ الْحُجَّةَ لِلَّهِ فِي دَعْوَتِهِ لِلخَلْقِ إِلَى الْحَقِّ ، لَا لَهُ ، وَدَعْوَتُهُ إِلَى الْبَاطِلِ ؛ بِتَسْوِيلِ الْحَطَامِ ، وَتَزْيِينِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَيْهِمْ ؛ وَاهِيَّةً فَارِغَةً مِنَ الْحُجَّةِ ، وَأَقَرَّ بِأَنَّ وَعْدَهُ تَعَالَى بِالْبَقَاءِ بَعْدَ خَرَابِ الْبَدَنِ ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ عِنْدَ الْبَعْثِ ، حَقٌّ قَدْ وَفَى بِهِ »^(٢) .

❁ يَقِفُ إبليسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَوْقِفَ الدَّلِيلِ ، وَيَتَنَصَّلُ مِنْ ذَنْبِهِ ، وَيَعْتَرِفُ وَيُقرُّ بِالْحَقِيقَةِ ، وَيُلْقِي بِالْمَلَامَةِ عَلَى أَتْبَاعِهِ ، خَالِطًا الْاعْتِرَافَ بِالاحتِجَاجِ لِنَفْسِهِ ، فَالْحَقِيقَةُ فِي أَمْرِهِ أَنَّ مَقَالَهَ اعْتِدَارًا كَاذِبًا ، وَأَنَّ وَقُوفَهُ تَعْذِيرًا لَا اعْتِدَارًا .

(١) الْقَاشَانِيُّ : عَبْدُ الرَّزَّاقِ جَمَالُ الدِّينِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الْغَنَائِمِ مُحَمَّدُ الْكَاشِي أَوْ الْكَاشَانِيُّ أَوْ الْقَاشَانِيُّ : صُوفِي مَفْسِرٌ ، مِنْ الْعُلَمَاءِ ، تُوُفِيَ سَنَةَ (٧٣٠ هـ) . « الْأَعْلَامُ » لِلزَّرْكَلِيِّ (٣ / ٣٥٠) .

(٢) نَقَلَهُ عَنْهُ الْقَاسِمِيُّ فِي « مُحَاسِنِ التَّوْبِيلِ » (٦ / ٣١٢) .

❁ حتى إذا حصّص الحق، وصاروا إلى الحاجة إليه، قال لهم عدو الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، يقولها كما قالها للمشركين ببدر: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ أَيَّوَّمٍ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفَيْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، فلما حصّص الحق، وعاین جد الأمر ونزول عذاب الله بحزبه؛ ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

قال محمد رشيد رضا: «والمراد أنه كف عن تزيينه لهم وتغريه إياهم، فخرج الكلام مخرج التمثيل بتشبيهه وسوسته بما ذكر بحال المُقْبِلِ على الشيء، وتركها بحال مَنْ يَنْكُصُ عنه، ويوليّه دبره، ثم زاد على هذا ما يدل على براءته منهم، وتركهم وشأنهم، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾، ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾»^(١)، فصارت عِدَاتُ عدو الله إِيَّاهُمْ عند حاجتهم إليه غرورًا، وخرج من وعده، واعترف بالحقيقة.

❁ الغاية من وصف هذا الموقف إثارة بغض الشيطان في النفوس؛ ليؤخذ الحذر منه، بدفاع وسواسه، فهذا الخطاب الذي يخاطبهم به الشيطان مليء

(١) «تفسير المنار» (٢٥/١٠).

بإضمار الشرِّ للناسِ ، وذلك من شأنه أن يستفزَّ الغضب بسبب كيدِهِ لهم وسخريته بهم ، فيورثهم ذلك كراهيةً له ، وذلك أصلٌ عظيمٌ في الموعظةِ والتربية .

❁ في تعذير إبليس لنفسه في يوم البعث موعظةٌ للقلوبِ اليقظة ، ودعوةٌ للإيمان بالله ، واتباعِ نوره وكتابه المبينِ الكفيلِ بإخراجِ الناسِ من الظلماتِ إلى النور ، وإخراجِ الناسِ من الظلماتِ إلى النور معنىً مكرورٌ في سورة إبراهيم ، يقولُ سبحانه مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم : ١] ، وهو المعنى الذي انطوت عليه دعوة موسى **عليه السلام** ، بل هو هدفُ الرسالاتِ كلها ، ودعوةُ الرسل جميعهم : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [إبراهيم : ٥] ، وهو محورُ سورة إبراهيم ومقصدها .

يقولُ البقاعي : « ومقصودُها : التوحيدُ ، وبيانُ أنَّ هذا الكتابَ غايةُ البلاغِ إلى الله ؛ لأنه كافِلُ بيانِ الصراطِ الدالِّ عليه ، المؤدِّي إليه »^(١) .





الخاتمة

وتشتمل على ما يلي :

(١) أهم النتائج .

(٢) أهم التوصيات .





الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبفضله تتضاعف الحسنات ، والصلاة والسلام على من ختم الله به وبرسالته الرسل ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم توزن فيه الحسنات والسيئات .

أما بعدُ :

فبعد هذا البحث المبارك إن شاء الله في رحاب هذا الخلق السامي في ربوع خلق الاعتذار ، أصِلْ إلى نهاية المطاف التي يستحسن فيها حصر ما توصلت إليه من نتائج ، وفيما يلي بيان لأهم هذه النتائج ، وأهم التوصيات باختصار :

أهم النتائج :

❁ تعدد صيغ الاعتذار في القرآن الكريم ، وكل هذه الصيغ والمعاني تدور في فلك القول المعروف والقول السديد ، مما يشير إلى رُقي هذا الخلق وجماله .

❁ لخلق الاعتذار جوانب متعددة ، تشمل علاقة المسلم بالله في تحقيق إيمانه والسعي الجاد المستمر في تصحيح مساره كلما زلت قدم ، كما تشمل كل علاقاته الاجتماعية على اختلافها وتعددتها .

❁ تنوعت أساليب القرآن في الإشارة إلى الاعتذار ، ما بين أمر صريح ،

وإشادة بسير المعتذرين الصادقين ، وذب سير المعتذرين الكاذبين .

❁ إِنَّ ملازمة الاعتذار لله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** دليل على صدق الإيمان وقوة التعلق بالله ، كما كان من حال الأنبياء في ملازمتهم للاعتذار فور الوقوع في الخطأ .

❁ في بيان اعتذار الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام في القرآن توجيه لكل مسلم إلى وجوب الاطلاع على سيرهم وتدبر مواقفهم الجليلة ، والاقتداء بهم ، فهؤلاء هم الأصول والقادة في طرق الاعتذار .

❁ كذا الأمر في بيان اعتذار المؤمنين الصادقين ، إنها دروس عملية في الاعتذار وأساليبه .

❁ تختلف وتنوع اعتذارات الأنبياء ، وغالبًا ما يأتي اعتذار النبي بما أعطاه الله واختصه به من النعم .

❁ يظهر لنا في سورة يوسف أنواعٌ متعددة ومختلفة من الاعتذارات ، وكذا في سورة الكهف وإن كانت أقل من سابقتها ، وكلتاهما من السور التي تحكي واقعًا يعيشه الإنسان ، مما يشير إلى أنَّ الإنسان معرّض في حياته للزلل والخطأ ، وقوام ذلك الاعتذار .

❁ ورود الاعتذار من الثقلين الجن والإنس ، وبدء أب الخليقة بالاعتذار ، وخروج إبليس من رحمة الله لتكبره ونكوصه عن الاعتذار .

❁ ورود الاعتذار في حال السلم والحرب ، وورده من الرجال والنساء .

❁ ورود الاعتذار من الأدنى للأعلى ومن الأعلى للأدنى فما هو إلا خلق سامٍ يسمو ويرتقي بالنفوس وإن علت المقامات .

❁ في حال الاعتذار المقبول ، يأتي الاعتذار غالباً مفصلاً ، أما في حال الاعتذار المردود غالباً ما يأتي موجزاً ؛ فمداره الكذب وهدفه الخروج من المواقف الصعبة ، والإحراجات وإن اختلفت المواقف والعبارات .

❁ ورود الاعتذار عند المتقدمين من المفسرين والمتأخرين .

❁ الاعتذار الذي أشار إليه القرآن ، ويبيّن أثره وعظيم فوائده له علاقة بالعملية التربوية ، وبناء الإنسان المسلم والشخصية الإسلامية .

❁ إن التحلي بالاعتذار يجلب السعادة ، ويصلح القلوب ، ويقوي العلاقات الاجتماعية ، ويقود صاحبه إلى فعل الخيرات ، وهو من ركائز الإصلاح الاجتماعي ، وشرط في نهوض المجتمع ورفقه ، وهذه القاعدة تكاد تكون هي الحل لكثير من مشكلات الأسر ، وأزمات المجتمع .

❁ إنَّ تحويل خلق الاعتذار إلى واقع ملموس ، يحتاج إلى اعتراف بالتقصير ، ثم العزم على تصحيح المسار ، والمضي فيه بعزم ، ومحاسبة النفس بين الفينة والأخرى .

❁ الاعتذار في اليوم الآخر يختلف تماماً عن الاعتذار في الحياة الدنيا ، في اليوم الآخر جاء تصوير الاعتذار بأسوأ الصور والحالات ، أما في الحياة الدنيا فجاء الحث على الاعتذار والعرض بصور تستحث النفوس على الاقتداء .

هذه خلاصة ما استفدت من هذا البحث الذي كان له أبلغ الأثر في نفسي في محاولة توثيق صلتي بالقرآن العظيم ، ولست أدعي أنني قد حققت ما أريد ، فإنني لا زلت في أول الطريق ، كما أنني في أول طريق البحث العلمي .

أهم التوصيات :

- ❁ أوصي نفسي وجميع المسلمين بالتقوى ودوام التوبة والاعتذار لله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** .
- ❁ إجراء دراسات علمية ، وإقامة ندوات تهتم بإبراز خلق الاعتذار ، من أجل تصحيح المفاهيم الخاطئة المنتشرة في المجتمع الإسلامي حول مفهوم الاعتذار وتطبيقه ، ولما للاعتذار من عظيم الأثر في حل كثير من المشكلات .
- ❁ العناية بسورة يوسف عناية خاصة ؛ لما فيها من مواطن عديدة تتعلق بالاعتذار ؛ مما يؤكد على أهمية دراستها دراسة موضوعية مستقلة تبرز جوانب الاعتذار كخلقٍ مستوحى من كتاب الله تعالى .
- ❁ كما أن خلق الاعتذار جاء في آيات عديدة كما ظهر من خلال هذه الدراسة ، فإن السنة النبوية زاخرة بالأحاديث والدرر المتعلقة بالاعتذار ، والتي من حقها أن تؤلى عناية لإبراز خلق الاعتذار في جمع علمي محكم ، يتناسب مع وفرة نصوص الاعتذار في السنة النبوية .

- ❁ العناية الشديدة بدراسة مواضيع القرآن الكريم ، فيما يسمى « بالتفسير الموضوعي » دراسة متعمقة ؛ وذلك لما لمسته من أهمية بعد مطالعتي لموضوع « الاعتذار » ؛ ولما له من فوائد وآثار على المجتمع والبيئة المسلمة .

❁ إجراء دراسات علمية موضوعية في أخلاق الإسلام من خلال القرآن الكريم ، بهدف إخراج سلسلة متكاملة عن أخلاق الإسلام على نهج التفسير الموضوعي .

تم الكلام وربنا محمود وله المكارم والعلا والجود
وعلى النبي محمد صلواته ما ناح قمري أو اوراق عود





الفهارس الفنية للرسالة

وتشتمل على الفهارس الآتية :

- ١- فهرس الآيات القرآنية .
- ٢- فهرس الأحاديث النبوية والآثار .
- ٣- فهرس الأماكن .
- ٤- فهرس الأعلام المترجم لهم .
- ٥- فهرس المصادر والمراجع .
- ٦- فهرس الموضوعات .



فهرس المصادر والمراجع

آثار ابن باديس : لعبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي ، تحقيق : عمار طالبي ، دار ومكتبة الشركة الجزائرية ، ط ١ ، ١٣٨٨ هـ .

إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام : لابن دقيق العيد ، مطبعة السنة المحمدية .

أحكام القرآن : لمحمد بن عبد الله أبي بكر بن العربي ، راجع أصوله وخرّج أحاديثه وعلّق عليه : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان ، ط ٣ ، ١٤٢٤ هـ .

أدب الدنيا والدين : لأبي الحسن علي بن محمد البصري البغدادي ، الشهير بالماوردي ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٨٦ م .

إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري : لأحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني ، المطبعة الكبرى الأميرية ، مصر ، ط ٧ ، ١٣٢٣ هـ .

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : لأبي السعود العمادي بن مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

أساس البلاغة : لأبي القاسم محمود بن عمرو الزمخشري ، تحقيق : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ .

الإصابة في تمييز الصحابة : لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وعليّ محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٥ هـ .

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، دار الفكر ، بيروت- لبنان ، ١٤١٥ هـ .

أطلس الحديث النبوي : د . شوقي أبو خليل ، دار الفكر المعاصر ، بيروت- لبنان ، ط ٤ ، ١٤٢٦ هـ .

إعراب القرآن : لأبي جعفر النّحاس أحمد بن محمد المرادي النحوي ، وضع حواشيه وعلّق عليه : عبد المنعم خليل إبراهيم ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢١ هـ .

- إعلام الموقعين عن رب العالمين** : لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، تحقيق : محمد عبد السلام إبراهيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١١ هـ .
- الأعلام** : لخير الدين بن محمود الزركلي ، دار العلم للملايين ، ط ١٥ ، ٢٠٠٢ م .
- إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان** : لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، مكتبة المعارف ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .
- الإكليل في استنباط التنزيل** : لعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي ، تحقيق : سيف الدين عبد القادر الكاتب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠١ هـ .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل** : لناصر الدين عبد الله بن عمر البضاوي ، تحقيق : محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ .
- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير** : لجابر بن موسى بن عبد القادر أبي بكر الجزائري ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ .
- بحر العلوم (تفسير السمرقندي)** : لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي ، دار الكتب العلمية .
- البحر المحيط في التفسير** : لأبي حيان محمد أثير الدين ، تحقيق : صدقي محمد جميل ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١٤٢٠ هـ .
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد** : لأبي العباس أحمد الأنجري ، تحقيق : أحمد عبد الله القرشي رسلان ، د . حسن عباس زكي ، القاهرة ، ط ١٤١٩ هـ .
- البداية والنهاية** : لأبي الفداء إسماعيل بن كثير ، تحقيق : علي شيري ، دار إحياء التراث العربي ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ .
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز** : لمجد الدين أبي طاهر الفيروزآبادي ، تحقيق : محمد علي النجار ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٤١٦ هـ .
- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)** : لمحمد بن جرير أبي جعفر الطبري ، دار التراث ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٨٧ هـ .

تاريخ دمشق : لأبي القاسم علي بن عساكر ، تحقيق : عمرو بن غرامة العمروي ، دار الفكر ، ١٤١٥ هـ .

تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد : لمحمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي ، الدار التونسية ، تونس ، ١٩٨٤ هـ .

التسهيل لعلوم التنزيل : لأبي القاسم ، محمد بن أحمد ابن جزى الغرناطي ، تحقيق : الدكتور عبد الله الخالدي ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ .

تفسير ابن باديس (في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير) : لعبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي ، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه : أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ .

تفسير ابن فورك : لمحمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني ، من أول سورة المؤمنون ، آخر سورة السجدة ، دراسة وتحقيق : علّال عبد القادر بندويش ، من أول سورة الأحزاب ، آخر سورة غافر ، دراسة وتحقيق : عاطف بن كامل بخاري ، من أول سورة نوح ، إلى آخر سورة الناس ، دراسة وتحقيق : سهيمة بنت محمد بخاري ، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ١٤٣٠ هـ .

تفسير الراغب الأصفهاني : لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، ج ١ تحقيق ودراسة : د . محمد عبد العزيز بسيوني ، كلية الآداب ، جامعة طنطا ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ . ج ٢ ، ٣ تحقيق ودراسة : د . عادل بن علي الشّدي ، دار الوطن ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ . ج ٤ ، ٥ تحقيق ودراسة : د . هند بنت محمد بن زاهد سردار ، كلية الدعوة وأصول الدين ، جامعة أم القرى ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ .

تفسير السمعاني : لمنصور بن محمد السمعاني ، تحقيق : ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم ، دار الوطن ، الرياض - السعودية ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ .

تفسير الشعراوي - الخواطر : لمحمد متولي الشعراوي ، مطابع أخبار اليوم .

تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) : لمحمد رشيد بن علي رضا الحسيني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠ م .

تفسير القرآن العظيم : لابن أبي حاتم عبد الرحمن بن محمد بن إدريس ، تحقيق : أسعد محمد الطيب ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، المملكة العربية السعودية ، ط ٣ ، ١٤١٩ هـ .

تفسير القرآن العظيم : لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ، تحقيق : سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة ، ط ٢ ، ١٤٢٠ هـ .

تفسير القرآن الكريم (ابن القيم) : لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، تحقيق : مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية ، بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ .

تفسير القرآن الكريم : لمحمد بن صالح العثيمين ، جمع وتحقيق : صلاح الدين محمود السعيد ، الجيزة ، مصر ، ط ١ .

التفسير القرآني للقرآن : لعبد الكريم يونس الخطيب ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

تفسير الكشف عن حقائق غوامض التنزيل : لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٧ هـ .

تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) : لمحمد بن محمد بن محمود الماتريدي ، تحقيق : د . مجدي باسلوم ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٦ هـ .

تفسير المراغي : لأحمد بن مصطفى المراغي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط ١ ، ١٣٦٥ هـ .

التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج : د . وهبة بن مصطفى الزحيلي ، دار الفكر المعاصر ، دمشق ، ط ٢ ، ١٤١٨ هـ .

تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية (الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير) : لأبي العباس أحمد عبدالحليم ابن تيمية الحراني ، جمع وتحقيق : إياد عبد اللطيف القيسي ، دار ابن الجوزي ، الدمام - السعودية ، ط ١ ، ١٤٣٢ هـ .

تفسير عبد الرزاق : لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الحميري ، دار الكتب العلمية ، دراسة وتحقيق : د . محمود محمد عبده ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ .

تفسير مجاهد : لمجاهد بن جبر المخزومي ، تحقيق : الدكتور محمد عبد السلام أبي النيل ، دار الفكر الإسلامي الحديثة ، مصر ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ .

تفسير مقاتل بن سليمان : لأبي الحسن مقاتل بن سليمان البلخي ، تحقيق : عبد الله محمود شحاته ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ .

تفسير يحيى بن سلام : لأبي ثعلبة يحيى بن سلام القيرواني ، تقديم وتحقيق : د. هند شلبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٥ هـ .

تنوير المقباس من تفسير ابن عباس : لعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - ، جمعه : مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

تهذيب اللغة : لمحمد بن أحمد الهروي ، تحقيق : محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠١ م .

التوقيف على مهمات التعاريف : لزين الدين محمد القاهري ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ .

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : لعبد الرحمن بن ناصر السعدي ، تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ .

تيسير المنان في قصص القرآن : د. أحمد فريد ، مكتبة التوعية الإسلامية ، مصر ، ط ٣ ، ١٤١١ هـ .

جامع البيان في تأويل القرآن : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ .

الجامع الكبير (سنن الترمذي) : لأبي عيسى لمحمد بن عيسى بن سورة الترمذي ، تحقيق وتعليق : أحمد محمد شاكر ، محمد فؤاد عبد الباقي ، إبراهيم عطوة عوض ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ط ٢ ، ١٣٩٥ هـ .

الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه : لمحمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري ، تحقيق : محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ .

جامع بيان العلم وفضله: لأبي عمر يوسف بن عبد البر القرطبي، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤١٤ هـ.

الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤ هـ.

الجدول في إعراب القرآن الكريم: لمحمود بن عبد الرحيم صافي، دار الرشيد، دمشق، ط ٤، ١٤١٨ هـ.

جمهرة اللغة: لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٨٧ م.

الجواهر الحسان في تفسير القرآن: لأبي زيد عبد الرحمن الثعالبي، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ.

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني، السعادة، بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤ هـ.

الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن عبد الدائم، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

الدر المنثور في التفسير بالمأثور: لعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت.

درء تعارض العقل والنقل: لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط ٢، ١٤١١ هـ.

درج الدرر في تفسير الآي والسور: لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، دراسة وتحقيق: (الفاتحة والبقرة) وليد بن أحمد بن صالح الحسين، (وشاركه في بقية الأجزاء): إياد عبد اللطيف القيسي، مجلة الحكمة، بريطانيا، ط ١، ١٤٢٩ هـ.

دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: لعبد النبي بن عبد الرسول الأحمـد نكري، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢١ هـ.

دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب : لمحمد الأمين بن محمد الشنقيطي ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ .

دلائل الإعجاز : لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، تحقيق : محمود شاكر ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط ٥ ، ٢٠٠٤ م .

ديوان المتنبى : لأبي الطيب أحمد بن الحسين الكوفي ، تحقيق : عبد الوهاب عزام ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ديوان أمية بن أبي الصلت : لأبي ربيعة أمية بن أبي الصلت ، جمع وتحقيق : د . سجع الجبيلي ، دار صادر ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٨ م .

ديوان محمود الوراق : لأبي الحسن محمود بن حسن الوراق ، جمع وتحقيق أ . د . وليد قصاب ، مؤسسة الفنون ، عجمان ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ .

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : لشهاب الدين محمود الألوسي ، تحقيق : علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٥ هـ .

روضة العقلاء ونزهة الفضلاء : لأبي حاتم لمحمد بن حبان التميمي ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

زاد المسير في علم التفسير : لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ .

الزهد والرقائق لابن المبارك : لأبي عبد الرحمن عبد الله بن المبارك المروزي ، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

زهرة التفاسير : لمحمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة ، دار الفكر العربي .

السراج المنير : للخطيب الشربيني ، مطبعة بولاق الأميرية ، ١٢٨٥ هـ .

سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها : لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط ١ .

سير أعلام النبلاء : لشمس الدين أبي عبد الله الذهبي ، دار الحديث ، القاهرة ، ط ١٤٢٧ هـ .

السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث: لعلي محمد محمد الصَّلَايُبي، دار المعرفة للطباعة، بيروت- لبنان، ط٧، ١٤٢٩ هـ.

السيرة النبوية: لعبد الملك بن هشام المعافري، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأياري، وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٣٧٥ هـ.

شرح صحيح البخاري: لابن بطال أبي الحسن علي بن عبد الملك، تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض- السعودية، ط٢، ١٤٢٣ هـ.

الشرعية: لأبي بكر محمد الأجرِّي، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميحي، دار الوطن، الرياض- السعودية، ط٢، ١٤٢٠ هـ.

الشعر والشعراء: لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ هـ.

شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ١٣٩٨ هـ.

شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: لنشوان بن سعيد الحميري، تحقيق: د. حسين بن عبد الله العمري، مطهر بن علي الإيراني، د. يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، دار الفكر، دمشق- سورية، ط١، ١٤٢٠ هـ.

الصارم المسلول على شاتم الرسول: لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الحرس الوطني السعودي، المملكة العربية السعودية.

الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: لأبي نصر إسماعيل الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧ هـ.

صحيح الجامع الصغير وزيادته: لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.

الصحيح المسند من أسباب النزول: لمقبل بن هادي بن مقبل الوادعي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٤، ١٤٠٨ هـ.

صفة الصفوة: لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن الجوزي، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط١، ١٤٢١ هـ.

طبقات الشعراء لابن المعتز : لعبد الله بن محمد ابن المعتز العباسي ، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف ، القاهرة .

طبقات فحول الشعراء : لمحمد بن سلام الجمحي ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جدة .

العباب الزاخر واللباب الفاخر : للحسن بن محمد الصغاني ، تحقيق : محمد حسن آل ياسين ، دار الرشيد ، العراق ، ١٩٧٩ م .

عون المعبود شرح سنن أبي داود ، ومعه حاشية ابن القيم ، تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته : لمحمد أشرف بن أمير بن حيدر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٥ هـ .

غاية الأمان في تفسير الكلام الرباني : لأحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني ، دراسة وتحقيق : محمد مصطفى كوكصو ، جامعة صافريا كلية العلوم الاجتماعية ، تركيا ، ١٤٢٨ هـ .

غرر الخصائص الواضحة ، وعرر النقائص الفاضحة : لأبي إسحق برهان الدين محمد علي ، ضبطه وصححه وعلق حواشيه ووضع فهرسه : إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٩ هـ .

فتح الباري شرح صحيح البخاري : لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، محب الدين الخطيب ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٧٩ م .

فتح القدير : لمحمد بن علي الشوكاني ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ .

الفصل في الملل والأهواء والنحل : لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

في ظلال القرآن : لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي ، دار الشروق ، القاهرة ، ط ١٧ ، ١٤١٢ هـ .

قصص الأنبياء : عبدالرحمن بن ناصر السعدي ، دار الآثار ، القاهرة - مصر ، ط ١ ، ١٤٣٣ هـ .

قصص القرآن الكريم : د . فضل حسن عباس ، دار النفائس ، عمان - الأردن ، ط ٣ ، ١٤٣٠ هـ .

القول المفيد على كتاب التوحيد : لمحمد بن صالح العثيمين ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية ، ط ٢ ، ١٤٢٤ هـ .

كتاب التعريفات : لعلي بن محمد الجرجاني ، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٣ هـ .

الزهرة : لأبي بكر بن داود الأصبهاني ، تحقيق : د . إبراهيم السامرائي ، مكتبة المنار ، الأردن ، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ .

الكتاب : لعمر بن عثمان بن قنبر الحارثي الملقب بسبيويه ، تحقيق : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط ٣ ، ١٤٠٨ هـ .

الكشف والبيان عن تفسير القرآن : لأحمد بن محمد الثعلبي ، تحقيق : الإمام أبي محمد بن عاشور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ .

الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية : لأيوب بن موسى الكفوي ، تحقيق : عدنان درويش ، محمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

لباب التأويل في معاني التنزيل : لعلاء الدين علي الشيعي المعروف بالخازن ، تصحيح : محمد علي شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٥ هـ .

اللباب في علوم الكتاب : لأبي حفص سراج الدين النعماني ، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ .

لطائف الإشارات : لعبد الكريم بن هوازن القشيري ، تحقيق : إبراهيم البسيوني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، ط ٣ .

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد : لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ، تحقيق : حسام الدين القدسي ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٤١٤ هـ .

مجموع الفتاوى : لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تحقيق : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، مجمّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة النبوية - المملكة العربية السعودية ، ١٤١٦ هـ .

محاسن التأويل : لمحمد جمال الدين القاسمي ، تحقيق : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ .

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** : لأبي محمد عبد الحق بن عطية ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ .
- المخصص** : لأبي الحسن علي بن إسماعيل المرسي ، تحقيق : خليل إبراهيم جفال ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ .
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين** : لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، تحقيق : محمد المعتمد بالله البغدادي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٦ هـ .
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل** : لأبي البركات عبد الله النسفي ، تحقيق : يوسف علي بدوي ، دار الكلم الطيب ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ .
- المستدرک علی الصحيحین** : لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١١ هـ .
- مسند الدارمي (سنن الدارمي)** : لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ، تحقيق : حسين سليم أسد الداراني ، دار المغني ، المملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ .
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ** : لمسلم بن الحجاج أبي الحسن النيسابوري ، تحقيق : فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور (المقصد الأسمي في مطابقة اسم كل سورة للمسمى)** : لإبراهيم بن عمر بن أبي بكر البقاعي ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ .
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير** : لأحمد بن محمد الفيومي ، المكتبة العلمية ، بيروت .
- معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)** : لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ .
- معترك الأقران في إعجاز القرآن (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)** : عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ .
- معجم الأمكنة الوارد ذكرها في القرآن** : لسعد عبد الله بن جنيدل ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ .
- معجم البلدان** : لشهاب الدين أبي عبد الله الحموي ، دار صادر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٥ م .

المعجم الكبير : لسليمان بن أحمد بن أيوب أبي القاسم الطبراني ، تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ط ٢ .

معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية : لعاتق بن غيث الحربي ، دار مكة ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٤٠٢ هـ .

معجم المفسرين (من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر) : لعادل نويهض ، مؤسسة نويهض الثقافية ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٩ هـ .

المعجم الوسيط : لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار) ، دار الدعوة .

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع : لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٣ هـ .

المغني : لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن قدامة ، مكتبة القاهرة .

مفاتيح الغيب : لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٢٠ هـ .

المفردات في غريب القرآن : لأبي القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني ، تحقيق : صفوان عدنان الداودي ، دار القلم ، دمشق ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ .

مقاييس اللغة : لأحمد بن فارس بن زكرياء الرازي ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، ١٣٩٩ هـ .

المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج : لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٢ هـ .

موسوعة الرقائق والأدب : لياسر بن أحمد بن أبي الحمد الكويس الحمداني (بترقيم الشاملة آليا) .

موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم : لمحمد بن علي ابن القاضي التهانوي ، تحقيق : د . علي دحروج ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٦ م .

موقف ابن تيمية من الأشاعرة: لعبد الرحمن بن صالح المحمود، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ.

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: لإبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

النكت والعيون (تفسير الماوردي): لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد: لأبي العباس البسيلي التونسي، تقديم وتحقيق: محمد الطبراني، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء- المملكة المغربية، ط١، ١٤٢٩هـ.

النهاية في غريب الحديث والأثر: لمجد الدين أبي السعادات ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ.

الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه: لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: مجموعة رسائل جامعة بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩هـ.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: لأبي العباس شمس الدين أحمد ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٠٠م.





فهرس الموضوعات

٢	المقدمة
٣	أهمية الموضوع
٤	أهداف البحث
٤	مشكلة البحث
٤	الدراسات السابقة
٥	منهج البحث
٦	خطة البحث
١٠	كلمة شكر
١١	التمهيد : قيمة الاعتذار وأهميته
	الاعتذار في القرآن الكريم
	الفصل الأول : الاعتذار واستعمالاته في القرآن الكريم
١٤	المبحث الأول : تعريف الاعتذار لغة واصطلاحًا
١٩	المبحث الثاني : الاستعمال القرآني للفظ الاعتذار
٢٦	المبحث الثالث : مرادفات الاعتذار في القرآن الكريم
٣٠	الفصل الثاني : أنواع الاعتذار في القرآن الكريم
٣١	المبحث الأول : أنواع الاعتذار من حيث الوقوع
٣٣	المطلب الأول : الاعتذار ابتداء
٣٦	المطلب الثاني : الاعتذار بعد ظهور الأمر وبيان الحق
٤٢	المطلب الثالث : الاعتذار لبيان الحال
٤٨	المبحث الثاني : أنواع الاعتذار من حيث النوع والسبب

المطلب الأول : الاعتذار من فعل	٤٨
المطلب الثاني : الاعتذار من مقولة	٥٥
المطلب الثالث : الاعتذار من طلب ما لا يليق	٥٩
المطلب الرابع : الاعتذار للجهل بالحال	٦٤
المطلب الخامس : الاعتذار بالنسيان	٦٦
المبحث الثالث : أنواع الاعتذار من حيث القبول والرد	٧١
المطلب الأول : الاعتذار المقبول	٧١
المطلب الثاني : الاعتذار المردود	٧٧
الفصل الثالث : أسباب قبول الاعتذار	٨٣
المبحث الأول : الاعتراف بالذنب والخطأ	٨٣
المبحث الثاني : تقديم الأسباب الصادقة	٨٩
المبحث الثالث : انتقاء الألفاظ المناسبة	٩٢
المبحث الرابع : تقديم الاعتذار في الوقت المناسب	٩٨
الفصل الرابع : أثر الاعتذار	١٠٣
المبحث الأول : أثر الاعتذار على المعتذر	١٠٤
المبحث الثاني : أثر الاعتذار على المعتذر منه	١٠٨
الباب الثاني : المعتذرون في القرآن الكريم	١١١
الفصل الأول : اعتذار الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ﷺ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :	١١٢
المبحث الأول : اعتذار آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﷺ عَزَّ وَجَلَّ	١١٣
المبحث الثاني : اعتذار نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﷺ عَزَّ وَجَلَّ	١١٨
المبحث الثالث : اعتذار يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ﷺ عَزَّ وَجَلَّ	١٢١
المبحث الرابع : اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﷺ عَزَّ وَجَلَّ	١٢٦

- المطلب الأول : اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى حينما طلب رؤيته ١٢٦
- المطلب الثاني : اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لله عَزَّ وَجَلَّ عن قومه ١٢٧
- المطلب الثالث : اعتذار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لله عَزَّ وَجَلَّ حينما قتل نفساً بغير حق ١٢٩
- المبحث الخامس : اعتذار داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لله عَزَّ وَجَلَّ ١٣٢
- المبحث السادس : اعتذار سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لله عَزَّ وَجَلَّ ١٣٥
- الفصل الثاني : اعتذار سائر الخلق لله ١٤٠
- المبحث الأول : اعتذار صاحب القرية في سورة البقرة ١٤١
- المبحث الثاني : اعتذار صاحب الجنتين في سورة الكهف ١٤٤
- المبحث الثالث : اعتذار أصحاب الجنة في سورة القلم ١٤٦
- المبحث الرابع : اعتذار قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ١٤٩
- المبحث الخامس : اعتذار بلقيس في قصة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ١٥٢
- المبحث السادس : اعتذار فرعونَ ١٥٤
- الفصل الثالث : الاعتذار للأنبياء ١٥٧
- المبحث الأول : اعتذار إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ١٥٨
- المطلب الأول : اعتذار إخوة يوسف ليعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ حينما زعموا أنه أكله الذئب ١٥٨
- المطلب الثاني : اعتذار إخوة يوسف ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ١٦٠
- المطلب الثالث : اعتذار إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيهم ١٦٣
- المبحث الثاني : اعتذار امرأة العزيز ١٦٥
- المبحث الثالث : اعتذار هارونَ لموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ١٦٩
- المبحث الرابع : اعتذار الهدهد لسليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ١٧٢
- المبحث الخامس : اعتذار المستهزئين بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٧٥
- المبحث السادس : اعتذار أغنياء المنافقين للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٨٠

المبحث السابع : اعتذار المعذرين من الأعراب إلى النبي ﷺ	١٨٣
الفصل الرابع : الاعتذار لغير الأنبياء	١٨٦
المبحث الأول : اعتذار موسى للخضر عليه السلام	١٨٧
المبحث الثاني : اعتذار إخوة يوسف عليه السلام لأصحاب العير	١٩١
المبحث الثالث : اعتذار المنافقين للمؤمنين	١٩٤
الفصل الخامس : الاعتذار في الحياة الآخرة	١٩٧
المبحث الأول : اعتذار الظالمين والمفترطين حين تتوفاهم الملائكة	١٩٨
المبحث الثاني : اعتذار المشركين والظالمين والمفترطين يوم القيامة	٢٠٤
المطلب الأول : اعتذارهم في عرصات يوم القيامة	٢٠٤
المطلب الثاني : اعتذارهم في النار	٢٠٨
المبحث الثالث : اعتذار إبليس	٢١٣
الخاتمة	٢١٧
أهم النتائج	٢١٨
أهم التوصيات	٢١٩
الفهارس الفنية للرسالة	٢٢١
فهرس المصادر والمراجع	٢٤٥
فهرس الموضوعات	٢٥٩